تجارة العبيد في إفريقيا

عايدة العزب موسى

مكتبة الشروق الدولية

تجارة العبيد فى إفريقيا

الطبعـــة الأولى

١٤٢٨ هـ ـ أبريل ٢٠٠٧ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl@hotmail. com >

< shoroukintl@yahoo.com >

تجارة العبيد فى إفريقيا

عايدة العزب موسى



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

موسى، عايدة العزب
تجارة العبيد فى إفريقيا
عايدة العزب موسى
ط١ ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م
٢٦٤ ص ؛ ١٧× ٢٤سم
تدمك : 5- 2021-09 -977
١ ـ تجارة الرقيق
٢ ـ إفريقيا ـ تاريخ
أ ـ العنوان ٣٨٠,١٤٤

رقم الإيداع ٣٦٢٥ /٢٠٠٧م
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977- 09-2021-5

الفهرس



مقدمة

إن النظرة الخارجية لإفريقيا توحى بأنها قارة غير قادرة على التطور، وأنها ازدادت فقراً وبؤساً بعد الاستقلال، وأن الإفريقيين فشلوا فى العمل جنباً إلى جنب، وأن الانقلابات والحروب الأهلية وحركات الانفصال التى تؤدى إلى التفتيت، وقتل الأبرياء بلا تمييز والفساد والوهن كل ذلك يجرى فى ظل التحرر، وأن الإفريقيين دائماً ما يستغيثون فى طلب المساعدة من الخارج سواء كانت هذه المساعدة لمقاومة المجاعات أو الجفاف أو لانهيار الإنتاج الزراعى أو للحصول على أسلحة للتدمير يستخدمونها لقتل بعضهم بعضاً، أو لدعم ميزان المدفوعات أو لاستثمارات رأسمالية وتكنولوجية لتفادى الإفلاس والتدنى الاقتصادى.

إن الحقيقة التى ينكرها ويتناساها الجميع أن هذا الوهن الإفريقى لتحديات التغيير والبقاء، والتطور التى توصم به إفريقيا له جذوره الضاربة عبر التاريخ، قرون متتالية خضعت فيها القارة لتجربتين قاسيتين من تجارب العبودية والاغتراب.

التجربة الأولى تعود إلى القرن الخامس عشر عندما حدث الاتصال بالغرب. فى البداية جاءوها مغامرين ومكتشفين ومبشرين، ثم تدفقوا تجاراً للرقيق، سرقوا واقتنصوا واقتادوا ملايين البشر من إفريقيا عبر الأطلنطى وقذفوا بهم إلى العالم الجديد فى أمريكا ليعمروه. قدر الزعيم الغانى الراحل كوامى نكروما عدد الشباب الذين فقدتهم إفريقيا خلال أربعة قرون بمائة مليون، وكانوا كلهم فتياناً وفتيات فقط؛ لأن كبار السن لم يكن مرغوباً فيهم لعدم مقدرتهم على العمل الشاق المهلك فى مزارع ومناجم الأمريكات[1]. وهذه المرحلة هى مرحلة العبودية الأولى من الرق البشرى والأسر المادى أفرغت فيها القارة من أبنائها.

---

(١) يقصد بالأمريكات أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية.

تلتها التجربة الثانية وهى لا تختلف فى مرارتها وآثارها المدمرة عن سابقتها، وهى مرحلة أو تجربة الأسر الثقافى «ريكاتيف» حسب التعبير الذى أطلقه المؤرخ البريطانى الشهير «بازيل ديفيد سون» فى كتابه «عبء الرجل الأسود» ويقصد به الأفارقة المثقفين الذين تعلموا فى الخارج وعادوا إلى بلادهم أشد غربة عنها وعن شعوبها وأصبحوا عبيداً للثقافة والفكر الغربيين[1]. ويعرفهم «بازيل ديفيد سون» بأنهم إفريقيون تماماً حسب أصلهم، ولكنهم انفصلوا عن إفريقيا بتجربة حادة من تجارب الاغتراب، وأسروا بالأفكار الغربية التى لا تصلح لواقعهم، وهؤلاء انبثق عنهم نمطان من الوطنيين: النمط الأول يتكون من الرؤساء والملوك الذين بقوا يؤمنون بالتقاليد الإفريقية وهم من أطيح بهم، والنمط الثانى يرون أنفسهم أنهم الوارثون الحقيقيون للحكام الاستعماريين وهم من فرضوا سيطرتهم على الحكم أمثال الرؤساء الأوائل د. باندا فى مالاوى وسنجور فى السنغال وهوفيه بوانييه فى كوت ديفوار (ساحل العاج) وحتى جومو كينياتا الذى كان كل ما يصبو إليه أن تمارس كينيا الحكم الذاتى فى الكومونولث شأنها شأن كندا ونيوزيلندا.

هؤلاء المتعلمون فى الغرب أنصار الحداثة كانوا يميلون أكثر لقبول الحلول الغربية للمشكلات الإفريقية، وتقبلوا المفاهيم الأوروبية للدولة القومية والسيادة، واعتقدوا أن هذه المفاهيم هى المناسبة للإفريقيين المعاصرين ليتعاملوا مع مشاكل العصر، وكانوا نافدى الصبر للتقاليد الإفريقية ولأى شىء يتعلق بالتقاليد القبلية، واعتقدوا أن مستقبل إفريقيا يجب أن يستند إلى النظريات الأوروبية وأن يستهدى بخبرات التاريخ الأوروبى، ونظروا إلى التقاليد باعتبارها عقبة فى تحرير إفريقيا، وكل ما كان ينشده هؤلاء بمناداتهم بالقومية أن يحلوا محل الحكام الاستعماريين ولكنهم ما أن يصلوا إلى السلطة ويجدوا أنفسهم وسياساتهم تواجه تحدياً من ممثلى تلك التقاليد وجموع الشعب العادى، ما أن يحدث ذلك حتى تجد هؤلاء أنصار الحداثة لا يترددون فى الهجوم

(١) مثل جاكوب كابيتين وهو طفل من غانا تم خضوعه للعبودية منذ طفولته حتى مماته (١٧١٧ ـ ١٧٤٧م) بيع فى وقت مبكر وهو فى الثامنة من عمره إلى بحار هولندى قدمه كهدية لراع فى لاهاى الذى أرسله إلى المدرسة اللاتينية، ثم التحق بجامعة ليدن كدارس للاهوت، وهناك تم تكييفه للثقافة الغربية، وقدم رسالته الجامعية حول مسألة تحرير الرقيق، جاءت دفاعاً عن العبودية وتجارة العبيد التى لا تتناقض مع المسيحية حسب قوله. (كتاب إفريقى من القرن الثامن عشر تأليف كريس براه ترجمة ـ حلمى شعراوى وإسماعيل زقزوق ـ دار الأمين للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٧م).

والإدانة والاعتقالات وصاروا يقمعون غيرهم ويضطهدونهم مثل خلفائهم سادة الاستعمار، ويلجأون أيضاً إلى قاعدة فرق تسد.

إن الوهن الإفريقى الذى تشاهده اليوم هو نتاج هاتين التجربتين القاسيتين من تجارب العبودية التى أعاقت التطور والإصلاح والتنمية فى إفريقيا.

وعلى الرغم من أن الغرب هو من ابتدع تجارة الرقيق عبر الأطلنطى وانتزع الأفارقة وشحنهم خارج قارتهم بلا عودة، وهى حقيقة مسجلة فى أدبياته وأرشيفاته، إلا أنه الآن يحاول أن يتنصل من أحط جريمة عرفتها البشرية ويلقى بمسئوليتها على الأفارقة، فهو يقول لولا مساعدة الإفريقيين شعوباً وحكاماً ما استطعنا أن نأسر كل هذا العدد من أبناء إفريقيا ولولا أننا وجدنا البائع لما كنا أصبحنا مشترين. والرد البسيط أنه لولا وجود المشترين لما وجد البائع.

لا شك أن عددا من الإفريقيين تعاونوا مع تجار الرقيق الغربيين، ولكن يتعين اليوم أن نتفهم ظروفهم ودورهم وإلا سيخضعون لظلم شديد. إن الحقيقة التى يجب ألا تغيب أن كل ما كان يطلبه الأوروبيون فى أى مكان فى العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو الغش فإن لم ينجحوا بأى من هاتين الوسيلتين فبالقوة. فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة نجد أن المجتمعات الأمريكية قامت أساساً على استغلال العامل الإفريقى وأرض الهندى الأحمر وهو أمر لا يمكن نكرانه. اغتصب الأوروبيون الأرض وأزاحوا الأهالى وأحياناً كانوا يسممون منابع المياه أو يعطونهم هدايا مسمومة، وكان الأهالى المحظوظون الذين لم يقتلوا يجمعون فى معسكرات معزولة. إن الأوروبيين عندما كانوا لا يجدون من يتعاون معهم فى استجلاب العبيد كانوا يلجؤون إلى إبادة الأهالى والامتلاك الكامل لأراضيهم كما حدث فى الأمريكتين مع الهنود الحمر وفى أستراليا ونيوزيلندا، وما فعله الألمان فى ناميبيا والبلجيك فى الكونغو.

لم يكن الزنوج الأفارقة مجرد عبيد ولا كان الهنود الحمر مجرد أفراد مطرودين من الأرض، وعلينا أن نقدر دور هذه الشعوب الصامتة التى أسدل عليها ستار النسيان لأنها أثرت فى مسيرة التقدم التاريخى لأمريكا، فلا الزنوج ولا الهنود مجرد شعوب بدائية يمكن أن نطحنهم تحت رحى التفوق الحضارى الأوروبى، حتى بنيامين فرانكلين أحد رؤساء أمريكا الأقدمين عجز عن ذلك منذ أكثر من مائتى سنة بقوله: «نحن

يسمونهم متوحشين ، لأن عاداتهم وأساليبهم في الحياة تختلف عن عاداتنا وأساليبنا التي نعتقد أنها بلغت حد الكمال ، وهم يعتقدون الشيء نفسه بالنسبة لهم !!

إن تجارة الرقيق الإفريقية التي بدأت في القرن الخامس عشر واستمرت طوال أربعة قرون تقريبا هي واحدة من أبرز الظواهر في تاريخ أفريقيا ، فهي تمثل أكبر هجرة جماعية في التاريخ ، وفضلا عن ذلك كان لها نتائجها البعيدة ، وبسبب فهمهم لأهميتها الحاسمة في بناء إمبراطوريات الدول الأوروبية الاستعمارية وفي تراكم الثروات التي فجرت الثورة الصناعية فيما بعد.

* * *

من الدراسات الحديثة للتاريخ الأفريقي غير المتعصب الأوروبي يتضح أن الهوة الحضارية بين المجتمعات الأوروبية والأفريقية لم تكن كبيرة حتى عهد قريب نسبيا ، ففي الوقت الذي وصل فيه الأوروبيون إلى سواحل أفريقيا الغربية كان عدد من الإمبراطوريات العظيمة قد تكونت بالفعل مثل مملكة غانة القديمة التي شغلت الأرض الشاسعة بين الصحراء الكبرى وخليج غينيا ، وما بين السنغال والمحيط الأطلسي فيما بين القرنين السادس والعاشر ، ومن خلال ذلك انتشرت الحضارة وشاع المعمار المتقدم والفنون الجميلة المتقنة ونظام سياسي معقد ، وكانت سنغاي في الغرب هي التي قد تسلمت الحضارة فيما بين القرنين الخامس والسادس عشر ، وأصبحت غاو وتمبكتو في إمبراطورية غانة القديمة عاصمتين ، وكانت الإمبراطورية مالي التي كانت تمبكتو مدينة مشهورة بمكتبتها الشهيرة والجوامع الإسلامية التي حوت هيئة تدريس مقتدرة مثل غيرها من المجتمعات الأوروبية ، كما كانت هناك ممالك أخرى أصغر منها مثل مملكة الكونغو ومملكة بنين في طريق النمو الحضاري قبل وصول الأوروبيين إفريقيا بمئات السنين ، وقد مهر سكانها في أعمال المعادن والنسيج والصناعات الحرفية وفي النحت والمشغولات الخشبية المدهشة ، وصنع كثير من مدنها ما لم تعرف الأوروبية في حجمها ، وكانت لبعض مجتمعات غرب أفريقيا شعائر دينية وعادات قبلية جيدة التنظيم وقوانين تشريعية وأطر سياسية معقدة.

وكان النظام الذي تتبعه المجتمعات الأفريقية يقوم على الملكية ويعتمد على المساواة وليس العبودية ، كانت العبودية تحدث فقط بفعل الحروب ، ولم تؤد إلى ... الشرق ،

ولكن نظام الأسر ظل متوقفاً فيما عدا أسرى الحروب لم يستوعبوا في الجماعات الواحدة التي يعيشون بها ويصبحوا أعضاء فيها خدماً أو عبيداً وما إليها

ففي المجتمعات الأفريقية القديمة كان للملك حقوقه على الرعايا وقدسيته لدى شعبه، وكان زعيم القبيلة لا يحتوي على أكثر من أفراد قبيلته وعشيرته، ولم يكن العبيد الذين يأتون عن طريق الحرب وهم عادة أسرى الحروب، هؤلاء كانوا يعتبرون عبيداً في المجتمع، ومن ثم لا يختلفون في حقوقهم كثيراً عن عامة المجتمع يعاملون معاملة أفراد الأسرة كما كانت الحال قبل أن تعرف أفريقيا تجارة العبودية عبر الأطلنطي.

وإن فشل الرحالة والمؤسسات الحاكمة في حماية الأفارقة من الأسر ومع ضغوط المستعمر كانت حملة صيد العبيد، ثم لم تكن مشروعاتهم إلا فرص التجارة في أن يستغنوا عن التجارة الأوروبية، وفي الحالات التي كان الحكام الأفارقة يصدرون العبيد من السلع وحدها مقابل السلع والمواد المصنعة، ظهرت هذه المحاولات بشكل

تدريجي حتى ظهرت أنواع العبودية الثلاثة: العبودية المنزلية، العبودية الإنتاجية، العبودية المشتركة، وفيها شارك الأفارقة الأوروبيين في عمليات تجارية، وصارت تجارة الرقيق عملاً يقوم به الحكام والقادة الأفارقة من أجل حصول الأفريقيين على البنادق والأسلحة التي يحتاجونها في حروبهم الداخلية.

في البداية، كانت هناك أسس محددة ومعلومة بين الطرفين، ومع تطور العلاقات بين الأفريقيين والأوروبيين وصار التعامل بين الجانبين، وتطورت العلاقات خاصة بالمساواة والاحترام المتبادل، فالتجار الأفريقيون في عيون الأوروبيين مجرد وكلاء للعبيد وخادمين لهم، وصار الأفريقيون يعرفون أنهم يعتبرونهم لا شيء، لا قيمة لأرواحهم وأنهم لا يفعلون شيئاً إلا الحصول على المال مقابل العبيد وكلاء للقوم يعملون لمصلحتهم، وبالدرجة نفسها يبحث الأوروبيون عن إفريقيا متوحشة وشعب لم يره كما حاول نشر المسيحية الأوروبيون وغيرهم وجعلها المسيطرة على الأفريقية ويستحقونها سعياً لهم، ويؤكد الأوروبيون تميزهم الأخلاقي والمعنوي والمادي

***

وتسمية تجارة العبيد عبر الأطلنطي كانت الممارسات التي جرت في تجارة الرقيق والأحداث المستحدثة تفضح دور العرب والمسلمين في هذه التجارة، وكان المقصد من

ذلك لتصحيح صورة العرب لتدخلهم في تجارة باسم مكافحة تجارة الرقيق وضعف وسعيهم للحصول على الامتيازات بالتهديد وبالإقناع للتدخل في شئون هذه الدول ومن ثمة الدول والأسواق وخطوط الملاحة البحرية مثلما يفعلون الآن في القرن الحادي والعشرين في دارفور والصومال وأفغانستان.

نعم مارس العرب هذه التجارة ولكن شاركهم في هذه الممارسة اليهود في الشرق الأفريقي واليهود في السودان. الإنجليز والفرنسيون في شمال القارة وغربها والأوروبيين في سواحل الأفريقية. فضلا عن الأفريقيين أنفسهم على امتداد القارة.

ولكن يظل الفرق بين كل ممارسة العرب والشرقيين عامة والمسلمين على وجه الخصوص كان مختلفا تماما عن الفرق لدى ممارسة الأوروبيين سواء في أوروبا أو في الأمريكتين، وذلك مشهود له من الغربيين أنفسهم.

وإن كان كثير من العرب والأوروبيين قد عملوا في تجارة الرقيق فإن التحول هو يكون في كيفية معاملة واستغلال الرقيق وفي مسئولية تحويل الأعداد الضخمة من مواطنها الأصلية.

إن الفرق بين الرق في المجتمع العربي وذلك في المجتمع الغربي عند الأوروبيين والأمريكيين يختلف من الرق بصفة المقصود في حين كان يشكل عند العرب نظاما اجتماعيا، وكان سوق الرقيق في العالم العربي محدود ولم يشهد أسواق كبرى لسوق الرقيق الغربي، كما أن النشاط التجاري بين العرب والأفريقيين لم يكن يختص العبيد والحاشيين فقط، وإنما كان يختص بكل أرجاء الاقتصادي والازدهار الحضاري الذي ظهر في العديد من الممالك والمدن والسلطنات العربية والإسلامية على طول سواحل شرق إفريقيا، وكذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء نشوء العديد من الممالك والحواضر الإسلامية كمملكة غانا ومالي وصنغي وكانم وبرنو وغيرها. ومن ثم كانت تجارة الرقيق العربية تقوم على جهود فردية قبل التجارة الأوروبية التي اعتمدت على الشركات والمراكز التجارية وإنشاء القواعد العسكرية التي تضمنت الحق على القارة.

ومن السمات المميزة الأخرى للرق أنه كان عند العرب يستعمل أساسا كخدمة المنازل والجيوش وأحد مظاهر الترف، بينما هو في الأمريكتين كان أساس اقتصادي وحيد،

[illegible] يعملون للعمل في المزارع [illegible] ويستخدمون كقوى محركة وفي رفع [illegible] شأنهم في ذلك شأن المواشي. لذلك فإن العبيد في الشرق [illegible] في [illegible] كما كان [illegible] بالإسلام [illegible] فقد فتح الإسلام مجالات تحرير الرقاب.

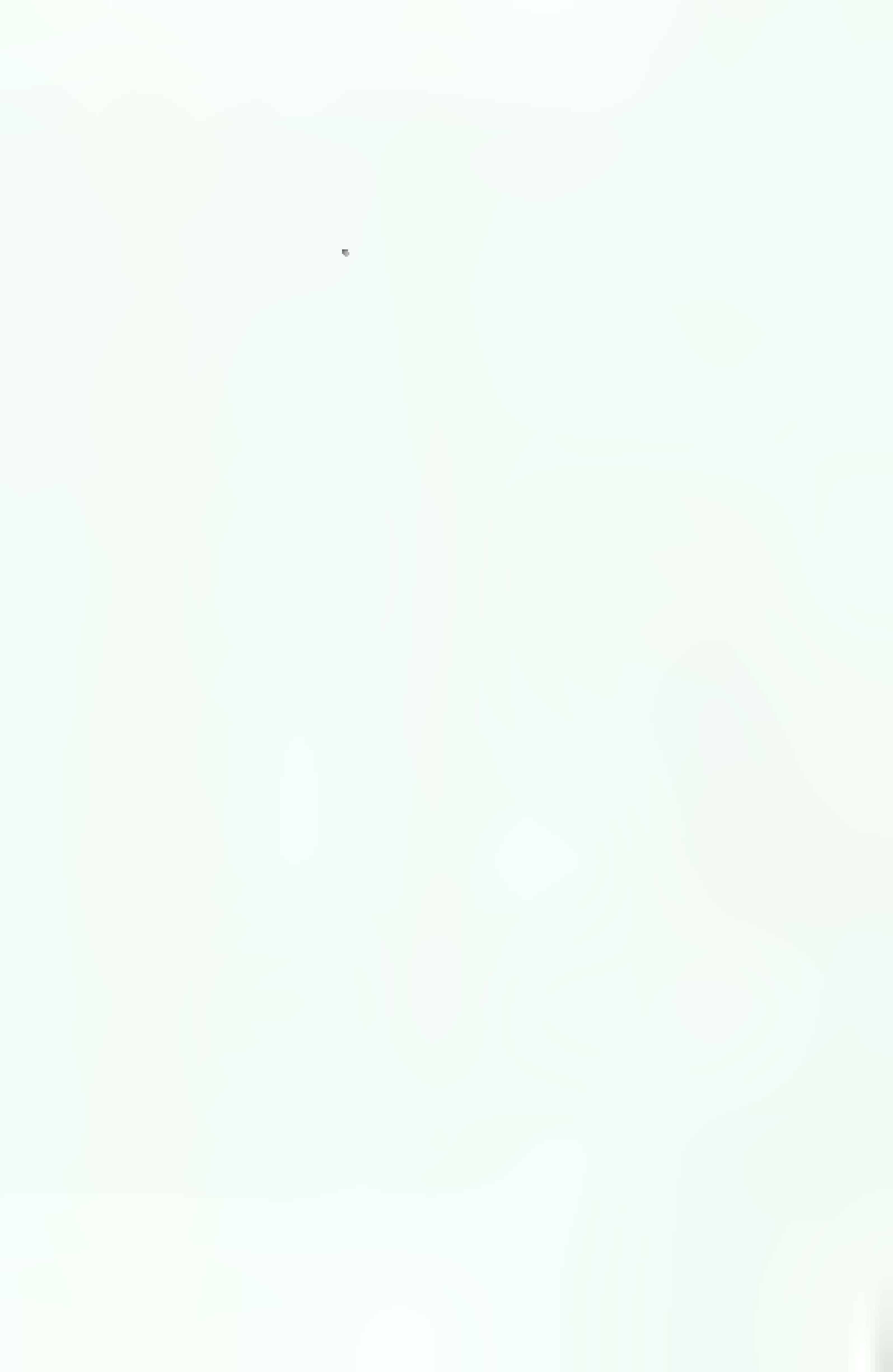
وهذا الكتاب [illegible] لكتابي [illegible] "العبودية في الغرب" الذي كان عن [illegible] الأوربيين [illegible] وهذا الكتاب الثاني يكشف عن [illegible] و[illegible] [illegible] و[illegible] [illegible] الرق الإفريقي وبواعثه [illegible] وما حدث في [illegible] من [illegible]

[illegible] هذه الجريمة لا [illegible] الغموض والصمت [illegible] في [illegible] [illegible] ولا [illegible] في بعض [illegible] في [illegible] الرق الإفريقي [illegible] في [illegible] [illegible] الرقيق [illegible] محمد [illegible] [illegible] من [illegible] العربية في [illegible] [illegible] على بعض [illegible] العربية والإسلامية [illegible] في [illegible] الرقيق في [illegible] بالرغم من [illegible] الحضارتين الأوروبية والعربية

[illegible] من [illegible] الإفريقي من [illegible] لا [illegible] التاريخ [illegible] من [illegible] [illegible] الإنسانية والضمير الإنساني في عهد الاسترقاق

[illegible] أكثر [illegible] وتفصيلاً، توقظ وتثير في الضمائر [illegible]

***



الفصل الأول

ظاهـــرة العبـــوديـــة

- تمهيد
- لماذا عبيد إفريقيا؟
- من أين جاء هؤلاء؟
- نظم التحالف العبودى



تمهيد

[illegible] الأوروبية بقوله [illegible] [illegible] [illegible] تقتل الشباب من الداخل ومن الساحل وتدمي الحياة في [illegible] [illegible] [illegible] الأفريقيون والذل الذي عاشوه لم يكن [illegible] أوروبا لا عدداً من السنين بينما استمرت تجارة [illegible] [illegible]

[illegible] بأنهم يحملون وزر الرق كما تحمله أوروبا [illegible] (١)

(١) [illegible] ص ١٩٣-١٩٥

هذه شهادة من مؤرخ كبير موثوق به نقدمها لأن أصواتاً وكتابات غربية تحاول أن تلقي على العرب مسئولية جريمة الرق، وتلقي بها على العرب متهمة لهم بأن التجارة العربية في أفريقيا هي التي أدت إلى هذه الوصمة السوداء.

ولقد ساهمت في هذا الادعاء بعض الأصوات الزنجية التي انحرفت بالزنجية عن مسارها. فبينما كانت تشتد الدعوة الزنجية في ثلاثينات القرن العشرين ضد الاستعمار الأوروبي وتجارة الرقيق الأطلنطية أصبحت موجهة إلى الماضي لا تعدو إلى الحاضر الاستعماري، ونشأت مسألة تجارة الرقيق العربية عبر الصحراء الكبرى والمحيط الهندي، ولم تعد نظرة الأفريقي للعرب أنهم عنصر أجنبي وفدت على إفريقيا شأنهم شأن الأوروبيين المستعمرين، بل إن صورة العرب والإسلام أصبحت أكثر سوءاً في ذهن الأفريقي بصورة العدوانية والاستعلاء وتجارة الرقيق. ووجهت بعض الأدبيات الزنجية الاتهامات بالادعاء بمسئولية العرب عن مصائب التخلف الذي وصفت به القارة الأفريقية[1].

وقد شنت بعض الحملات ضد العرب في السنوات الأخيرة في الصحافة ووسائل الإعلام، وللأسف لم تصدر دراسات موضوعية عربية وإفريقية ترد على تلك الاتهامات، بل أصبح الحديث من بعض المثقفين العرب من يردد مقولة أن تجارة الرقيق والاسترقاق كانت جريمة العرب دون سواهم، متغاضين عن حقيقة أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق في إفريقيا أكثر من أربعة قرون تعرضت القارة خلالها لعملية استنزاف بشري أدى إلى ضعف المقاومة وسهل مهمة الحركة الاستعمارية في السيطرة عليها[2].

* * *

إن تجارة الرقيق معروفة منذ العصور الأولى للبشرية، وعرفت الأمم المتقدمة في حضارتها أنواعاً من الرق، والذين اتهموا بعض فلاسفة الغرب تاريخ الرق فأرسطو فيلسوف الأمة الإغريقية يوجب الرق بقوله «لا يزال في العالم مخلوقات للسيادة وآخرون مخلوقون للطاعة تحكمهم في ذلك حكم الآلات الحية في سياق معين ولا تدري ما تسوق بها» والفلاحون في جمهوريته يقولون بها لا تقوم إن لم يكن فيها رقيق يقومون

---

(1) العرب في ... ، كلمة ... جامعة ... عدد ... ١٩٨٧م، ... ص ٤
(2) المرجع السابق ص ٩

بالأعمال الشاقة، بل [illegible] في جنسيهم وضع في طبقة بعضهم ذهبًا ليمكنهم أن يكونوا حكامًا ووضع في طبقة آخرين نحاسًا وحديدًا. والرومان الذين اشتهروا بالتمدين كان المبدأ السائد عندهم أن الرقيق يعتبر شيئًا لا شخصًا شأنه شأن الحيوانات والجمادات التي يمتلكها سيده، [illegible] فعصر روما عندما فتح بلاد الغال استولى على مئات الأسير وضرب عليهم الرق[1].

وهكذا نجد أن الرق ظاهرة لازمت البشرية منذ فجر حضارتها، وما زالت لها حتى يومنا هذا آثار وتداعيات همجية وشائنة ورواسب وبقايا مروعة مما يؤرق كل ضمير حي، إن نزع البشر [illegible] في التصرف [illegible] وسلبهم حقهم [illegible] في شئون تملكه [illegible] كرامتهم وحقهم [illegible] وممارسة حق التصرف فيهم بيعًا وشراء شأنهم شأن سائر [illegible] لا تنسحب على العبد فقط بل على السيد أيضًا كما قال هيجل إن عبودية الرقيق تجعل السيد يفقد إنسانيته أيضًا، فالسيد بقدر ما يذل رقيقه ويستبيح كرامته وينكر عليه آدميته إنما يجرد نفسه من كافة مشاعر إنسانية[2].

إن الرق ليس من صنع الإنسان الهمجي البربري المتوحش، وإنما كان من صنع الإنسان المتحضر، ففي عصر الإنسان الأول الذي كان يعيش على قطف الثمار [illegible] لم يكن هناك حاجة إلى رقيق يعملون من أجل سادة يرفعون عنهم مشاق من عملهم، ولكن الإنسان بعد ظهور الحاجة إلى العمل أخذ يبحث عمن يحمل عنه عناء العمل ومكابدته ومن ذلك نشأ الرق.

[illegible] القول إن الرق ظاهرة إفريقية، فإن التجارة بالرقيق عرفت في شتى أرجاء العالم القديم قبل أن تعرفها إفريقيا، فقد كان نظام الرق هو النظام الاجتماعي السائد في [illegible] عند قدماء المصريين واليهود والفرس [illegible] والصينيين والسومريين والرومان، وكان الرقيق هم وقود حروب وغزوات هذه الممالك والإمبراطوريات، وقد عرفته القبائل الإفريقية شأنها شأن شعوب العالم القديم، ومن ثم شهدت السلطنات والممالك الإفريقية [illegible] عصر فجر إفريقيا كما مارس العرب [illegible]

(1) قضايا إفريقية ـ د. محمد عبد الغني سعودي ص ٩٢ ـ ١٠٢
(2) [illegible] أحمد فؤاد بلبع (الجزء الأول من نشأة الرق حتى مجيء الإسلام ـ الطبعة الأولى ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ٢٠٠٣م) ص ١٨

ثورة برق في إفريقيا، وكذلك لهم صلات بالمناطق الشرقية والوسطى والعصور والحبشة وزمبابوي. وفي داخل القارة عبر الصحراء الكبرى من خلال الواحات الصحراوية التي تبر خطوطاً شمالية. ولكن كان حجم هذه التجارة محدوداً. وبوجه عام جرداء في شكلها الحالي لا التجارة الأوروبية عبر الأطلسي بدأت تمر ثم ... وهو ما ... واستطاع نوع فريد من تجارة الرق عبر الصحراء في غربها الرقيق عبر الحروب[1] التي حدث لم يكن محدوداً ... والصحراء ... لم تشهده مشرقية من قبل ... عبر بالقارة الإفريقية بين بعض الاستراق داخل مجتمعاتها وتجارة الشرقية والأخرى بينهم وتحملهم ... خارج القارة وتسويقهم ... هيكلها الاجتماعي والاقتصادي ... إفريقيا كلها كفترة ... الاستراق في العالم القديم والعصور الوسطى لم ترتبط بجنس أو عرق معين، ولا بحدود جغرافية. وقد ... كل السلالات ... في كل ... غير أنه مع بداية العصور الحديثة أصبحت إفريقيا هي ... الاستراق عبر [illegible]

ولم تكن هذه التجارة وليدة سنوات بل استمرت لأربعة قرون وأكثر حتى ... من إفريقيا ... والأقوام الإفريقية في دوامة حروب ... كقطيع ماشية ... من كل صوب ... من ... الشرقية ... من الساحل ... الوسط ... في كمائن ... وقوافل تجار الرقيق عبر الصحراء ... إفريقية وهدر طاقاتها وممتلكاتها ... دورة ... والجوع والضرع، اندثرت مواقع الحضارات والثقافات وذكت محاربة المجتمعات المدنية، ... عبر قرون ... تطورات المعيشة ... إفريقيا فتمزقت خريطة القبلية والإثنية والعرقية.

---

[1] [illegible] ص ٢٩

من المتعذر تحديد بداية نشوء مؤسسة الرق، فالرق ظهر منذ كان الاجتماع البشري وربما كان الأسبق عن ذبح الأسرى في الحروب بعد أن تبينت قيمة العمل وعرف أن الأسير حي خير من الأسير المذبوح، وبذلك يكون الرق قد نشأ حيث كانت هناك أعمال يمكن أن يرفع كاهلها عن الإنسان لتوكل به على إنسان آخر.

وقبل الحديث عن تطور مؤسسة الرق من الأصوب التعريف بالرقيق والفرق بين مفهوم العبد أو الرقيق slave ومصطلح "القن" serf. فالرقيق مملوك ملكية تامة وفاقد للشخصية، إن مات صار ما يملكه ملكاً لمالكه، وكذلك زوجته وأطفاله يكونون ملكاً لصاحبه، وهو لا يستحوذ على ما ينتج ولا ينال منه إلا حاجته سوى طعامه ومأواه وملبسه، ويتصرف فيه المالك بيعاً وشراءً وإيجاراً، أما القن فهو إنسان حر مملوك ملكية لا يباع ولا يشترى، له حق الولاية على ممتلكاته الشخصية وزوجته وأطفاله ملكه، قد يباع ويشترى مع الأرض التي يعمل فيها وتورث ولكن مالك الأرض لا يستطيع طرده من الأرض ولا يسلك القن [illegible] ويرتبط القن بعقد مكتوب أو عرف مكتوب يبقى بمقتضاه في الأرض والخدمة بنسبة لا يرغب المالك في [illegible]، وقد يدفع نسبة للعمل في الأرض نسبة من المحصول [illegible] وقد يختص له سيده بقطعة أرض صغيرة يتصرف في محصولها مقابل العمل لأيام معدودة في أرض سيده، وقد يدفع لسيده ضريبة أو خدمة أو الاثنين معاً(٢).

ويرتبط العبد أو الرقيق بعلاقة ولاء مع سيده وتنشأ هذه العلاقة بعد أن يعتقه سيده، حيث كان السيد يعتق العبد والآخر يعتق أحد أرقائه، فهل كان يؤدي ذلك إلى تحريره؟ هل يصير العبد حراً بعد أن يتخلى سيده عنه؟ في هذه الحالة نشأ ما يعرف بعلاقة الولاء وهو أن يظل العبد في عنق الأحوال مرتبطاً بسيده ويستمر خضوعه لسيده وخضوعه [illegible] وإذا قصر العبد في الواجبات التي تفرضها عليه هذه العلاقة يحق لسيده أن يسترده من جديد رقيقاً له. وفي موسوعة «وصف مصر» التي سجلها علماء

(١) الرق في الإسلام [illegible] الطبعة الثالثة ص ٣٤

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني النشأة - السمات - الاضمحلال توثيق وتحليل تأليف محمد إبراهيم نقد، دار الثقافة الجديدة (الطبعة الأولى) ١٩٩٥م ص ١٥١

[illegible] المؤسسة أن المملوك شيء مثل [illegible] لسيده [illegible] لاحترام ولا ولاء [illegible] يصعب على [illegible] في [illegible] ولا يحسبون [illegible] لا [illegible] في ذلك، وكانوا يحرصون على ألا يجلسوا على الأريكة نفسها التي يجلس عليها سيدهم»(1).

وجاء في موسوعة [illegible] ج ٢ ص ١١٣ [illegible] لمؤسسة الرق في نشوئها [illegible] ثم [illegible]، وأشارت إلى أن مصادر الرق كانت من [illegible] الأرقاء، ومن [illegible] الأحرار [illegible] من [illegible] والملاك، ومن [illegible] في [illegible] ومن قراصنة [illegible] ثم أصبح أسرى الحروب أكبر مصادر الأرقاء [illegible] وأسواق [illegible](2) وكان الرقيق يستخدمون في [illegible] الخدمة المنزلية والأعمال الشاقة، وكان حق المولى على عبده لا يختلف في شيء عن حقه على سائر أملاكه، ومن ثم كان يجوز له رهنه. وكان ملاك العبيد يستعينون في [illegible] في [illegible] وكان [illegible] على [illegible] من [illegible] ولاء لأسيادهم [illegible] مدى [illegible](3).

وفي روما [illegible] مؤسسة الرق وازدهرت، وكانت مصادر الرقيق في [illegible] قليلة [illegible] ومع [illegible] أسرى الحروب مصدر [illegible]، ثم عن طريق القرصنة و[illegible] على جماعات الأمة، وكانت القرصنة [illegible] من [illegible] في [illegible] ويسوقونهم [illegible] إلى روما [illegible] وقد تحدث [illegible] عسكرية، والقراصنة كانوا [illegible] وكل [illegible] القرصنة [illegible] من [illegible] وكان [illegible] في [illegible] والأعداء(4) وكانت [illegible] أرقاء تعمل في [illegible] و[illegible] والخدمة [illegible]

(1) [illegible] المرجع السابق ص ٤٦

(2) [illegible] مجتمع السوداني، المرجع السابق ص ١٨٨

(3) [illegible] ص ١٦٣ [illegible] كتاب «مؤسسة الرق»، المرجع السابق ص ٢٥٦

(4) مؤسسة الرق، المرجع السابق ص ٣١٣

فيهم مجاري. وحين كان يكثر عدد الرقيق في [illegible] والمرض لكثرة
العدد، وكانوا يوثقون الأرقاء في قيود وسلاسل يجمعون في جماعات ولهم
محددة، وتوثق الجماعات بعضها عند النوم.

وكان الأشداء الأقوياء في حلبات المصارعة يجدون [illegible] ومسرة من
حلبات المصارعة ومراهنات مصدر الثروات [illegible]. تقدر الموسوعة البريطانية حجم
[illegible] في روما كان يعادل ثلاثة رؤوس رقيق مقابل مواطن حر، وبعض المؤرخين يرون أن
[illegible] حق مطلق التصرف في رقيقه حتى حق القتل، وليس للرقيق حق الزواج كما لا
حق له في الملكية ولا العقاب، ولا تؤخذ شهادته في المحاكم ولا يتم استجوابه
بالإجراءات القانونية بل بالتعذيب(1).

وكان للرقيق أسواق كثيرة تعقد في روما وفي المدن الرومانية. وكان النخاسون يعرضون
بضاعتهم أمام المشترين على حجر مرتفع بحيث يتيسر لهم معاينتهم، وكانوا أحياناً
يضعون الرقيق داخل أقفاص كبيرة، ويعلق في رقبة كل منهم قطعة من خشب يكتب
عليها خصائص [illegible] ويأمر النخاس رقيقه بالركض والرقص وبعض الحركات
[illegible] وكانت العادة أن يطلب المشتري رؤية الأرقاء عرايا، وكان
يستطيع أن يتحسس أجسادهم ويمسكها بيده وإن لم يكن له رغبة في الشراء(2).

ووصفت هذه الطريقة المهينة لبيع وشراء العبيد على [illegible] في أفريقيا. يصف
بازل ديفيدسون في كتابه «The African Slave Trade» العملية بقوله: إن العبيد كانوا
يجمعون من جميع الأنحاء البرية ويوضعون في مكان فسيح أشبه بالسجن قريب من
الساحل [illegible]، وعندما كان الأوروبيون يتسلمون العبيد كانوا يعرضونهم
عليهم في العراء، وكان الجراحون يفحصون كل جزء من أجسام كل منهم وهم
واقفون عرايا رجالاً ونساء، وكان المرفوضون منهم يسمون «مكرون Maccron» وهم
عادة من يزيد سنهم على ٣٥ سنة أو يكون به عيب في شفتيه أو عينيه أو أسنانه أو يكون
به أي عيب آخر(3).

---

(1) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ١٩٠
(2) [illegible] في تاريخ [illegible] في الإسلام - مصطفى حمدي [illegible] - المرجع السابق ص ٣٢٣
(3) The African slave Trade - Basil Davidson P. 107

ومن الطبيعي أن مثل هذه المعاملة المهينة للإنسانية كانت جزءاً من عملية انتقاء السلعة والمساومة عليها ولكنها كانت أيضاً جزءاً من العملية النفسية في محاولة لسلب الأفارقة احترامهم الذاتي وتجريدهم من كرامتهم.

[illegible]

[illegible]

[illegible] بأرقائهم في الزراعة[2].

[illegible]

[illegible] كتاب ١٩١ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني، المرجع السابق ص ١٩٣

[illegible] كانت محدودة في البداية ثم أخذت تتوسع وتنتشر في [illegible] الأخرى. وحتى عندما كانت مؤسسة الرق تقترب من نهايتها [illegible] الخصاء [illegible] بعد ذلك [illegible] على امتداد القرن التاسع عشر.

ومرجع ارتباط هذه الجريمة بالرق هو أنها [illegible] الرق [illegible] أصبح [illegible] الأطفال [illegible] الإسلام [illegible] في سوق الرقيق [illegible] الرقيق [illegible] الأطفال الأرقاء. ومن هنا كان ذلك الارتباط الوثيق بين الخصاء والرق.

وقد عرف الخصاء عند الشعوب الشرقية القديمة. حيث كان [illegible] والآشوريون يجرونه للأسرى. كما كانوا يجرونه كعقوبة [illegible] الآشوريين وكعقوبة [illegible] المصريين يجرون الخصاء للرقيق المجلوب من النوبة والسودان، كما كانوا يجرونه كعقوبة [illegible].

وكان بعض [illegible] الأولاد [illegible] خدمة [illegible] الإسلام [illegible] الخصي، ويشار [illegible] محمد كرار [illegible] "الأب الشيخ" الخصي [illegible] السلطان تيراب[2].

ورغم تحريم الإسلام للخصي فقد انتشر الخصيان في بيوت العرب الأثرياء، وكانوا [illegible] وبخاصة [illegible] وحراستهن [illegible] الحريم [illegible].

* * *

[illegible] الرق [illegible] الأوروبيين [illegible] الأطراف الثلاثة الأولى هم [illegible] الأطراف الأخرى [illegible] في هذه [illegible]

---

(1) [illegible]

(2) علاقات الرق في المجتمع السوداني، المرجع السابق ص 79

أولا: اليهود

كان لليهود دور كبير في تجارة الرق، فكان الرقيق أهم بضاعة في نشاطهم التجاري وعملائهم في أوروبا، حيث كانت لهم شبكة من اليهود في إسبانيا والمغرب الأقصى وبلاد السودان مرورًا بالشام حتى الشرق الأقصى مستفيدين من معرفتهم بعدد اللغات. وكان اليهود منذ العصور [illegible] من النخاسين الذين برعوا في عملية خصي الرقيق، كما كانوا يقومون بدور الوسطاء والسماسرة بين التجار الأجانب والمدن وأهل البلاد من ناحية، وبين [illegible] من ناحية أخرى [illegible] الجاليات اليهودية المتمركزة في مدن [illegible] (عرب ويهود) هو [illegible] تأتي منه هذه التجارة إلى المغرب الأقصى، ومنها تنطلق القوافل التجارية عبر الصحراء للمتاجرة في الرقيق والذهب[1].

وعندما كانت الحروب [illegible] في الشرق، [illegible] الرقيق [illegible] النخاسين اليهود الذين كانوا يسيرون وراء الجيوش [illegible] حتى [illegible] على المنهزم [illegible] اليهود في [illegible] ويقودونهم إلى [illegible] النخاسة [illegible] هؤلاء النخاسين اليهود [illegible] الذين كانوا [illegible] في [illegible]، حيث كان أغلب تجار الرقيق في أوروبا من اليهود[2].

ثانيا: الهنود

ارتبط نمو النشاط التجاري العربي في شرق أفريقيا ارتباطًا وثيقًا بالنشاط الاقتصادي المتزايد للهنود، وكانت سياسة الحماية [illegible] السلاطين العرب [illegible] وصول الهنود [illegible] إلى المنطقة، [illegible] سعيد سلطان زنجبار [illegible]

---

(1) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران [illegible]
المرجع السابق ص ٢٥٦.
(2) [illegible] ص ٣٠٢.

[illegible] رؤوس الأموال الكافية [illegible] النشاط التجاري العربي، [illegible] لليهود علاقات تجارية واسعة بشرق إفريقيا منذ فترة طويلة [illegible] في أعمال الوساطة التجارية [illegible] واستقرت أعداد منهم في مدن ساحل شرق إفريقيا، وقد ظل نشاطهم محصوراً في الساحل [illegible] خوفهم من عداء [illegible] أو تعرضهم لأعمال العنف والنهب.

[illegible] عدد من القوافل [illegible] نحو الداخل في شرق إفريقيا [illegible] اليهود [illegible] العرب في تمويل هذه القوافل [illegible] في شكل رقيق أو عاج [illegible] من رحلاتهم في الداخل.

[illegible] اليهود [illegible] من الهنود[1].

[illegible] اليهود [illegible] في داخل القارة[2].

[illegible]

[illegible]

صغيرة مسلحة [illegible] بعد خروجهم، ونظراً لأن [illegible] كانت غير
مشروعة [illegible] سنة ١٨٥٠م [illegible]
الرقيق الخاصة بهم[1].

واستولى الهنود على عدد كبير من مزارع العرب في سواحل [illegible] وقد
شرح القنصل البريطاني في زنجبار "بلايفير Playfair" أن الهنود يحصلون على
[illegible] الشرق الأفريقي [illegible]
[illegible] الأساسي في داخل
شرق أفريقيا لا يستطيعون [illegible]
[illegible] وقد [illegible] الهنود [illegible]
[illegible] لا يدخل القنصل البريطاني
مصالحهم.

ثالثاً: الكنيسة

أدرك أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية خطورة [illegible] في عام ١٤٤٢م [illegible]
[illegible] الملك [illegible]
في [illegible] ١٤٥٠ – ١٤٥٩م [illegible]
[illegible] الحملات
وكانت الكنيسة [illegible]
[illegible] على أن تحمل
[illegible] وكان الأسقف [illegible] على
[illegible] وقد
[illegible] ٣٠٠ [illegible]
[illegible] الحملات [illegible] الأساقفة [illegible]
[illegible] في [illegible] هذه الحملات[3].

(1) [illegible] ص ١٢٦.
(2) [illegible] ص ١٢٨.
(3) [illegible] ص ٣٦.

[illegible] الكنيسة في عصر [illegible] على الرق بل كانت تؤيد المسترقين من [illegible]

المسيحية، وقد اتخذ الأوروبيون هذا المبدأ أساساً لاسترقاقهم الشعوب واستعبادها،

[illegible] الكنيسة المسيحية [illegible] تجار الرقيق [illegible] وجمعوا [illegible] عن كل

[illegible] ولم ترد أية شبهة اعتراض على ما يتمتع به أصحاب الرقيق من حقوق على

عبيدهم، ولم تقدم الكنيسة على خطوة من شأنها تغيير تلك العلاقة [illegible] من السيد

[illegible] ولم تكن في هذه [illegible] دعوة [illegible] في التحرر، وإنما [illegible] نظام الرق

[illegible] ولم تقدم على خطوة من شأنها رفع الظلم عن هؤلاء [illegible]

[illegible] المسيحية [illegible] على تسخير [illegible]

[illegible] والخلاص [illegible] العبيد [illegible] وغير [illegible]

[illegible] قامت الكنيسة

[illegible] الرق [illegible] الكنائس المسيحية [illegible] والبروتستانتية من

[illegible] هذا المبدأ فأباحوا الرق[3].

حتى في القرن ١٩ عندما كانت الحملة على الرق في [illegible] وصرحت تتعالى

[illegible] العبيد [illegible] كبار الكنائس الكثيرون [illegible] وأحلوا [illegible]

[illegible] الذي كانت [illegible] تتخذ [illegible] في

[illegible] وكانت [illegible] أن

استرقاق هو من جملة النظام المسيحي.

[illegible] الإسلامية، [illegible]

[illegible] المسلمين [illegible]

[illegible] الغربية و[illegible] الشمالية، وكان [illegible] المسيحيون [illegible]

[illegible] من [illegible]

[illegible] على بلاد مسيحية

[illegible] ص ٣٧٥

[illegible] ص ٣٤

[illegible] ص ٣٤٩

[illegible] ص ٣٠٣

ولم تكن الكنيسة تكتفي [illegible] من أعداد كبيرة من [illegible]
[illegible] الكنيسة في بعض الأحيان [illegible]
[illegible] الكنيسة [illegible]

وبعد سقوط دولة الإسلام في إسبانيا [illegible] المسيحيون ضد المسلمين صنوفًا من التعذيب والتنكيل، وكان منها تعميد المسلمين جبرًا. وقد صدر أمر ملكي في عام ١٥٤٢م [illegible] على التنصير ومن يرفض فعليه أن يغادر إسبانيا أو أن يصبح رقًا طيلة حياته[1].

[illegible] King Leopold's Ghost [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] في الكنيسة الكاثوليكية لا يجوز أن [illegible]
[illegible]
[illegible] قطعت الأذرع
في [illegible][2].

***

(١) [illegible] الأئمة الثلاثة ـ المرجع السابق ص ٣٦١

(٢) King Leopold's Ghost, Adam Hochschild, [illegible] Pan Macmillan [illegible] 9, 10

لماذا عبيد إفريقيا؟

لقد كان هذا البحث والسعي الحثيث للأوروبيين لاقتناص العبيد الأفارقة بالذات رغم أن العبيد في ذلك الوقت كانوا مجموعات من أجناس أوروبية وغيرها؟

كان اكتشاف أمريكا وتعميرها يحتاج بالأساس إلى العمال الأقوياء ذوي الصبر، لأن الأفريقي بقوته ومقاومته وقدرته على العمل الشاق وتحمل الظروف المناخية المتشابهة بين إفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية. كانت أكبر المشكلات التي واجهها المستكشفون الأوروبيون المستعمرون في ذلك العالم الجديد هي سكانه الذين عاشوا قرونًا عديدة، هي كيف يحولون هؤلاء إلى عمالة صحيحة يكونون آلات مطيعة في أيديهم، وحدثت صورة الاستغلال [illegible] وعبر ذلك كم [illegible] ومع خروج هذه المسكنة وهذا الضعف المكتسب لدى [illegible] يحاربون فيهم، استخدموا البنادق ووسائل وأساليب العبودية واستعبدوا الهنود الحمر ثم استعبدوا الزنوج، ولم يفرقوا في ذلك بين رجل وامرأة، ولا بين عجوز وطفل وصبي. لقد كان الاستغلال في كل أمريكا واحدًا من أبشع المآسي التي عرفها تاريخ العالم، وعلى مدى أربعة قرون ونصف قرن وصبت كل الويلات على أمريكا فقط على الناس يعدون بعشرات الملايين في هذا الاستغلال، لم يكن حكرًا على شعب بعينه من المستعمرين، وكل المستعمرين كانوا شركاء في هذا الأمر سواء كانوا من الإسبان أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الإنجليز أو الهولنديين.

استعباد الهنود الحمر

لقد استعبد الهنود الحمر في بداية الغزو الأوروبي، وذلك أن إسبانيا في القرن السادس عشر لا يزيد سكانها على بضعة ملايين، ولم يكن يزيد سكان البرتغال عن مليون ونصف مليون، فكان من الواضح أن المستعمرين منهم في أمريكا لن يستطيعوا الحصول من بلادهم الأصلية على عمال يكفون لاستثمار ثرواتهم في العالم الجديد. ومن ثم ظهر احتكاكهم بالأهالي الهنود في أمريكا، وعملوا على أن يسترقوهم ويستخدموهم بصفتهم عبيدًا. ويذكر المؤرخون أن الإسبان في ذلك الوقت لم يكونوا يعتبرون الهنود ممن يسمى بالجنس البشري، وإنهم لم يكونوا في نظرهم سوى حيوانات معلمة أكثر من معلمة تختلف عن الخيل والكلاب.

وكثرت الكتابات في منتصف القرن السادس عشر تصف الهنود بأنهم مخادعون [illegible] متوحشون وأنصاف [illegible] منهم، وأنهم من آكلي لحوم البشر كما جاء في كتاب منشور سنة ١٥٧٨م (إنهم لا [illegible] إلا أكلوه على حاله دون أي نوع من الطهي وأنهم [illegible] في [illegible] وتحركهم [illegible] أكثر مما تحركهم [illegible])[1].

[illegible] الهنود الحمر [illegible] الإسبان في جزر الهند الغربية بعد وصول الإسبان [illegible]، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل [illegible] الهنود [illegible] يعملوا في المزارع الواسعة، والكثير منهم لم تستطع [illegible] من العمل الشاق تحت الشمس الحارقة. [illegible] الأوروبيون معهم [illegible] وشكلت [illegible] الأوروبيين [illegible] الصغيرة كانت على [illegible] البلاد الأصليين فلم يكن لدى الهنود الحمر [illegible] الأوروبيون [illegible] هذه الميكروبات، مما جعل [illegible] سريع [illegible][2] ومن خلال [illegible] كادت جزر الهند الغربية تخلو من سكانها الهنود [illegible] كتابه (لاس كاساس [illegible]) وكشف فيه الاستغلال الإسباني [illegible] على الهنود [illegible] من [illegible] الكتب التي [illegible] في هذه [illegible] وهو (تدمير الهنود الحمر The Destruction of the Indies).

[illegible] الأوروبيين كانت [illegible] الهنود محدودة ولم [illegible] ولا الأسلحة [illegible] على [illegible] كثيرة [illegible] وبعد ذلك [illegible] الحروب [illegible] الأسلحة [illegible]، ثم زادت [illegible] من أهداف [illegible] الأوروبية.

كان استيلاء الأوروبيين على الأراضي من خلال مجموعة من [illegible] كان الأوروبيون [illegible] إلى [illegible] ويتركونها [illegible] من الوقت [illegible]، كما كانوا يستخدمون [illegible] الأرض بأبخس ثمن من

(1) [illegible] المرجع السابق ص ٥٣
(2) [illegible] والسود، المرجع السابق ص ٩٣

[illegible] على [illegible] المعروف عن أن [illegible] أو

[illegible] على أي [illegible] لا أحد

[illegible] مدينة [illegible] على [illegible]

[illegible] قطعة من أرضه. وكانوا يحاصرون قرى الهنود ويشعلون النار في

[illegible]

[illegible]

شحنوهم مكبلين في سفن إلى جزر الهند الغربية. كتب أحد الهولنديين [illegible]

الأطفال [illegible] من أمهاتهم [illegible]

[illegible] في النار [illegible] من خشب ثم [illegible]

[illegible] كما ألقي البعض في النهر، وعندما [illegible]

[illegible]

[illegible] وقطعت [illegible] البعض الآخر [illegible]

[illegible] أو مصروعة

[illegible] ومشوهة بدرجة لا يمكن تصورها [illegible] (1)

وهكذا تشابهت تجارة العبيد الأفريقية مع تجارة الرقيق الهندي، فالأوروبيون [illegible] حلفاء مع الجماعات [illegible] وزودوهم

بالسلاح [illegible] وشجعوهم على محاربة الجماعات

الهندية الأضعف [illegible] من [illegible]

[illegible] الساحل [illegible] يسيرون [illegible] في

[illegible] على ساحل [illegible]

[illegible] على سفن مكبلين [illegible] إلى

مستعمرات أخرى، وكما كان [illegible] الأصقاع [illegible]

[illegible] الهنود [illegible] الحرب [illegible]

[illegible] الشمال إلى مستعمرتي نيويورك ونيوإنغلاند(3).

(1) الحمر والبيض والسود، المرجع السابق ص ٩٨

(2) الحمر والبيض والسود، المرجع السابق ص ١١٥

(3) الحمر والبيض والسود، المرجع السابق، ص ١٣٠

[illegible]

[illegible]

العامل معدماً لا يملك شيئاً.

[illegible]

[illegible]

[illegible] وغير ذلك بمشاركة عدد من الأدلاء. وفي حملة واحدة في [illegible] حوالي [illegible] و ١٥ ألفاً من الهنود الحمر، وبين سنتي ١٦١٤ و١٦٣٩ أسروا نحو ٣٠٠ من الهنود. وكانت هذه الحملات في توسيع مناطق حدود أمريكا [illegible] الأسباب من خلال ما كانت تمنحه المعاهدات [illegible] الاستعمارية.

وفي المستعمرات الأمريكية الشمالية التي كان يسيطر عليها الفرنسيون والهولنديون [illegible] كانت هناك محاولات لتحويل الهنود إلى عبيد [illegible] ولكن بغير نجاح كبير [illegible] على الهنود [illegible] وتشتيت [illegible] أهلهم [illegible] الموجودة على طول ساحل شمال الأطلسي وفي [illegible] لا [illegible] وشمالي [illegible] من الصعب [illegible] وقد كانت كثير من [illegible] ويبدو [illegible] ولكن [illegible] الهنود [illegible] ولم يكن [illegible] كثيرة [illegible] التي كانت تسيطر على حدود أمريكا [illegible] مرحلة الاستعمار [illegible]

ثورات الهنود الحمر

لم يكن الأسبان [illegible] على عبيدهم [illegible] من [illegible] وكانت أول [illegible] ولا يعرف [illegible] ومع ذلك [illegible] من المستعمرات عرفت العديد من الانتفاضات التي قام بها الهنود [illegible] وكانت [illegible] على الساحل [illegible] الإسبانية من [illegible] وخصوصاً في [illegible] حيث كانت الكثافة السكانية للهنود كبيرة [illegible]

الهنود [illegible] الهنود [illegible] ويمكن الإشارة [illegible] عدد من ثورات الهنود [illegible] واحدة [illegible] في بيرو سنة ١٥٧٠م، وبعد مائتي سنة في ١٧٨٠ [illegible] ثورة أخرى [illegible] نحو ٦٠ ألف هندي [illegible] وعرفت المكسيك [illegible] عديدة من [illegible] ثورات في [illegible] ١٥٢٤

١٥٤١، ١٥٤٦، ١٥٩٥_١٦١٦، ١٦٦٠_١٦٨٠، ١٦٩٦_١٧٠٧، ١٧٦١م،
وأكبرها ما كان بين سنوات ١٦٢٤ و١٩٦٢م وقامت اضطرابات في شيلي سنة ١٦٠٠م وفي البرازيل سنة ١٥١٢م وهي ما عرفت بحرب السنوات التسع، كما حدثت ثورات وحروب بين سنوات ١٦٢٠_١٧٥٠م.

وهذه الثورات التي قام بها الهنود وخاصة في القرن ١٧ كانت هي طلائع الصراع الثوري الحاسم لتحرير المستعمرات من الإسبان والبرتغال، وقد تحققت بشكل محدد في العقد الأول من القرن التاسع عشر، وساهم فيها الهنود والزنوج أيضاً، وحدثت ثورات في فنزويلا سنة ١٧١١م، كما حدثت ثورات في بوليفيا وكولومبيا وغيرها.

استرقاق الزنوج

عندما وجد ملاك الأرض المستعمرون من كل جنسية أنه ليس في مقدورهم استخدام العبيد البيض ولا جعل الهنود الحمر في العمل الكبير في مزارعهم وفي المناجم [illegible] بدأت عملية استرقاق الزنوج من إفريقيا، وقد صار ملايين العبيد من الزنوج [illegible] في النصف الغربي [illegible] المرحلة الاستعمارية، إن كل الدول الاستعمارية الإسبان والبرتغال والهولنديون والفرنسيون والإنجليز كانوا مشتركين في هذه العملية [illegible]، وكانت [illegible] الكاثوليكية والبروتستانتية، كما [illegible] كثير من القادة [illegible] بعض [illegible] والاستعباد [illegible] بشكل أكثر [illegible] في كل التاريخ الأمريكي، وتحولت القارة [illegible] أمريكا من [illegible] إلى أن أصبحت صورة لاستغلال [illegible]، فهي الأرض التي شهدت تجربة [illegible] الرق بشكل بشع وصارت أمريكا تعطي صورة مرعبة عن مرحلة من التاريخ للجنس البشري.

بدأت الرأسمالية الحديثة من القرن السادس عشر، وكان للعبودية دور كبير في نموها، وقد ازدادت الرأسمالية ازدهاراً مع تجارة الرقيق ومع العمل العبودي نفسه،

(1) Outline Political History of the Americas, William Z. Foster, International Publishers, New York, 1951, P. 71-75

غدت حقيقة واضحة بالنسبة للصناعة في إنجلترا وليست فقط بالنسبة لأمريكا، وقد كانت العبودية هي الأساس المباشر للعمل في مصانع النسيج والعمل في الحقل وذلك في الجنوب، وقد ذكر «كارل ماركس» مثلاً «وبغير العبودية ما كان يوجد القطن وبغير القطن ما كانت توجد الصناعة الحديثة، فالعبودية هي التي أعطت المستعمرات قيمتها والمستعمرات هي التي أوجدت التجارة العالمية، والتجارة العالمية شرطًا مسبقًا للصناعة الآلية الواسعة، ومن هنا تظهر الأهمية الكبرى للعبودية»[1]

لقد وجد العبيد في كل المستعمرات، وكان المستعبدون الزنوج الأسود وكانوا مصاحبين لمغامري الإسبان في حملاتهم على المكسيك وبيرو وغيرهما. وحيثما كان يوجد عمل شاق يحتاج القيام به كان العبيد الزنوج مجبرون على أدائه. وفي عام ١٦٠٠م كان ثلث السكان من الزنوج في مدينة Lima في بيرو، وفي الأرجنتين كان حوالي ربع السكان من العبيد. ووجد العبيد الزنوج أيضًا في مناطق شمالية من مستعمرات الولايات المتحدة في الأجزاء الشمالية والبعض في كندا. ولكن القسم الأساسي من العبيد الزنوج كان موجودًا في المناطق الاستوائية وما يحيط بها في أمريكا الوسطى وجزر الهند الغربية وبلاد الكاريبي والبرازيل والأجزاء الجنوبية من الولايات المتحدة، حيث وجدت فيها جميعها مزارع السكر والتبغ والقطن وغيرها.

وبالنسبة للملاك كان الزنوج يفضلون بصفات تميزهم عن الهنود الحمر بوصفهم عبيدًا، فكانت أعدادهم كثيرة في أفريقيا الكثيفة السكان وقديمة، وكانوا أعظم قوة بدنية من الهنود الأمريكيين، وأكثر تحملاً للحرارة في مناطق المزارع الواسعة، وكانوا أعظم مقاومة للأمراض الأوروبية أو الأمراض الناشئة حديثًا في الجنوب [illegible]

وفضلاً عن ذلك فقد أتى الزنوج من مجتمعات ذات ثقافة أرقى مستوى من ثقافة الكثير من الهنود الحمر، وكانوا أكثر تأهيلاً للعمل في الزراعات الكثيفة، وأكثر من ذلك كانوا في أرض غريبة، فكانوا كالأسرى، وأقل ميلاً في دفاعهم عن الحرية من الهنود الذين يعيشون في بلادهم وقريبين من أهاليهم ومن القبائل المعادية الأخرى التي تحميهم أو تمكنهم من الفرار إلى مواطنهم. ونتيجة للأهمية التي أصبح لها هؤلاء وجد الزنوج في المستعمرات الأمريكية كان سعرهم يفوق كثيرًا سعر العبيد من الهنود. وفي الأوقات

[1] [illegible] Cit. Line Polenza History ... the Americas p. 77

[illegible] في البرازيل على سبيل [illegible] كان يقدر ثمنه بنحو ٧٥ دولاراً في الوقت الذي كان يشترى [illegible] بحوالي ٥ دولارات أو أكثر قليلاً

إن العنصر الأساسي [illegible] الذي جعل الاسترقاق [illegible] لأعداد [illegible] من [illegible] إلى أمريكا هو [illegible] القبائل [illegible] في القارة الإفريقية [illegible] من الأبواب [illegible] في هذه [illegible] من [illegible] المشعوب [illegible] وهي سياسة [illegible] التي [illegible] الأوروبيون [illegible] في أمريكا

اغتصاب قارة

[illegible] من [illegible] الساحل الغربي الإفريقي [illegible] وهو [illegible] الإفريقية [illegible] لأمريكا [illegible] من [illegible] على [illegible] قوات [illegible] [illegible] يقوم [illegible] الإفريقية [illegible] أقاليم عديدة [illegible] اغتصاب القارة نادراً ما كان لها [illegible] في [illegible] ولا في التاريخ الحديث»

[illegible] العبيد [illegible] ويسيرون بهم [illegible] لهم، ويضعونهم [illegible] في [illegible] التي لا توصف (وكانت [illegible]) ثم [illegible] مثل [illegible] وكان ثمة [illegible] على [illegible] الأدمي في [illegible] في هذه الأعماق [illegible] في تجارة [illegible]

يصف أحد الكتاب ما رآه في إحدى سفن القرصنة التي تتاجر في الرقيق والتي كانت [illegible] الأمريكية سنة ١٨٢٩ [illegible] كانت [illegible]

[illegible]

فيه إلى حد أن رجليهم كانت تمتد حتى منتصفه في بعض، ولم يكن هناك أية مكانة لأحدهم لكي يرقد أو يغير هذا الوضع ليلاً كان أو نهاراً. ويذكر أنه كانت [illegible] من خمس [illegible] ١٨ بوصة [illegible]، [illegible] درجة أنها كانت تشم على بعد أميال عندما تأتي بها الريح.

ويصف كاتب آخر يسمى «مستر Mr. Moore» [illegible]

[illegible]

وقد ذكر «[illegible] W. O. Blake» في كتابه «تاريخ العبودية History of Slavery» [illegible] في سنة ١٨٥١ م [illegible] ١١٠٠ [illegible] وفقد ١٩١، [illegible] ٦٠٠ عبد وفقد ٧٠ [illegible] «Miller» [illegible] ٤٩٠ وفقد ١٨٠، [illegible] ٨٩٥ وفقد ٣٦٥، و«موري Morley» ذكر أنه في أربع رحلات اشترى حوالي ١٣٢٥ وفقد ٣١٣، [illegible] ذكر أنه في رحلتين كان هناك ٢٥٠ وفقد ١٣٢، وكل هؤلاء [illegible] من تجار العبيد [illegible]

(١) المرجع السابق Out Line Political History of the Americans. P. 79.

وكان الهولنديون الذين كانوا خبراء في النقل البحري والتعذيب الجماعي كانوا يعملون من خلال شركة جزر الهند الغربية الهولندية، وقد تأسست في عام ١٦٢١م من مجموعة من مغتصبي الأراضي والمرتزقة وتجار العبيد، ولكن الفرنسيين والبريطانيين لم يكونوا مختلفين كثيراً عن الهولنديين فصفتهم قسوة وتجار رقيق، والسبب أن الأخيرين الذين سموا لأنفسهم صفة الربحية بأنهم دولة تجارة العبيد، كانوا في حقيقة الأمر أكثر شيء في الأعمال الخاصة بالرقيق. وفي سنة ١٧٧٤م فإن ثلاثمائة سفينة تخرج من ليفربول، وكانت تعمل في تجارة العبيد، وبأي طريقة نستطيع به قبل (الأخيرة كانت تجارة العبيد من الدول الأخرى يعتبر ذلك نسبة لهم من سفن الصغير)

وأكثر من العبيد الأفريقيين في السفن البريطانية يتم نقلهم بعد أن تنقل منهم أكثر سفن الأخرى من سفن التي كل الدول الأخرى مجتمعة.

وقد عمل الأسبان فيه منذ بداية اكتشاف حقيقي في أمريكا الجنوبية (١٥٠١) العمل خارج في بالتخصص الأنسب لهم بتميز تجارة الرقيق لكن المستعمرات الإسبانية وقد حصلوا على هذا الاحتكار في سنة ١٦٠٠م، وحصل الهولنديون على هذا الاحتكار سنة ١٦٤٠م، وحصل الفرنسيون على هذا الاحتكار سنة ١٧٠١م، ثم حصلت الإنجليز مرة أخرى سنة ١٧١٣م عن طريق شركة الإنجليزية جنوب البحار، وبهذا الاحتكار صار الإنجليز تجار الرقيق المعترف بهم عالمياً، وهذا العقد الأخير تضمنته معاهدة أوترخت وبها حصل الإنجليز على الحق في جلب عبيد إلى أمريكا الإسبانية ١٣٣ ألف زنجي بمعدل ٤٨٠٠ كل سنة لمدة ثلاثين سنة، ولكي يحصلوا على هذا الحق دفعت الشركة لملك إسبانيا ٢٠٠ ألف دولار.

كان في "رود آيلاند Rhode Island" وحدها ١٥٠ مركباً لتجارة العبيد في سنة ١٧٧٠م، وكانت الأرباح الخاصة بالعملاء السنوية في الشهور تكلف نحو ٣٠ ألف دولار، وحققت أرباحاً في رحلة واحدة في تجارة العبيد بلغت ٢٠٠ ألف دولار، وإن كبار العبيد الأمريكيين اشتغلوا في هذه التجارة كما أن ملاك مصانع النسيج في الشمال وجنوب سواء شأنهم شأن ملاك السفن حصلوا على أرباح هائلة خلال تلك العقود من النظام العبودي في الجنوب الأمريكي.

وكان الكتاب يبررون هذه التجارة بقولهم: إن العبودية قديمة قدم الحضارة نفسها وأن الأديان تشرعها إلى آخر هذا الكلام.

[illegible] (أمريكا) [illegible]

[illegible] سنة ١٥٠٢م بعد عشر سنوات فقط من رحلة كولومبس [illegible] ثلاث [illegible]

[illegible] الأرباح السريعة [illegible]

[illegible] خمسين سنة [illegible] عشرات الآلاف من [illegible] أمريكا

[illegible]

[illegible]

[illegible] في هذه البلاد [illegible]

سنة ١٧٩٠م [illegible]

[illegible] ٥٣٦ [illegible] لا يقل عن ٤٨٠ ألفاً،

[illegible] ٣٥ [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] يفوق عدد السكان البيض بنحو عشرين ضعفاً.

[illegible] بنحو خمسة

[illegible]

[illegible] نحو ١٢ مليون [illegible] سنة ١٨٥٠م

[illegible]

[illegible]

[illegible]

١٥ مليونًا المذكورة يقابله إفقار للسكان الإفريقيين من إفريقيا يبلغ ٦٠ مليون نسمة، وهذا الإهدار الضخم للقوى البشرية كان من أكبر المعوقات أمام التطور الإفريقي وتقدم الشعوب الإفريقية.

إن استيراد العبيد إلى الولايات المتحدة التي كانت منطقة لاستيراد العبيد في الأمريكتين كما بدأ في عام ١٦١٩م، ومنذ كان النشاط في الجزائر فكانت سفينة هولندية هي التي بدأت بهذه تجارة العبيد. وقد زاد طلب ملاك المزارع من العمالة الإفريقية لتلاؤمها مع الجو والبيئة التي تصلح لزراعة التبغ والأرز والنيلة (صبغة زرقاء) وغيرها. وكان بعض الناس في هذه المستعمرات يعتقدون أنه بمجرد تعميد الإفريقي واعتناقه المسيحية فإنه يصير حرًا، ولكن هذا الفهم لم يكن يتلاءم مع شهوة ملاك المزارع وشهوتهم في الربح فصدر تشريع منع ذلك في ميريلاند سنة ١٦٦٣م وفي فرجينيا سنة ١٦٦٧م، وبعد ذلك وعلى مدى كل مرحلة تاريخية معهودة صار الأرقاء عبيدًا مولدين سواء صاروا مسيحيين أم لم يصيروا. ولم يكن المستعبدون يعنون بموضوع العقيدة إذ كانت تعوق حصولهم على العمل الرخيص، ولكنهم لم يشاؤوا أنهم يستعبدون الإفريقيين ليعلموهم المسيحية.

وفي المرحلة الأولى للمستعمرة في حين كانت المزارع تصل إلى نحو ٥٠ ألف أكر أو أكثر لم يتطلب عددًا هائلًا من العاملين فكانت هناك حدود شديدة للعبيد، وعلى أي حال فإن العدد الإجمالي للعبيد كان ينمو بشكل بطيء نسبيًا، ففي عام ١٧١٠م بلغ عددهم ٥٠ ألفًا، وفي سنة ١٧٧٠م وصل عددهم إلى ٤٦٢ ألف عبد في كل المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة. ثم بعد ذلك مع التطور السريع لزراعة القطن وقصب السكر بعد عام ١٨٠٠م زاد العدد بخطوات كبيرة فبلغ سنة ١٨٦١م نحو أربعة ملايين.

ولم يكن كما يبدو عدد العبيد في الشمال كثيرًا، لأن حقول الشمال لا تصلح للزراعة الكبرى، فكان أغلب العبيد في الشمال يعملون في الخدمات المنزلية وفي رعاية الماشية والخيل وغير ذلك[1].

---

(١) مرجع سابق: Out Line Political History of the Americas P. [illegible]

إن بعض المؤرخين مع العبودية والمدافعين عنها صوروا العلاقات بطريقة تقول إن ملاك العبيد لأنهم اشتروا العبيد بأموالهم واستثمروا أموالهم في هذا الشراء فقد كانوا يحرصون عليهم ويبذلون عناية طيبة بشأنهم. وفي الحقيقة فإن الوضع يتناقض مع هذا الشرح والتصور لأن هؤلاء الملاك كانوا في النظام العبودي يستخرجون حتى آخر قطرة من العبيد في حقول القطن والأرز والتبغ [illegible] من الممكن أن يتمرد العبيد وأن يقوموا بثورات كما يستدعي الموقف معاقبتهم بشدة، ومن أي زاوية يمكن النظر فيها إلى معاملة العبيد فإن الفكرة كانت تتعلق بالربح أساسا حتى في المزارع والمناطق التي تنتج من أجل التصدير.

وإن المؤرخين والكتاب يذكرون أن ما حدث في أمريكا اللاتينية نموذجي لا يوجد ما يماثله عند العبيد الأفارقة الذين عوملوا على هذا النحو، وبعض الكتاب ذكر أن أصحاب المزارع الكبيرة في جزر الهند الغربية وجدوا أن الأكثر ربحا لهم أن يعمل العبيد حتى الموت وحتى إن كان الموت في سن مبكرة فذلك أفضل من أن يعيشوا إلى سن الشيخوخة والعجز". وقال أحد المؤرخين إنه في مستعمرة سورينام الهولندية كانت مع العمل المتواصل العنيف والمعاملة القاسية [illegible] حياة حيوانات [illegible] من [illegible] وذكر آخرون أنه كان من النادر رؤية عبد عجوز، وذكر أن بعض العبيد في المسيسيبي كانوا يعملون ١٤ ساعة في كل ٢٤ ساعة، كما كانوا في جورجيا يعملون ١٩ ساعة، ولم تكن هناك قوانين تمنع من أن يعملوا حتى الموت(١).

هذه الحالة العامة سادت أيضا في الولايات المتحدة، إن العبيد الأفارقة في هذه البلاد عوملوا معاملة شديدة لم يعاملوا بها في أي مكان آخر في نصف الكرة الغربي، وفي [illegible] الخاصة والقوانين المعمول بها في المزارع وغيرها من المناطق [illegible] لا تسمح [illegible] العبيد، وذلك على أساس أن العبيد هم مجرد ممتلكات وليسوا آدميين. وفي المستعمرات الأوربية الإسبانية كان للعبيد حقوق شرعية أكثر وفرص أحسن لضمان حريتهم مما كان في المستعمرات الإنجليزية [illegible]

(١) المرجع السابق Out Line Political History of the Americans. P. 82

[illegible] يتضح أن ظروف القانون العبودي في الولايات المتحدة ومزارعها كانت
أكثر قسوة منها في خارج الولايات المتحدة. وقد كانت عقوبة الجلد تفرض على كل
أسود [illegible] يستخرجه أو ينشره أو يمشي في جنازة أو يشتري
أو يبيع أو يخرج بغير إذن من سيده. وكان العبيد ممنوعين أن يتعلموا القراءة أو الكتابة
وأن [illegible] أي رجل أبيض، أو يضربوه، [illegible]
يعملون فيها بغير إذن من الرجل الأبيض [illegible] مصحوبين به، [illegible]
[illegible] أو الرجل الأبيض [illegible] عليهم [illegible] عشرين
جلدة على ظهره العاري. [illegible] حتى لا يبصر أن يقتله [illegible]
[illegible] عليه [illegible] هرب [illegible] تشريع كان يجيز لأي
رجل أبيض [illegible] وكانت سرقة العبد الأمريكي تشكل جريمة، ولكن
قتله أثناء عقابه، يشكل جريمة.

[illegible] دوجلاس العبد الأمريكي [illegible] عبدًا هاربًا [illegible]
صورة العبودية [illegible] العبد [illegible] تدعمها الأوضاع [illegible]
والعقائد المنتشرة في أمريكا، [illegible]
[illegible] في الدول
[illegible] في البلاد [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] والعمل
الجماعي للجنسين كان عليهن أن يعانين من امتهان سادتهن لهن، وفي المستعمرات
الإسبانية لم يكن للعبد أية حقوق [illegible] لا يعترف للرجل بأي حق أن
يتزوج [illegible] لا يعترف للمرأة بأي حق أن تتزوج فقد كان لا يعترف للمرأة بأي حق
في أن ترفض أن تساق إلى سرير مالكها أو [illegible]، وأن رفضها لهذا الأمر كان
يشكل عملاً من أعمال التمرد. ولم يكن [illegible] يعرض مالك المزرعة جارياته

[illegible]

على صحته وتدعوه إلى حمل من يريد [illegible] أعضاء أهله. وفي مناطق كثيرة من مناطق العبيد وبسبب وضع المرأة الأفريقية كان معدل المواليد منخفضاً، بحيث كانت الوسيلة الوحيدة لاستبقاء عدد العبيد كما هي الاستيراد من إفريقيا. وكانت هناك حالات كثيرة رفض فيها النساء الحمل كنوع من أنواع مقاومة العبودية.

ثورات العبيد

الصراع من أجل الحرية

على الرغم من القيود الحديدية التي كانت تقيد بها العبيد الأفريقيون فلم تكن ردود فعلهم دائماً هي الطاعة. [illegible] الأفعال الاحتجاجية [illegible] مثل عدم العمل مثلاً أو التمارض في [illegible] الهروب [illegible] [illegible] رفض العمل، كما [illegible] في ظروف أخرى [illegible] التمرد [illegible] وعلى خلاف [illegible] [illegible] العبودية على خلاف [illegible] من أجل التمرد.

في بلاد الكاريبي على مدى مرحلة الاستعمار [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] سنوات ١٥٣٣، ١٥٤٨م، وفي [illegible] سنة ١٥٣٠م [illegible] في [illegible] سنوات ١٦٥٥، ١٦٦٤، ١٦٩٢، ١٧٠٢، ١٨٣١م. [illegible] كبيرة في [illegible] [illegible] وجوادي لوب، كما حدثت [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] في سنة ١٨١٢م، كما [illegible] [illegible] في هايتي سنة ١٧٩١م [illegible] [illegible] الأفريقي [illegible] [illegible]

كان العديد من الأفريقيين يهربون من المزارع ويشيدون معسكرات لهم في الغابات والأدغال ووجدت مستوطنات لهم، وكان الهاربون منهم يسمون "المارونز" ، وكثيرًا ما حدث في كوبا وغيرها من جزر الهند Simmarones أو سيمارونز Marons الغربية، وفي شمال أمريكا الوسطى، وفي غابات جيويانا وجدت مستوطنات جديدة لا تقل عن ١١ [illegible] في الأدغال، وهم من سلالة العبيد الهاربين من أيام الاستعمار [illegible] وهم يسمون [illegible] (D[illegible]) وقد ذكر هيرسكوفيتس في كتابه [illegible] [illegible] الحكومة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في المعاهدات [illegible]

وفي البرازيل وجدت ثورات للأفريقيين ضد العبودية، وثمة آلاف من الأفريقيين هربوا إلى الأدغال [illegible] [illegible] الأرض [illegible] وقام العديد من ثورات الزنوج العبيد في البرازيل في أعوام ١٧٥٦م، ١٨١٣م، ١٨٣٩م، ثم [illegible] [illegible] [illegible] الزنوج [illegible] في "[illegible] B[illegible]" في أعوام ١٨٠٧، ١٨٣٥م [illegible] [illegible]، ولكن من ثورات العبيد وأكثرها شهرة في البرازيل هي ثورة "بالماريز Palmares"، [illegible] معسكرات العبيد [illegible] في سنة ١٦٣٠م وبقيت حتى سنة ١٦٩٧م [illegible] [illegible] جمهورية بالماريز على أسس أفريقية وكان على رأسها Zumbi [illegible] [illegible] وعقريًا، وقد بلغ عدد [illegible] من العبيد [illegible] ٥٠ [illegible] حكومة [illegible] وصارت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حملات عسكرية [illegible] هذه الجمهورية [illegible] في سنة ١٦٩٧م، وفضل آلاف [illegible] [illegible] الانتحار على الاستسلام، وقد [illegible] [illegible] علامات [illegible] في تاريخ [illegible] البرازيل.

وفي [illegible] [illegible] [illegible] الأطلنطي [illegible] العبيد الأفريقيون عدد من [illegible] [illegible] من الأيام الأولى لوجودهم حتى التحرير الذي حدث في الحرب الأهلية سنة ١٨٦١ – ١٨٦٥م، وقد استخدموا الوسائل المعروفة [illegible] وقتها في هذه المناطق من أمريكا وهي هروب الآلاف منهم في [illegible] وكان أحد الأهداف الرئيسة لحكومة الولايات المتحدة في حروبها [illegible] هو [illegible] على تسليم الأعداد الكبيرة من العبيد الإفريقيين الذين هربوا، كما أن الحكومة [illegible]

حدثت ثورة تبعتها الاضطرابات الشديدة للعبيد في فرجينيا سنة ١٨٠٠م ... سنة ١٨١١م وكارولينا الجنوبية سنة ١٨٢٢م، وفرجينيا سنة ١٨٣١م ... مرة أخرى سنة ١٨٣٧م.

... ثمة أحداث كبيرة لاضطرابات العبيد لم تكتشف في المرحلة الاستعمارية ... أحد ... عدد الثورات والاضطرابات التي حدثت في تاريخ ... الأمريكي بنحو ٢٥٠ ثورة ومؤامرة، مما يؤكد أن جهود مقاومة الاستعباد ... هؤلاء الناس لم تكن نادرة، وإنما كانت ظاهرة ذات حلقات متتابعة في تاريخ ... الأمريكي.

... ثورة للعبيد حدثت في الولايات المتحدة في سنة ١٥٢٦م في المستعمرة ... على نهر "بيدي Pedee" جنوب كارولينا. وفي سنة ١٦٦٣م قامت ثورة ... العبيد الأمريكيين والخدم البيض في فرجينيا، وكانت هذه هي أول ثورة كبيرة ... المستعمرات الأمريكية شارك فيها العبيد الأفريقيون. وقد تبعتها ثورات في مناطق ... على مدى القرن الثامن عشر، وحتى في مدينة نيويورك قامت ثورات مهمة ... واحدة سنة ١٧١٢م عندما خطط بشكل قاطع مجموعة من العبيد ... أحد المباني، وانتظروا الرجال البيض القادمين لإطفائه وتهاجمهم في استعمال ... والخناجر والمسدسات فلم ينج منهم سبعة، وجرح عدد غيرهم قبل أن يفروا ... وذكرت ... لولا وجود حامية من جنود الجيش لأصبحت المدينة ... حرب لأكثر من ... وعندما خمدت النيران وجرى التحقيق ... ثلاثة عشر عبدا شنقا، ومات أحدهم وهو مقيد في الأغلال، وحرق ثلاثة وهم مشدودون على الخازوق، وكسرت عظام واحد على عجلة التعذيب، كما فضل ستة ... الانتحار على ... العقوبة على يد مجتمع البيض. ثم أصدرت الجمعية ... مدينة نيويورك قوانين جديدة تسلبهم معظم الحقوق التي كانوا يعبرون بها ... ذلك الوقت عن نظراتهم الحيوية[1].

لكن هذا القمع الشديد لم يرهب العبيد وقاموا بثورة أخرى عام ١٧٤١م قبض فيها ... من الأفريقيين ومن البيض. وقد استمرت ثورة العبيد في هايتي للفرنسيين في كل

(١) الحمر والبيض والسود، المرجع السابق، ص ٢٢٣

[illegible] في [illegible] وقاموا بثورات لتحرير أنفسهم في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر

ومع [illegible] سنة ١٨٠٠م [illegible] والقصب السكر صارت الثورات أضخم وأكثر ظهوراً، كما صارت أكثر خطورة حتى [illegible] هناك [illegible] الأحداث [illegible] في [illegible] لم [illegible] و[illegible] عسكرية [illegible] لقمع هذه الانتفاضات ولقمعها. وكان الإعداد للثورة وتنظيمها في هذه الظروف البالغة القسوة والصعوبة أمراً يتطلب شجاعة هائلة ومهارة غير محدودة لهؤلاء العبيد.

[illegible] «جبريال - Jabrial» في سنة ١٨٠٠م في [illegible] ٣٥ من [illegible] وفي [illegible] سنة ١٨١٦م [illegible] حتى [illegible]

[illegible] قامت [illegible] في [illegible] في سنة ١٨٦٠م، فقبلها بعشرات السنين قامت في [illegible] سنة ١٨٢٢م [illegible] بعض خدم المنازل من الزنوج وأدت إلى [illegible] ٣٥ من [illegible] وفي سنة ١٨٣١م في [illegible] (Nat Turner) [illegible] ١٦ من [illegible] سنة ١٨٥٩م [illegible] وشاركوا العبيد الأفارقة

[illegible]

بإيجاز شديد يمكن تلخيص هذه الأسباب في:

٣ـ ظهور معارضة عامة [illegible] العبودي في هذه البلاد أتت من العمال الذين [illegible] بالأجر ويخشون منافسة [illegible] العبودي لهم.

٤ - تحرر استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا واستقلال مستعمرات لأمريكا عن الدول المستعمرة الأوروبية جعلت الدول المستعمرة في أوروبا لا تجد مصلحة لها في أن تقوم فرنسيها وتجارها وجيوشها باضطهاد العبيد من إفريقيا نفسها ويحولونهم إلى مستعمراتهم تحت حمايتها ومزارعها، وبعض ذلك منهم ستتبعه قوة عظيمة فيها شعوبها نفسها تحمي مصالح المستعمرين الأوروبيين فعدلوا عن خطف الإفريقيين واستعبادهم في أمريكا وتحولوا إلى استعباد أفراد شعوبها وثرواتها

* * *

من أين جاء هؤلاء؟

[illegible] يستطيع أن [illegible] الملابس من [illegible] في [illegible] هذه [illegible] كثير [illegible] في [illegible] بين ١٨٥٠م [illegible] كبيرة [illegible] في البداية محدودة.

[illegible] المكسيك [illegible] العمل الزراعي في المكسيك [illegible] سنة ١٥٧٠م كان هناك نحو [illegible] في المكسيك، وفي سنة ١٥٨٤م أصدر [illegible] إلى المحيس [illegible] في المكسيك [illegible] «Mulatos» والمستيزو «Mestizos».

[illegible] الأفريقيين [illegible] إلى المكسيك في هذه الأيام [illegible] يعيشون [illegible] في [illegible] العربي [illegible] وهؤلاء [illegible] يعرفون [illegible] وبعض هؤلاء [illegible] إلى [illegible] «Nope» [illegible]

وقد [illegible] الأسواق [illegible] في [illegible] بيرو [illegible] «Roto» [illegible] الاسم [illegible] في سجلات المكسيك، لأنهم [illegible] «Chino» وكثير [illegible] الأول هو [illegible] والاسم الثاني هو [illegible]

[illegible] من [illegible] وقد أخذوا من الأسواق [illegible] والأسواق [illegible] على ثلاثة [illegible] من [illegible] في [illegible] منهم [illegible] من شرق [illegible] في [illegible] وقد [illegible] المكسيك [illegible] على [illegible]

دولاً في شرق أفريقيا «مِلِمي Melin» أو «مالندي Maundi» وموزمبيق. ومن [illegible]
من شخص ما [illegible] أطلق عليه اسم «كُرّان Kattran» مشتق من اللفظ العربي
كفر أو وثني، ومن ثم فإن عبارة «زوزا Zoza» من المحتمل أن تكون أتت من أقصى
جنوب شرقي في جنوب أفريقيا، و[illegible] حروف أو من منطق [illegible] فإن السجلات
البلجيكية تحدث عن [illegible] ونصيب

وفي معظم [illegible] الشعوب الأفريقية كثيراً ما كانوا أقوياء إلى الحد الذي جعلهم
[illegible] ويعملون [illegible] هذا النوص
[illegible] وفي بعض [illegible] تجربة [illegible] هذا الأمر بوضوح [illegible] من
[illegible] في أعداد كبيرة وشكلوا جماعة [illegible] عقائدهم، كما أن
[illegible] الإفريقي على [illegible]
[illegible] «أوريشا Orishas» [illegible]
في [illegible] وفي [illegible] حرب تسمى
«[illegible]» [illegible] جورج [illegible] من [illegible]

وثمة [illegible] في القرن التاسع
عشر [illegible] في غرب [illegible]
[illegible] في سنة ١٨٣١م فقال «لقد دعونا من أجل المال
[illegible] السلاح [illegible] مقابل
[illegible]»

[illegible]
نهر الكونغو امرأة إفريقية كانت [illegible]
[illegible] في بلاد [illegible]
[illegible] في الكونغو،
[illegible] في الكونغو

لا [illegible]
[illegible] السجلات [illegible] على أن

الشعوب الساحلية [illegible] كسب [illegible] بالعبيد من [illegible] ومن صفوفهم، لقد كانوا يشترونهم ويأتون بهم من الشعوب التي في الداخل وكانوا يأتون بهم عبر الأنهار [illegible].

ومن ثم فإن مملكة [illegible] "شعوب الـ Fon" في داهومي كانت توجد فيها [illegible] بعد ذكره من المناطق التي تكون [illegible] أكثر من مائتي ميل في الداخل. وهناك مصدر كبير آخر [illegible] في ساحل الذهب وكان الوسطاء في تجارة العبيد هناك من شعب "الفانتي Fanti" الذين كانوا يشترون المختطفين من الأشانتي في الشمال [illegible] ويبيعونهم إلى الأوروبيين في القلاع الساحلية، لذا كانت تختلط الأسماء بين الفانتي والأشانتي.

وخلاصة القول [illegible] يمكن القول إن الشعوب الأفريقية القوية التي تقطن السواحل كانت تغزو الداخل وتغزو الشعوب، وكانوا يستمدون ما يحصلون عليه من عبيد من الشعوب ذات الوفرة النسبية[1].

العلاقات التجارية الافريقية

[illegible] كانت هناك علاقات [illegible] أوروبية لا [illegible] علاقات [illegible] ولا علاقات [illegible] الأفريقية كانت [illegible] [illegible] وفي [illegible] كانت [illegible] علاقات [illegible] [illegible] وحكام [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

The A[illegible] Slave Trade [illegible] Davidson [illegible] P. [illegible]

[illegible]

يحصل صفة عليا وليس العالية من السكان.

[illegible]

باعتباره حقاً خاصاً.

[illegible]

مع تطور الدول وظهور الحكم المركزي[1].

(١) المرجع السابق The African slave trade. P 124-129.

نظم التحالف العبودي

بدأت تجارة الرقيق عبر الأطلسي في بداية القرن الخامس عشر عندما وصل قبطان برتغالي يدعى لوبي دو سكيرا Pay de sequeira إلى ساحل سيراليون ووصل إلى بلاد غانا حيث تعامل مع ممالك متاجرة في الذهب والعاج والعبيد. ولم تكن التجارة تمثل نشاطا اقتصاديا جديدا بالنسبة للأفارقة فهم يمارسونها في مناطق قريبة من قراهم، ولكنها في تلك الفترة كانت بداية لعصر من شراكة جديدة في تجارة مع مناطق نائية عن قراهم.

كانت التجارة مكرسة في العبيد مسألة بين التجار الأوروبيين والباعة الأفارقة فضلا عن أن التجارة نفسها كانت مقتصرة على المراكز التجارية الساحلية، حيث كان التجار يحصلون على العبيد الأسرى من الداخل بواسطة الوكلاء الأفارقة، ويدفعون الشروط التي يحددها الباعة الأفارقة ويستلمون الأسلحة الأوروبية والسبائك الحديدية والنحاس والأوعية النحاسية والنبيذ والعقود والخرز وكميات من الروم والسكر والمنسوجات نظير العبيد والذهب والعاج.

ولم يكن الرق ظاهرة جديدة على الأوروبيين أو الأفارقة، فقد شهدت المجتمعات الإفريقية منذ قرون طويلة تجارة العبيد السود عبر الصحراء الكبرى من غرب إفريقيا إلى أوروبا الرومانية والشرق الأوسط، لكنها كانت نشاطا عارضا وليس منظما وكان يهدف معظمه لتزويد أسواق البحر المتوسط بتجارة محدودة لخدم البيوت والحريم فضلا عن العمال الزراعيين. وفي داخل إفريقيا ذاتها وجد الرق منذ زمن على نطاق محدود لخدمة شخصية ولفترة محدودة من الوقت كما أنه يعمل مدى الحياة، ويشبه هذا النوع من الرق ما عرف في أوروبا في العصور الوسطى، ونتج عنه استرقاق المدينين المفلسين والمجرمين المسجونين خلال الحروب الدينية، وكان المرء يفقد حريته لكونه شخصا غريبا أو كافرا أو أسير حرب، أو إذا باع نفسه في سوق النخاسة للحصول على مال لأسرته أو لارتكابه جريمة شنعاء، وكانت حقوق العبيد محدودة وفرصهم في التعبير التي لا تحصى فقدت بصورة قاسية. ولكن بصرف النظر عن ذلك كان ينظر إليهم كأعضاء في المجتمع يتمتعون بحماية القانون ولهم حقوق خاصة معينة

[illegible] لم تكن واضحة [illegible]

[illegible]

[illegible] بواسطة [illegible] الأوروبيين. وكانت هذه الغزوات مختلفة عن الحروب الداخلية [illegible]

[illegible] الأوروبيين [illegible] ثم الكحول، ثم ظهرت الرغبة التي [illegible] الأوروبيين [illegible]

في سنة ١٥٦٧م [illegible] وهو واحد من طلائع القادة البحريين الأحمر [illegible] السفن وراء [illegible] ثم [illegible] ثم [illegible] ١٥٠ [illegible]

[illegible] المرجع السابق ص١٨٤

[illegible] تستعيد المقدرة من [illegible] كان هناك [illegible] من [illegible]
[illegible] من سلوك الآخرين من جيرانه، وقد [illegible] عن [illegible]
[illegible] كل ما يحصل [illegible] سيكون [illegible]
[illegible] لم [illegible] ولا [illegible] يعرف شيئاً عن
الاختلاف بين [illegible] التي سيعيش فيها
[illegible] التي من
[illegible] مستقر على الأرض.

[illegible] عدد من [illegible] الأحمر [illegible]
[illegible]
[illegible] آلاف وعشرة آلاف من [illegible] هذه المدينة [illegible]
[illegible] من [illegible] نحو ١٥٠
[illegible] آلاف من [illegible] فضلاً عن [illegible]
[illegible] المدينة [illegible]
[illegible] ٤١٠ من [illegible]

[illegible] حدث في [illegible]
[illegible] ذكر مثلاً على [illegible]
[illegible]
[illegible] الحيوية [illegible] الإصلاح [illegible]
[illegible] الاستقلالية [illegible]
[illegible]
[illegible] طريقة [illegible]

[illegible] في [illegible]
[illegible] العلاقات [illegible] الأوروبية [illegible]
[illegible] من الأحكام [illegible] العمل الدائم
[illegible] يعملون مباشرة أو بطرق غير مباشرة من خلال
[illegible] عملاً [illegible]
[illegible] الذين يفهمون [illegible]

[illegible] تجارة [illegible] في [illegible] صارت عملاً تقوم به الملوك والأعيان والتجار
[illegible] على [illegible] الساحل الافريقي وما
جاوره من أراضي إفريقية.

وفي [illegible] صارت تجارة العبيد لا تنحصر [illegible] حكم في [illegible]
[illegible] كانت التجارة [illegible] وملوك [illegible] وحينما [illegible] هؤلاء [illegible]
[illegible] أرباح التجارة و
[illegible] هذه التجارة [illegible] العسكري لدى
[illegible] لم يكن موجوداً من قبل
[illegible] في [illegible] الأوروبي [illegible]

[illegible] على [illegible] على
[illegible] من [illegible] في [illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible] بوضع [illegible]
[illegible] في [illegible]

[illegible] الأوروبيون [illegible]
[illegible] كثيرة [illegible] الأوروبيون [illegible]
[illegible] في البحر [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] الأوروبيين [illegible]
[illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible] الأوروبية [illegible] في [illegible]
[illegible] في [illegible] الأوروبيين [illegible]
[illegible] في [illegible]

وقد كان الأفارقة على السواحل يحاربون بعضهم بعضاً مثلما يفعل الأوروبيون ويشتدون ويتحالفون مع هذه الدولة الأوروبية أو غيرها ويغيرون على منافسيهم ويستعبدونهم ويبيعونهم أو هم أنفسهم يستعبدون ويباعون، وبهذه الخلفية المتأثرة من [illegible] والسياسة اتسمت تجارة العبيد بهذه القسوة [illegible] كانت تجارة قاسية ولكنها ليست عشوائية؛ لأن [illegible] بالسياسة [illegible] السلوك الإفريقي لا يختلف عن السلوك الأوروبي[1].

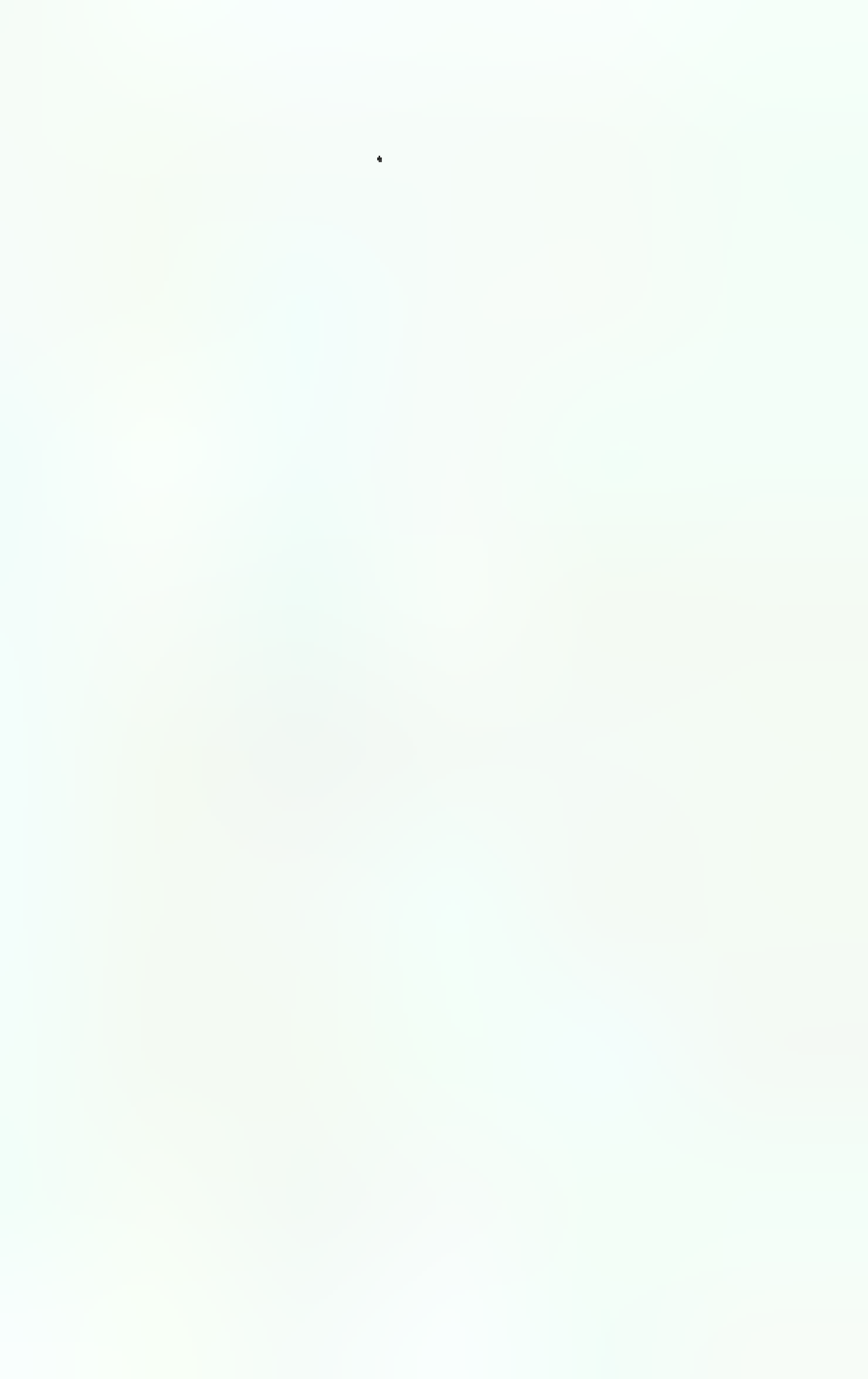
* * *

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P 101-106

الفصل الثانى

غرب إفريقيا والساحل الغربى

- البرتغال فى الساحل الغربى
- التجارة عبر الأطلنطى
- القبول بالمشاركة
- الدور البلجيكى فى الكونغو
- فقدان البشر



البرتغال في الساحل الغربي

[illegible] سنة ١٣٥٠م [illegible] وفي سنة ١٤٥٩م [illegible]
ن يحمل فيلاً على أجنحته.

[illegible]
عند المغرب تو جه نحو الظلمات[1].

[illegible]

[illegible] 2002, P 6

[illegible] من [illegible] إلى شرقيه [illegible] إلى [illegible]
[illegible] في مدينة سبتة [illegible] ضيق على [illegible]
[illegible] المساحة، فلم [illegible] عن [illegible] في أرض
[illegible] أصبحت هذه [illegible]
[illegible]

كان سقوط سبتة [illegible] على [illegible] حدث صغير يكاد لا
[illegible] في كتب التاريخ [illegible] في عام ١٤١٥م [illegible] مدينة سبتة [illegible] وهي ميناء
[illegible] من موانئ المغرب [illegible]
[illegible] على شاطئ [illegible] المتوسط [illegible] من طرق
[illegible] الأبيض [illegible] في تاريخ
[illegible] تحت الاحتلال الإسباني) [illegible]
فتح الباب لغزو القارة الإفريقية

[illegible] في [illegible] كانت [illegible] في [illegible]
[illegible] ١٤٠٠ـ١٤٦١م [illegible] على [illegible] وكانت
[illegible] الأوروبيين [illegible] على [illegible] في
[illegible] الأوروبية [illegible] في [illegible]
[illegible] على [illegible] أوروبا
[illegible] على التفكير بأن العرب ليسوا [illegible]
[illegible] في خوف من الإفريقيين [illegible]
الأوروبيين في [illegible] العرب الأفريقية في
[illegible] في [illegible] العربية [illegible]
[illegible] على [illegible]

[illegible] على [illegible] لا [illegible] في [illegible] على [illegible]
[illegible] في [illegible]

[illegible] ط ١ ـ ١٩٩٥م ص ٤٣

[illegible] الدولية (ط ١ ـ ١٤٢٤ ـ ٢٠٠٤م)، ص ٤٣

[illegible] بحرية تهدف للوصول إلى [illegible]، وبدأت خططهم
[illegible] من الساحل الشمالي [illegible] حتى [illegible]
الساحل العربي.

* * *

في عام ١٤٤٠م [illegible] ملاح [illegible] الأمير
[illegible] من الذهب، فنتج
[illegible]
[illegible] سنة ١٤٣٤م، وفي [illegible] صغيرة على الشاطئ
[illegible] نحو ١٦٥ من [illegible] قليلا [illegible] في هذه
[illegible]، ومن هؤلاء [illegible] ١٥ [illegible]
[illegible] على أي ملامح تشير
[illegible] عن الشاطئ [illegible] من الأرض.
وفي طريق [illegible] وراءهم
[illegible] والأصدقاء
[illegible] سبعة عشر وثلاثة
عشر [illegible]
[illegible] في ذلك الوقت

ظهرت تجارة الرق لأول مرة [illegible] في وصول [illegible] من العبيد الأفارقة إلى
[illegible] ١٤٤٤م وكان عددهم ٢٣٥ عبدا، ويذكر [illegible] في مؤلفه
[illegible] ١٩١١م [illegible] الأفريقيين كان
[illegible] الأمير هنري ملاح [illegible] أحد [illegible]
[illegible] ٤٦ عبدا وهو [illegible]
[illegible] الأمير هنري [illegible]
[illegible] هؤلاء [illegible] لا تستطيع [illegible]
هؤلاء [illegible]
[illegible]

[illegible] والصراع [illegible]، ولأنصار [illegible] كما لو كانت [illegible]
معونة من إله الطبيعة».

انتشرت تجارة [illegible] سريعاً [illegible] وفي [illegible] تاجر من [illegible] يسمى «[illegible]» (CADA Mosto) [illegible] في عام ١٤٥٦م [illegible] ١٢ عاماً [illegible] أخرى [illegible] في هذه [illegible] طريق [illegible] ثم [illegible] في [illegible] من [illegible] وكان في [illegible].

[illegible] من [illegible] في [illegible] شبه جزيرة [illegible] التجارية على شبه جزيرة [illegible] هؤلاء [illegible] في [illegible].

[illegible] على ساحل [illegible] وفي عام [illegible]م قام [illegible] على ساحل [illegible] المطل على المحيط[2].

وفي عام ١٤٨٢م [illegible] في [illegible] أوروبية [illegible] من

[1] The A[illegible] Slave T[illegible]

[2] [illegible] الإسلام [illegible] الإمبراطورية [illegible] ١٩٩٠م [illegible]

[illegible] يستطيعون أن يتحولوا [illegible] المذهب الإفرنجي، وكان عليهم أن [illegible] هذه [illegible] مع رئيس الأهالي في هذه المنطقة. وقد استطاع ديوجو دي أزمبوجا [illegible] البرتغالية بعد [illegible] مع رئيس الإفريقي أن [illegible] يوافق على هذه [illegible] شرط واحد هو الحرص على [illegible] السلام، حتى [illegible] أعمال التجارة في هذه المنطقة في البداية لكن [illegible] عسكرية [illegible] في [illegible] وكان ذلك [illegible] مدينة [illegible] من أجل [illegible] [illegible] جون ملك البرتغال [illegible] كبير [illegible] في أوروبا، وقد [illegible] يصطحب هؤلاء المبعوثين من البرتغاليين [illegible] الملكي، وكانت [illegible] من الخمور [illegible] والأقمشة في ذلك [illegible].

كانت [illegible] مملكة فلم يكن [illegible] الأمر [illegible] وصارت حكمها [illegible] تحت [illegible] البرتغالي، [illegible] مملكة [illegible] (...) كانت [illegible] موافقة على [illegible] البرتغاليين [illegible] ولكن الأمور [illegible] وبعد ذلك [illegible] البرتغاليون عدد آخر من [illegible] [illegible] في [illegible] تقديرهم [illegible].

وفي عام ١٤٨٦م وصل البرتغاليون إلى ساحل [illegible] مدينة إفريقية قديمة [illegible] من [illegible] وبعد [illegible] وكتب أحدهم عن هذه المدينة [illegible] في طريق [illegible] مرات من شوارع [illegible]، إن قصر الملك هو مجموعة من [illegible] كبيرة [illegible] وهناك [illegible] في [illegible] الحكومية في [illegible] وهي [illegible] بصفة لامعة، ومدينة [illegible] تتكون من ٣٠ شارعا [illegible] مستقيمة بعرض ١٢٠ قدما، فضلا عن شوارع جانبية غير

[illegible] القلاع ولكن لم يكن أي [illegible] [illegible] ولقيه كان لأشتى [illegible]

محددة، [illegible] فرصة من بعضها [illegible] أن هؤلاء الناس لا يمكن أن يكونوا [illegible] أكثر من [illegible] يحسبون ويعطفون [illegible] كما تعطف عدسات النظارة اللامعة».

ظل [illegible] يحتكرون تجارة العبيد حتى نهاية القرن السادس عشر، في [illegible] من [illegible] الساحل [illegible] الأفريقيون [illegible] في [illegible] العدد الذي [illegible] قرون الأمير هنري [illegible] في [illegible] الأفريقية [illegible] من [illegible] تجارة الرقيق [illegible] وحتى ذلك الوقت [illegible] في جنوب الصحراء [illegible] داخل البلاد [illegible] من عرب [illegible] في البحر الأبيض و[illegible] أوروبا [illegible] الصحراء الأفريقية التي كانت تحكمها الدول الإسلامية في [illegible] على البحر الأبيض التي سيطرت عليه قرون عديدة. ويقول [illegible] هؤلاء العرب [illegible] رؤساء [illegible] في جنوب الصحراء وفي مناطق [illegible] (السودانية) [illegible] في أرض السود [illegible] خيول [illegible] من ١٠ إلى ١٥ [illegible]. هؤلاء الحكام السود كانوا يحكمون دولاً [illegible] مثل مالي وسنغاي [illegible] من شمال إفريقيا[1].

[illegible] القرن السادس عشر [illegible][2].

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 57

(٢) الموسوعة الإفريقية ـ المجلد الثاني ـ تاريخ ـ [illegible] ـ معهد البحوث والدراسات الإفريقية ١٩٩٧م ص ٣٣٠.

[illegible]
يتولى الوكلاء تسويقها ومقايضتها(1).

[illegible]

[illegible]

[illegible]

---

(1) [illegible]

(2) [illegible]

[illegible]
بعد انتهاء العقد الذي كان لا ينتهي أبداً[1].

وبعد [illegible] [illegible]
[illegible]
تحولت إلى وجود دائم.

* * *

(1) الاستعمار الأوروبي في إفريقيا - د. زاهر رياض ص ١٤٧

التجارة عبر الاطلنطي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

التجارة عبر الأطلنطي

ينقسم عصر الاستعمار الأوروبي في إفريقيا إلى مرحلتين **أولاً**: المرحلة الاستعمارية التجارية التي اقتصرت على احتلال عدد من الموانئ والمحطات التجارية على طول الساحل البحري، **وثانياً**: المرحلة الإمبريالية التي صاحبت الثورة الصناعية في غرب أوروبا، وهي التي [illegible] الدول الاستعمارية باحتلال سواحل القارة من أجل التوغل في [illegible]. شهدت المرحلة الأولى تجارة الرقيق وترحيلهم للعمل في [illegible] العالم الجديد، والمرحلة الثانية شهدت استعباد الأفريقيين في أرضهم الإفريقية لاستخراج [illegible]، إذ [illegible] المرحلة الأولى شهدت [illegible] تجارة الرقيق، أما المرحلة الثانية فشهدت [illegible] الممارسات العنصرية.

المرحلة الاستعمارية الأولى وهي عصر تجارة الرقيق الأطلسية والعصر الاستعماري وهي الفترة الممتدة من ١٧٠٠ـ١٩٠٠م، وعلى عكس التجارة عبر الصحراء التي تم بها [illegible] دون تدخل مباشر من قوة أجنبية من خارج القارة، فقد تمت التجارة [illegible] بمساعدة من الدعم العسكري للقوى الأوروبية، [illegible] الشركات الأوروبية واستعمروا [illegible] الحماية [illegible] في الأسواق الإفريقية.

كما أن [illegible] التاريخي الذي خلفه الأوروبيون خلال تلك الفترة التي شهدت نشأة الرأسمالية [illegible] في تشكيل العلاقات بين [illegible] والعالم الخارجي بطريقة مختلفة، [illegible] خلال مرحلة التجارة [illegible] عبر الصحراء تتعامل مع العالم الخارجي على قدم المساواة [illegible] على التجارة الإفريقية [illegible] تجارة الرقيق الأطلسية [illegible] الاستعماري [illegible] الإفريقية الاستقلالية [illegible] في نهاية الأمر[2].

[illegible] الرقيق الإفريقي [illegible] على طول الساحل الغربي الإفريقي، ثم [illegible] الأوروبية

(١) [illegible] ص ٢٨٢.

(٢) السياسة والحكم في إفريقيا [illegible] ترجمة مجموعة من الباحثين، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣م، ص ٥١.

وعندما خلع ليوبولد الثاني يده بصفة نهائية على الكونغو وقع هذا البلد تحت أسوأ استغلال عرفته البشرية في الفترة من ١٨٨٥ ـ ١٩٠٨م وهي عبودية مستترة لكي يستغل القصر موارده من المطاط والعاج، فتحولت تلك المنطقة الإفريقية المسلوبة تصل إلى حد الإبادة، فكان الجنود يطلقون النار على العمال الذين لا يقومون بجمع حصصهم ويقطعون أعضاءهم، ولكي يثبت الجنود للمسؤولين أنهم لم يهدروا ذخيرتهم هباء فكان الجندي مجبراً على إحضار عضو من جسد الإنسان في مقابل كل رصاصة صرفت، ليوبولد لم يضع قدمه قط في الكونغو ومع ذلك حكمها ٢٣ عاماً من سنة ١٨٨٥ ـ ١٩٠٨م، وحسبما يقول هوشيلد إن الكونغو كانت المستعمرة الوحيدة في العالم التي يدعيها رجل واحد بصفته الشخصية أودى بحياة ما يتراوح بين خمسة وتسعة ملايين من البشر، حتى أجبرته الاحتجاجات العالمية أن يتنازل عن إدارة حكمه للكونغو عام ١٩٠٨م، وانتقل هذا البلد إلى الحكومة البلجيكية لتصبح مستعمرة بلجيكية، أي إنها انتقلت من ملكية خاصة للملك إلى ملكية عامة للدولة البلجيكية.

كان المطاط هو ما كان يبحث عنه ليوبولد من الكونغو. ثم حدث بعد ذلك مصادفة حدث غيّر مصير مستعمرة الكونغو وشعبها. كان "جون دنلوب" في أيرلندا يجرب دراجة ابنه واكتشف أن الدراجة تكون أكثر راحة إذا صنع إطارها من المطاط، فأسس شركة عرفت عام ١٨٩٠م سميت باسمه دنلوب، ثم صارت هذه الصناعة كبرى الصناعات من إطارات دنلوب وصار المطاط هو الذهب الجديد، وكان هذا ما فتح شهية ليوبولد وفتح أبواب الثروة من الكونغو على المطاط.

إرهاب المطاط

ضغط ليوبولد على وكلائه للمزيد من استغلال المطاط الطبيعي في الكونغو رغم قلته، وبالرغم من ذلك مذابح العمال الجامعين، كان استخراج المطاط الطبيعي عملية صعبة بطيئة يستخدمها شباب وكلاء ليوبولد جيوشاً مسلحة لإجبار الأهالي في الكونغو على الذهاب إلى الغابات وجمع المطاط، وحين كانت تقل الكمية زوجة

(١) المصدر: ... د. عبدالغني سعودي ص ٩٢ـ١٠٢

[illegible] يشهد أحد الأهالي [illegible] في
[illegible]

[illegible] على الأجسام [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] Katz Leopold [illegible] P. 245

[illegible] ص ٢٤

[illegible] ص ٢٦ - ٣١

القبول بالمشاركة

من المؤكد أنه لا يوجد فصل في تاريخ الخبرة البشرية يشبه ما حدث في ساحل خليج غينيا [illegible] وما حدث في غرب إفريقيا يفوق كل المواجهات الأخرى بين أوروبا وإفريقيا [illegible] سوى حروب العنف والتكورات والتدمير [illegible] ولكن يكون ساحل غينيا هذا النموذج الأكثر وضوحا لما أحدثه الاتصال الأوروبي من التحول التدريجي للمجتمع الإفريقي من المشاركة ثم الإخضاع والإلحاق

في معظم إفريقيا [illegible] نجد مجموعات كبيرة في مواجهتها مع العالم الخارجي، فشعوب الكونغو مثلا عرفت الاتصال الأوروبي عن طريق دولة أوروبية واحدة [illegible] واحدة وهي [illegible] في البداية. ولكن على طول ساحل غينيا كانت العشرات من الدول الأوروبية تتنافس [illegible] التجارة عبر العديد من الأيدي والمحلات. [illegible] شعوب شمال إفريقيا كانت لديها معرفة طويلة بالاتصالات المتنوعة مع العالم الخارجي [illegible] ولكنها كانت ضعيفة وغير [illegible] على [illegible] في حين أن شعوب ساحل خليج غينيا كانت [illegible] قادرين على الدفاع عن أنفسهم عندما يهاجمون ودافعوا عن أنفسهم فعلا.

في [illegible] كان لديهم [illegible] التعاون [illegible] والأوروبيين، [illegible] في ساحل خليج غينيا، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] مع [illegible] الأول[1] ملوك بينين ضد جيرانهم

[illegible] الأولى [illegible] الشك لا [illegible] في ذلك من خلال [illegible] الاتصال الأوروبي ولكن [illegible] بعضهم في بعض [illegible] في بعض [illegible]

---

[1] [illegible] ساحل غانا غربا إلى ساحل [illegible] ثم ساحل نيجيريا شرقا

سلاح أو يحرقونه، ولكن على الرغم من أنهم شكلوا من خلال المصلحة في التجارة، ومنه
هدنة من نوع خاص مدهشة تحت دعوى التجارة الأوربيين و التجار الأوروبيين
، جميع التجار فرنسيين في الملاحة، والاحتواء في الساحل، لكن لم تشهم شيء من ذلك
ولا أعدادهم المبهرة.

وفي حسب الأحرار بين الشركاء الأفريقيين أظهروا مهارة وبراعة في ممارسة
التجارة. إن تاريخ الساحل الجنوبي الغربي من أفريقيا منذ عام ١٥٥٠ - ١٨٥٠م كان تاريخ
مبادرة في التجارة والإنتاج بشكل مستمر وقد ... وبه من حيث غير خبرة
التجار الأفريقيين الخبرة المطلوبة كثيراً من الخارج ومعظمه كثيراً من الخارج، ولا أن التجار
الأوروبيين كانوا وحدهم يملكون ... وهذا الأمر لا يعكس فكرة مسبقة عن ضعف
التجارة الأفريقية، ولكن يظهر أن هؤلاء الأفارقة الذين انخرطوا في التجارة كانوا
تجاراً ماهرين لديهم خبرة لا يستهان بها، بل على العكس كانوا يفهمون تماماً كما
يفهمها الشركاء الأوروبيون، وقد استطاعوا تحقيق مصالحهم وتحقيق أرباحهم. إن سواد
حكمهم الكبير وهو مسألة تؤكد أن أوروبا أرادت عمداً للاستغراق في الأمريكيين،
الدول والشعوب الأفريقية التي انخرطت في هذه العلاقات و الاتصالات بشكل
مباشر وغير مباشر كانوا منتشرين على نطاق كبير من السعة والشكل الاجتماعي، كانوا
الشعوب في الصحراء (سافانا) والسهول الغابية السودانية وحزام الغابات
الأفريقي وسواحل البحار.

في وقت وصول الأوروبيين في القرن الخامس عشر كان الكثير من هذه الشعوب
قد حققت تقدماً خاصاً بمعايير خاصة في الشكل الاجتماعي، وظهرت دول
ممالك وإمبراطوريات قديمة، وحدث في تراثها ما يجعلها جديرة بالنظر إلى ماضيها
مثل ما حدث في أفريقيا السوداء.

إن الدول الرئيسية الأساسية في ساحل غرب أفريقيا وما جاورها في الأراضي
الأفريقية لا حصر لها قد نشأت بشكل قوي في وقت نشأة مثيلتها في أوروبا، كان لها
مستوى حضاري وثقافة حسنة عليها تتمتع بروابطها وقيمها وأخلاقها، وبعضها عرف
الكتابة وبعضها لم يعرفها، لكنها كلها في القرن السادس عشر بدأت تقيم تجارة بحرية
على طول الساحل[1].

(1) مرجع السابق The African Slave Trade P 202-210.

مملكة الأشانتي

نشأت المملكة الأشانتي من دولة موحدة نشأت في العصور الوسطى ثمة من فترة غير معروفة من الزمن لشعوب تعيش في غابات أفريقيا الغربية وتوحدت هذه الشعوب متفرقين متقطعين في غابات صغيرة ومجموعات من العائلات التي تعيش على الصيد والزراعة وحدود معينة تحميهم، وهم من الشعوب الناطقة بلغة الأكان التي تسكن جنوبها في الأراضي الداخلية، كان هؤلاء جزءاً من شعوب الساحل الذهبي [illegible] بالتشابه الشديد في الثقافة [illegible]، ومنهم البرتغاليون والأوروبيون الذين [illegible] في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

إن غالبية هذه الشعوب الصغيرة نشأت في وقت لا ندركه بالذاكرة، والآخرون دخلوا في الأراضي الحرجية التي تكون الشريط الضيق من الصحراء والغابة، وخلال عمليات الهجرة في القرن الثاني عشر، ربما كانوا منقسمين في وحدات صغيرة ويدينون بالخضوع للشعوب ذات العدد والقوة في الغرب عند الأفق الشمالي، ولكنهم كانوا يختلفون في هذا الخضوع؛ لأن الشعوب منهم كان قليلاً [illegible] من المال والجاه.

إن الشعوب الغابية كانوا في حالة محصنة، ثم كانوا مرتبطين من الساكنين [illegible] وبين حربين الأمن من الشمال، ولكن عمليات مركزية تكونت بها القوة وتمت بها، وهذه العمليات اكتملت تقريباً قبل سنوات عديدة من بدء تجارة المحيط، وكانت قوة هؤلاء تزداد من كثافة مناجم الذهب، ثم تأتي التجارة التي يأتي منها الذهب التي تمارسها مع دول الساحل السوداني الغربي، وكانت الأشانتي وما جاورها من أرض مشهورة باعتبارها مورداً للذهب.

وفي الوقت ذاته هبط الأوروبيون ونشروا السلاح، وكانوا يريدون شراء الذهب من الشعوب الصغيرة الموجودة على الساحل، ويمكن الإشارة إلى العصور التي كان الأوروبيون على هذه المناطق الساحلية كانوا [illegible] وهذه الأهمية [illegible] البرتغاليين الذين [illegible] في [illegible] (Kasamansa) مع الرئيس المحلي وكانوا [illegible] ولكن لديه قيم طيبة وأحكام واضحة.

[illegible] البرتغالي قد صادف صعوبات في عمله، ولكن عندما [illegible] في وقت [illegible]، وكانت ثمة [illegible] و[illegible].

[illegible] على هذا الشاطئ [illegible] من الساحل، ولكن في نهاية [illegible] كانت [illegible] قوية إلى حد أنها كانت [illegible] هذه الأمور، وعلى مر [illegible] مشتركة وأدت إلى [illegible] نحو ٤٠ قلعة أوروبية على طول [illegible] كم من الساحل [illegible] و Keta في الشرق وهي [illegible]، ولكنها كانت مشتركة [illegible] الحروب إلى [illegible].

[illegible] المنافسة بين الأوروبيين بعضهم البعض والمنافسة بين [illegible] بعضهم البعض [illegible] السيطرة الاحتكارية على [illegible] التجارة، فمثلاً في [illegible] الأوروبي كان [illegible] الأفريقي [illegible] Denkyira [illegible] Akwamu [illegible] وقد زاد [illegible] تجارة الذهب وتجارة العبيد عند الأوروبيين وزادت [illegible] الأسلحة النارية [illegible] الأوروبية [illegible] لدى الأفريقيين. وفي النهاية [illegible] في ساحل العبيد[1] [illegible] الصراع المزدوج للاحتكار [illegible] بين الأوروبيين [illegible] وأفضى إلى بداية الحكم الاستعماري.

[illegible] الأوروبيون على الساحل أن [illegible] كل منهم [illegible] من أجل أن يسيطر [illegible] يكون ذلك [illegible] ممكناً، [illegible] سيطرة كل من القوى الأوروبية [illegible] الأوروبي [illegible] السيطرة على [illegible]، ويمكن ملاحظة ذلك في [illegible] الهولنديين، حيث كانوا هم الأقوى من كل [illegible] الأوروبية البحرية في القرن السابع عشر، [illegible] استطاعوا أن يسيطروا على قلعة [illegible] من البرتغاليين [illegible] ثم [illegible] الأفارقة [illegible] الأفريقيين [illegible] وقد بنى الهولنديون قلاعاً كثيرة صغيرة في [illegible] وأكرا [illegible] الأفارقة [illegible] الحصول [illegible] الهولنديون [illegible] السيطرة على الأفريقيين [illegible] في الساحل من [illegible] الأوروبيين الآخرين [illegible] نوع من [illegible]

---

(١) ساحل العبيد أطلق على ساحل غرب إفريقيا

لم تدم مدة طويلة فقد دفعت مقاومة، كما أن دول الساحل في الشرق كانت أكثر قوة من أن تحتل جميعها. وفي ثمانينات من القرن السابع عشر في كرافت قلاع أوروبية ثلاثة لم تكن قادرة على السيطرة على المنطقة المجاورة [illegible] مركز من الذهب ولم تكن هذه حالة وحيدة [illegible] على طول ساحل الذهب وعلى [illegible] أو غربه كانت الحرب [illegible] بين كل قوة وأخرى.

وبسبب [illegible] الحرب التي كانت [illegible] في الداخل، وكانت ثمة توترات [illegible] لأنه كانت شعوب منظمة في حكومات مركزية [illegible] ولكن قوة غيرها محدودة [illegible] الإفريقية [illegible] وهكذا ظهرت [illegible] مقابل البنادق على طول ساحل العبيد.

ظهرت دولة الأشانتي في نهاية القرن السابع عشر عندما كانت وحدات منشقة من شعب [illegible] في منطقة الأشانتي [illegible] في حدود الأشانتي [illegible] مع الأوروبيين في الساحل.

ومن الصعب [illegible] الأشانتي فتوحات [illegible] على [illegible] ساحل الذهب [illegible] الإفريقي [illegible] ولا شك أن [illegible] علاقات [illegible] أن من [illegible] الأشانتي كان [illegible] على البنادق، ولكن البنادق لم تكن تمكن [illegible] وقد كانت تجارة الذهب [illegible] الأشانتي [illegible] الأشانتي [illegible] على الساحل الأوروبية.

ولكن [illegible] شعوبها، [illegible] ومن ثم [illegible] شعوب [illegible] الأخرى [illegible] الشعوب كانت [illegible] في هذه المنطقة [illegible]

[illegible] وطرق التجارة إلى الساحل [illegible] الأسلحة [illegible]

[illegible] وهذا يقود إلى المزيد من جلب العبيد، ومن ثم فقد نمت الأشانتي حتى صارت من أقوى [illegible] في إفريقيا مثل دول المدن في ذلك العصر [illegible] تتاجر مع بريطانيا وفرنسا وهولندا على الجانب الآخر.

[illegible] الأشانتي [illegible] وكثير [illegible] الساحل [illegible] الحروب [illegible] عمليات العبيد هي ثمن وجود الأشانتي.

[illegible] سنة ١٧٠٠م [illegible] الأشانتي [illegible] الثروات في [illegible] الأطلنطي.

[illegible] الأشانتي في [illegible] "كوماسي" في [illegible] الأشانتي، [illegible] الاستعمار [illegible] الأشانتي، وبعد حروب [illegible] في سنة ١٩٠٢م [illegible] الأشانتي [illegible] البريطانية.

[illegible] الأشانتي في [illegible] سنة ١٨٣٣م [illegible] سنة ١٩٠٠م حتى [illegible] الأشانتي [illegible]

[illegible] الأشانتي [illegible] ١٨٣٣م [illegible] الأشانتي [illegible] ١٩٨٥م[1]

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 205-210.

إن الحقيقة التي يجب ألا تغيب هي أن كل ما كان يريده الأوروبيون في أي مكان في العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو بالغش فإن لم يستطيعوا ذلك من هاتين الوسيلتين فبالقوة.

* * *

بنين مملكة الدماء

بنين مثل أشانتي، عندما وصلها البرتغاليون لأول مرة وجدوا عاصمتها قوية (مدينة بنين) تسيطر على مساحة واسعة وتمتد من دلتا النيجر حتى لاجوس (نيجيريا)، ويقول المؤرخون كانت هذه المنطقة إحدى المناطق الرئيسية التي عمل فيها تجار الرقيق، وهناك كتب عن مناطق صيد العبيد، وتشير الحقائق إلى أن ملوك بنين أبرموا مع أول البرتغاليين الذين جاءوا إلى هناك أغرب وأبشع صفقة أخس تجارة في تاريخ البشر وهي تجارة الرقيق.

ويذكر المؤرخون أن العاصمة بنين كانت تمتد نحو ثلاثة أميال من البوابة حتى البوابة، وكان لها خندق عميق وسور كبير للدفاع عنها، وكان الملوك الذين تسيطر عليهم في حكمهم طبقة النبلاء والوزراء، وكانت بنين في ذروتها التاريخية تحت حكم الأوبا العظيم Ewuare (الأوبا لقب يطلق على كل من يتولى العرش في بنين) وكان حكامها في سلطات مطلقة مباشرة على وصول البرتغاليين، ورغم أن البرتغاليين لم يكسبوا منها كثيرًا على مدى القرن السادس عشر فقد كان الأوبا يحسن استقبالهم تجارًا ومبشرين.

وقد تزايدت المصادر التاريخية عن بنين نوعًا ما مع وصول الهولنديين في القرن السابع عشر وكانوا كثيري الاهتمام بشركائهم من التجار وكتبوا خطابات عديدة لذويهم في هولندا تحوي تفاصيل ممتعة عن بنين، كتب أحدهم يصف المدينة في سنة ١٦٠٢م "إنك تمشي في شارع عريض جدًا غير ممهد يبلغ نحو سبع أو ثماني مرات عرض شارع وارموس في أمستردام، وبوابة المدينة كبيرة جدًا مصنوعة من الخشب وفي داخله حصون قليلة وتعلو، وكان قصر "الأوبا" محاطًا على الأسوار داخل بنين، وبلاط (قصر) الأوبا واسع جدًا به ساحة ميدان فسيح"(١)

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 232

وقامت تجارة واسعة وكثيفة بين بنين وبين الدويلات المجاورة لها، والكثير من هذه التجارة كان احتكاراً ملكياً، ولكن ثمة وسطاء في هذه التجارة فلا يستطيع أوروبي أن يساوم أو يدخل في علاقة تجارية إلا من خلال التجار أو المندوبين من أهالي المدينة. هذه المدينة الإمبراطورية كانت لها مشاكلها مع جيرانها مثل أي دولة أخرى، وكانت تستورد الأسلحة النارية بغرض سيطرتها طوال القرن السادس عشر. ويذكر التقرير أن معظم الحروب التي قامت مع جيرانها كانت لصالح بنين حتى منتصف القرن السابع عشر، ولكن بعد هذا التاريخ تقلص النفوذ الملكي وحل محل حروب التوسع حروب أخرى من أجل العبيد.

قام البرتغاليون بتزويد شعب بنين بالبنادق والأسلحة النارية وطلبوا منهم الانطلاق إلى مناطق الغابات والمناطق الريفية البعيدة لمحاصرة الأهالي واصطيادهم وقيادتهم إلى ساحل خليج غينيا ليتجمعوا هناك ثم يصدروا إلى البرتغال، حيث يباعون من جديد بالجملة وبالقطاعي.

وبالفعل نشطت جيوش بنين مزودة بالأسلحة النارية في اصطياد الأهالي وأسرت الآلاف، ثم فر الأهالي من الأسلحة النارية التي لا قبل لهم بها تاركين حقولهم، وهربوا من المطاردين إلى مناطق أكثر توغلاً في الغابات والأحراش[1].

وفي بداية القرن الثامن عشر أصبحت مساحات واسعة في بنين خالية تماماً من الأهالي وضعفت قدرة المملكة على الاستمرار في تجارة العبيد، واضمحلت بالتالي سلطة الدولة في بنين ووصمها التاريخ الإفريقي بعار الاشتراك مع الأوروبيين في تجارة العبيد، واحتفظت ذاكرة التاريخ لها بهذه الوصمة المشينة، حيث تشير القصص والحكايات المتوارثة إليها باعتبارها «مملكة الدماء».

لقد قوضت تجارة العبيد الرخيصة كما حطمت هيكل الدولة وصارت مساحات واسعة من الأراضي بوراً وخالية تماماً من الزراعة والبشر بعد أن اشتركت في شبكة كبيرة لتجارة العبيد شأنها في ذلك شأن دول الشرق النيجيري، واشتعلت الحروب المستعرة بحثاً عن العبيد. ويقال إنه في عام ١١٩٨م حملت السفن البرتغالية نحو ٢٠ ألف عبد

[1] [illegible] ترجمة محمد [illegible] مكتبة الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني بيروت، ط ١ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م ص ١١١

فتقلص من سلطة الشرقية في مقابل نحو ألف فقط من نهر سين قد يدل على ...
بعد قدرة على أن تكون دولة تتحرر العبيد، وصار «لأوبو» عاجزًا على وقف ...
التي كانت تجري شمالها، وبعد سنوات أرسلت بريطانيا قوة عسكرية وفرضت سلطتها
الاستعمارية عليها.

***

ما وراء الساحل

لم توجد كيانات وراء الساحل بخلاف شعوب دلتا النيجر كانوا جماعة لا تفصل بين
نهر بعيد لأن ... وبين الممالك والإمبراطوريات السودانية. وشعوب دلتا هؤلاء
كانوا شعوبًا ذوي خبرة تاريخية ممتدة، وكانوا يكتسبون من التجارة مع بعضهم بعض
كما يكتسبون من التجارة مع دول الشمال في السودان الأوسط، لذلك كان يتعين أن
يكونوا قوة في خط تجاري يمكنهم من الحصول على نصيبه من المجتمعات المجاورة
في داخل الغابة وسكان في مواجهة الأوروبيين.

وقد تمكنت الدول وشعوب دلتا النيجر بعد فترة كبيرة من استخلاص
أحسن ما يستخلص من ظروفهم الطبيعية النسبية سواء بالنسبة للتجارة أو الحرف أو الصيد،
وقد استغلوا طرقًا جديدة لتوجيه شعوبهم ذوي الصفات المختلفة والأصول المتباينة
والولاءات المتباينة، فنجحوا في أشكال مركبة لتنظيمات مجتمعاتهم، ومن بين
مؤسسي هذه المجتمعات شعب الإيجو ... أي من ... وهؤلاء استوطنوا
... من الإيجو ومن قبائل أخرى متعددة موجودة أصلا حول سواحل النهر
والأراضي المنخفضة ... وعاشوا صيادين في ظروف فقيرة.

ثم في ... لم يجدوا لديهم شيئًا من الحروب ... ولكن هذه المنطقة ذات ...
استطاعت أن تستفيد من موقعها فتكون همزة وصل بين الساحل الإفريقي وبين
المحيط الأوروبيين على السواحل الإفريقية من تجار الرقيق بعد ذلك ثورة حدث
التجارة لأنه من ... من النيجيريين، وهكذا لم تعد تلك مجرد ممالك ... ولكنها
توظفت لإيجاد روابط مع أوروبا.

وتعد شعوب ... مشكلة ... والأقليات الإثنية فعملوا على ذلك ... بنظام
حكم سمي ... وقد أصبحت ... هذه ... في ...

يستطيع أن يستوعب مهاجرين جدداً كما يتنافسون على التجارة وعلى الأرباح وعلى الأراضي أيضاً، ولكنهم فضلاً عن هذه المنافسة كانوا يشعرون بأن ما يربطهم معاً من مصالح مشتركة يمكن أن تشكل نظام حكم، وقد استطاعت أن تعمل. ومن هذه النظم ما صار بعضها ممالك وبعضها جمهوريات، وكان الخيار في ذلك مرتبطاً إلى حد كبير بنفوذ التقاليد المجاورة لها.

ومن خلال هذا التكوين ظهرت مؤسسات جديدة استطاعت أن تربط المجتمع بعنصر علاقة غير محدد وهي مؤسسة «نظام البيت» «House System»[1]، ويعرف هذا النظام بأنه وحدة تجارية تعاونية ومؤسسة حكم محلي في الوقت نفسه. وكل «بيت» كان بمثابة شركة تجارية قوية وقاعدة كل دولة سواء كانت مملكة أو غير مملكية تتكون من عدة «بيوت»، ومن خلال هذا التنظيم تأسس نظام قبلي جديد يشمل الغرباء والمجموعات الإثنية المتعددة.

إن الفكرة الأساسية الكامنة وراء هذا النظام تتعدى حدود العائلة إلى مفهوم قبلي متميز عن العائلة الممتدة وهو الجماعة التي تتضمن عدداً من الرجال والنساء والأطفال تشملهم رابطة الدم الواحد، ولكن نظام البيت كان يتبنى الفكرة أبعد فقد صارت العضوية في «البيت» تشمل ليس فقط العائلات الأساسية وأقرباءهم، ولكنها تشمل أيضاً الخدم والعبيد مع درجات محددة لكل درجة منها طبقة وجماعة ومستوياتها وامتيازاتها وحقوقها

ومع الوقت فإن الأصول العائلية تلاشت وصارت البيوت وحدات محددة بذاتها والولاءات الإثنية سقطت وكلها مندمجة في عادات وتقاليد جديدة، وكانت «البيوت» الأصغر تتراوح بين ألف عضو وثلاثة آلاف والبيوت الكبرى تضم عدة آلاف.

كان أكثر العبيد المستوردين من هذه المنطقة التي كانت تذهب إلى المحيطات والمعروف أن حياة هؤلاء العبيد تختلف عن حياتهم بالتجارة مع أوروبا، ومع مضي الوقت فإن هؤلاء العبيد الذين لم يكونوا يباعون وإنما يرتبطون بعلاقات خاصة من

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 214

هؤلاء مع ستة أو سبعة تجار أجانب مقيمين يحصلون على نصيبهم الخاص وأحياناً صغار الملوك. وفي أوقات متأخرة استطاع التجار الذين يعملون في مراكز هؤلاء الحكام أن يقيموا لأنفسهم وجهات هادئة، حكومات أو رئاسات إلا أنه لم تكن باستطاعتها أن تستوعبها، وقامت الثقافات التجارية التي وضعت حداً لمدة طويلة للعبودية.

أدت تجارة العبيد إلى طلب المزيد من الأسلحة، ثم زادت أهمية استيراد البنادق والذخيرة (الرصاص والبارود)، ليس هذا فقط ولكن لأن الأسلحة النارية كانت أكثر فعالية من الأسلحة العسكرية من السيوف والحراب التي تستخدمها القبائل، فقد كانت الأسلحة النارية في بادئ الأمر قليلة الشأن ومقتصرة على الملوك، ولكن هذه القلة زادت عندما ظهرت علاماتها على الكفاءة العسكرية فصارت مطلب قوة حربية، وبدأ التفوق يعرف بمدى ما يمتلكه من البنادق، ثم مع مرور الزمن زادت كفاءة هذه الأسلحة.

تجارة الأسلحة كانت تشمل البنادق القديمة الطراز للأفريقيين، وكانت محدودة في شكل كمية من البنادق، وكانت التجارة يفكر فيها الأوروبيون هو أن يزيدوا التطور التكنولوجي الذي تشترك فيه الأفريقيين، ولذلك لم يصدروا البنادق للأفريقيين، في حين أن الأوروبيين كانوا مضطرين إلى ذلك ليحصلوا على ما يريدون ولكنهم لم يكونوا مهتمين بتعليم الأفريقيين كيف يصنعون الأسلحة النارية أو كيف يستعملونها بكفاءة. إن العنصر الأخير في هذا المجال كان هو التبادل في البنادق والعبيد، ولم يكتف الأوروبيون عن ذلك إلا عندما حققوا أطماعهم بالنسبة للعبيد، أما الدول الأفريقية التي تعاملت في هذا الشأن فقد وجدوا أنفسهم في النهاية محتلين فيما صنعته بهم تجارة الأطلنطي.

وعندما اختفت هذه التجارة بعد سنة ١٨٣٠م كان الأوروبيون قادرين على تطوير اقتصادهم الخاص المحلي التي تطورت من التجارة، وفي هذه الأفريقية يمكن تصنيع مثل زيت النخيل الذي احتاجت صناعات متعددة أوروبية كالصابون، وكان التوسع في صادرات زيت النخيل والذهب في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر وكما كان معهوداً بعد أن تقلصت بوضع كثير من الأيدي العاملة، ولم يكن يوجد سوق عمل

(١) المرجع السابق. The African Slave Trade P. 215.

... وبعضهم حتى قبل انتشار شبكات يستخدمون من خلالها العمل غير المأجور أي
بهم فيصبحون عبيدًا مخصصين يستخدمون في أعمال الفلاحة بدلًا من أن
يصدروا عبر البحار.

وفي هذه المرحلة كانت الفجوة التكنولوجية بين إفريقيا وأوروبا صارت واسعة
جدًا، وتطورت الرأسمالية في أوروبا في اتجاه إمبريالية جديدة، وصار هدف الأوروبي
من الحصول على الذهب والعاج والتغلغل أو العبيد وبيت سحيق، ولكن صار
هدف الأوروبي هو الاستيلاء على الأرض وتسخير الأفريقيين للعمل فيها وبدأت
مرحلة الاستعمار.

❊ ❊ ❊

الدور البلچيكى فى الكونغو

[illegible]

التجار الأوروبيون سجلات دقيقة عن سرقاتهم، ثمة سجلات [illegible]
[illegible]
[illegible] الأطفال [illegible]
[illegible] على وشك الموت إلى آخر القائمة.

كثيرٌ من [illegible] الذين شحنوا إلى الأمريكتين [illegible]
[illegible] الكونغو [illegible]، [illegible]
[illegible] نحو ٧٠٠ ميل، [illegible]
[illegible] من الطعام؛ ولأن القوافل كانت تسير
[illegible]

[illegible] من هؤلاء [illegible]
[illegible] ثم [illegible] في أمريكا [illegible]،
[illegible] من كل [illegible] فقط هو من
[illegible] في [illegible] أمريكا [illegible]
[illegible] الكونغو كانت واحدا من [illegible]
[illegible] في كاروليا [illegible] وجورجيا.

[illegible]فنسو الأول

[illegible] الكونغو [illegible] الأصغر كان يحكم هذه المملكة
[illegible] "Nz[illegible]" الذي سمي "[illegible] أفونسو" «Mbamba Mfonso» تولى العرش سنة
[illegible] وحكم [illegible] أفونسو الأول، وكانت حياة أفونسو فترة رئيسية
[illegible] في تاريخ هذه المملكة [illegible] أحد في مملكة [illegible]
[illegible] كل رحلة
[illegible] على مملكته، وبعد ٣٠٠ سنة كتب أحد [illegible] الأوروبيين
[illegible] الكونغو [illegible]
[illegible] وأفونسو

King Leopold's Ghost, Adam Hochschild, Pan Books, [illegible] Macmillan, [illegible] London 2000, P.9-10

كان أفونسو رجلاً في الثلاثينيات من عمره عندما وصل البرتغاليون إلى مملكة الكونغو في سنة ١٤٩١م، وعندما تحول إلى المسيحية اتخذ اسم "أفونسو"، كما كتب أحدهم إلى ملك البرتغال بأن أفونسو يعرف الأنبياء أكثر منا. كما يعرف الإنجيل المقدس ليسوع المسيح وحياة القديسين، وما يجب أن نعلمه عن الكنيسة الكاثوليكية المقدسة. إذا رأيته خلال تكلمه ستدهش لأنه يتكلم بشكل جيد وبطريقة تدعو إلى الدهشة كما لو أن الروح القدس تتكلم على لسانه. يا سيدي الرئيس إنه لا يصنع شيئاً إلا الدرس، وكثيراً ما غلبه النوم وهو يقرأ في كتبه، وكثيراً ما ينسى أن يأكل أو يشرب، لأنه يكون مستغرقاً في الحديث مع المخلص[1]

ومن الصعب أن نعرف مدى ما في هذه الصورة المثالية من الحقيقة المنسوبة من الصدق، ومن المحاولة للتأثير على ملك البرتغال، ومدى تأثير أفونسو على المبشرين، ومعارضة جرى ثم استخدامه في العصور اللاحقة، فإن الملك أفونسو كان من الحداثيين، وكان مهتماً في معرفة أسرار العلوم الأوروبية والأسلحة والصناعات الأوروبية لتقوية حكمه ولمقاومة القوى التي تتحدث عن وصول الرجل الأبيض، وعندما شعر برغبة البرتغاليين في الاستحواذ وتجارته مع الأوروبيين، وساعده في ذلك شراء حاجاته فيسهم ومن الواضح أن خلاله كان عبر معاهدات "أفونسو" قد حاول أن يصنع الأشياء الصغيرة والجوانب الكبرى، لذلك كان يحمس الكنيسة والكنيسة المكتوبة والمدرسة الأوروبية والمستوردات من البرتغاليين من الحرفيين البرتغاليين، ولكن عندما سأل عن الملك البرتغالي لبعض بنايه التي تقوم من البرتغالية ويقدم للبلاط البرتغالي لم يكن "أفونسو" مهتماً بذلك، وقد كان حذراً من الأوروبيين من رغبتهم في الذين يعرفون ما في بلاده من ذهب وفضة

ولأن كل ما نعرفه عن هذا القسم من أفريقيا على مدى عدة قرون أتى لنا عن طريق البرتغاليين، فإن الملك أفونسو الأول يعد شيئاً نادراً ويعد باعتباره صوتاً أفريقياً، وهي حقيقة فريدة واحدة من الأصوات الأفريقية نفسها حتى سمعناها عبر التجار البرتغاليين التي استخدمها في رسائله البرتغالية من

[1] المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 12

[illegible] الأفريقي الأسود بلغة أوروبية حديثة، [illegible]

[illegible]

عميرة إلى صعن العبيد

[illegible] سنة ١٥٢٦م [illegible]

[illegible] شرى للبيع[1].

[illegible] عام ١٥٣٩م [illegible]

1. المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 13.

بحوزته ومن اختطفوهم من أقربائه الذين أرسلوا إلى البرتغال لتلقي تعليمهم لدى كانوا قد اختفوا في الطريق، وكتب يقول: إننا لا نعرف إن كانوا قد ماتوا أو أنهم على قيد الحياة، ولا نعرف كيف ماتوا، لأننا لا نعلم شيئا عنهم(1). ويمكننا أن نتصور فزع الملك ألفونسو وهو الحاكم الذي يفترض قدرته على تأمين سلامة أعضاء أسرته، إن [illegible] على طول الطريق عودتهم إلى الوطن، وكانوا يذهبون إلى أوروبا ولا يعودون أبدا بعد أن عرفوا طريقهم للعبيد هناك.

وإن كراهية الملك ألفونسو لتجارة العبيد عبر البحار ومعارضته لها قد أكسبته عداء بعض التجار البرتغاليين الذين يعملون في العاصمة، وتآمرت جماعة منهم وحاولوا قتله في الاحتفال بعيد الفصح يوم الأحد من عام ١٥٤٠م، وقد هرب بعد أن أصابت رصاصة ثوبه وقتل أحد النبلاء وجرح اثنان في هذا الحادث.

وبعد وفاة ألفونسو انهارت بالتدريج قوة دولة الكونغو وتقسمت، وأسهم غزو في الأقاليم المجاورة وبعض صراعات داخلية من [illegible]، وبعد منتصف القرن السادس عشر اشتركت بلاد أوروبية أخرى في تجارة العبيد مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا، وكانت مواسمهم [illegible] الأفارقة من الشخصيات المشترية. وفي عام ١٦٦٥م قاد جيش مملكة الكونغو معركة حاسمة مع البرتغاليين، [illegible] وظل المستعمرون الأوروبيون على هذه الأرض مع أواخر القرن التاسع عشر(1).

* * *

أرض الموت

كانت تجارة العبيد عبر الأطلنطي [illegible] الأوروبيين كانوا قد أتوا من أرض الموت لأنهم [illegible] يحملون من كبارهم من [illegible] إلى [illegible] لا يعودون أبدا، وكما أن الأوروبيين كانوا [illegible] أكلة لحوم البشر كان الأفارقة يتصورون الأوروبيين [illegible] لحوم البشر، وكان البعض يعتقد أن البيض يحولون أسراهم ويحولون [illegible] جماجمهم إلى [illegible] ودهونهم إلى [illegible] الأوروبيون، ولكن الأفارقة كانوا يعتقدون [illegible] الأحذية [illegible] الكحول [illegible] بعض الكونغوليين [illegible]

(1) المرجع السابق. King Leopold's Ghost, P 15.

[illegible] أهلهم، وبعضهم [illegible] من [illegible] كثير من العبيد كانوا [illegible] أكل [illegible] لدى [illegible]
[illegible] معتقدين أن هذا [illegible] من لحوم الأفارقة [illegible] من قبل [illegible] في
وقت سابق.

[illegible] المقاصد الأسطورية التي [illegible]
[illegible]
[illegible] الملابس [illegible] كان الأفريقيون يعتقدون
[illegible] وغيرها لا شيء من [illegible]، ولكنها شيء من الوجود [illegible] في المحيط،
[illegible] يحتاج إلى الملابس [illegible]
[illegible] يسحبون الملابس [illegible] وأن أرواح [illegible] هي [illegible]
[illegible] وهو [illegible] أجساد الموتى [illegible]

وهذه الأسطورة [illegible] كانوا يذهبون إلى
[illegible] كانوا يعملون حتى [illegible] الذي يظهر بعد ذلك [illegible] لا يستطيع
وتصنع منه الملابس[1].

* * *

جرائم البلجيك

كانت [illegible] عشيرة [illegible] في سنة ١٨٩٥ [illegible] الكونغو [illegible]، وقد
[illegible] شرد [illegible] وسط [illegible] قبيلة شديدة
[illegible]
وأعملوا النهب والحرق في أكثر من اثنتي عشرة قرية، وأدى هذا لتكاثر اللاجئين الذين
[illegible] المأوى لدى بعثة شرد

وفي سنة ١٨٩٩م [illegible] في رحلة [illegible] الغراء،
[illegible] وحشية [illegible] الأجساد
[illegible] من الأشباح
[illegible] الأحساب [illegible]

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 16.

[illegible]

[illegible]

الأيدي والأنوف والآذان».

[illegible] تتلقى الرسالة.

[illegible]

[illegible]

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 216-217

[illegible] Emile Vander Velde [illegible]

[illegible]

[illegible] الأيدي المقطوعة [illegible]

[illegible]

[illegible] ويغتصبون الأمهات والأخوات».

[illegible] ١٨٩٤م [illegible]

[illegible] شخص على قيد الحياة من جنودي[2].

* * *

سخرة

[illegible]

[1] المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 164 - 165

[2] المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 166

أن خط كان طوله يبلغ ٢٤١ ميلا فقط وهو أكثر قليلا من نصف خط السكة الحديد الأمريكية، فإن ظروف العمل والمرض جعلته أكثر المشروعات ترويعًا في تاريخ إنشاء مشروعات السكك الحديدية. فقد استغرق بناء الأربعة عشر ميلاً الأولى منه ثلاث سنوات؛ لأن الأرض كانت صخرية كما تطلب الطريق ٩٩ جسرا والمسار يبلغ طوله الإجمالي نحو عشرين ميلاً(١).

كان العمال المجلوبون والأفريقيون الذين هم ذاهبون للعمل في رقبة كل منهم طوق عليه اسمه ورقم سيده الذي يذهب للعمل عنده ويكتب، ويرسل العمال كالقطيع إلى محطة السكك الحديدية، حسب الحمولة، وفي المحطة يحشرون في قطار المحطة بعدما [illegible] بالرقم ويحملون [illegible] الإسلامية وهذا [illegible] أسيادهم الأساميه، [illegible] على [illegible] ما يزيد على الثلاثين ميلا ليصلوا إلى أسيادهم البيض(٢).

لقد كان خط السكة الحديد [illegible]، [illegible] كان [illegible] العمال، لقد عانى الرجال من [illegible] ومن مرض الدوسنتاريا والجدري والبري بري والملاريا، وكتب أحد الشهود [illegible] الذي كان [illegible] السكة الحديد ويبلغ عددهم ٣٠٠ جندي كانت الآلات تجري على القضبان وشاحنات [illegible] في [illegible] العمال السود والبيض، حيث لم يكن هناك [illegible] كان يعمل وهو [illegible] كان المهندسون والملاحظون الأوربيون يتمون عقودهم ويعودون إلى بلادهم، ولكن العمال السود [illegible] وكثير منهم كانوا في الصباح يرمون جثث من ماتوا في [illegible] في الليل [illegible] بالنسبة لخط السكة الحديد فإن [illegible] كل قضيب من السكة الحديد كان يكلف [illegible] واحد [illegible]، ولكل [illegible] من السكة الحديد كان يكلف [illegible]، وحتى [illegible] الإحصاءات الرسمية [illegible] أن السكة [illegible] كلفت حياة ١٣٢ من البيض و١٨٠٠ من الإفريقيين، وبعض التقديرات قدرت المتوفين من غير

---

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost. P 120

(٢) العبودية الحديثة د. محمد عبد الغني سعودي ص ٩٩ - ١٠٢

[illegible] نحو ١٨٠٠ في لغة واحدة من سكان الأدغال وهي كانت [illegible]
[illegible] جديدة، وكانت [illegible] على طول الطريق[1]

[illegible] من كتب لدولة وطنهم في مشاريعهم مثل الشركة [illegible]
من الاحتجاج في الكونغو [illegible]
[illegible] مثل [illegible] التي [illegible] من الأخبار [illegible]
[illegible] وهي البلاد التي كان [illegible] في كتب بعضهم وذهب [illegible] إلى
[illegible] متخصصين بدعوة [illegible] الأمريكيين
[illegible] والخطيئة.

[illegible] طويل [illegible] صعوبات كثيرة
[illegible] الذين يبحثون عن [illegible]
[illegible] يبحثون في [illegible]
[illegible] الأمريكيين كانوا
[illegible]
[illegible] وقد [illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible][2].

* * *

(1) المرجع السابق King Leopold's Ghost. P 171
(2) المرجع السابق King Leopold's Ghost. P 172

فقدان البشر

[illegible] في الكونغو [illegible] إلا أنه يمكن مثلا [illegible] الاستعمار [illegible] الأوروبي [illegible] وفي [illegible] الأمراض [illegible] الكونغو [illegible] الأسباب الأربعة الآتية:

أولاً: [illegible] في الكونغو [illegible] في سنة ١٨٩٦م [illegible] ١٣٠٨ من [illegible] مفقودة في [illegible] وقد ذكرت الصحيفة [illegible] المحكومة [illegible] ومنه تقارير مشابهة عن [illegible] فيه أرقام أكثر كثيراً.

وفي سنة ١٨٩٩م [illegible] وأنه خلال ستة أشهر [illegible] ستة آلاف [illegible]

وأن [illegible] Bin [illegible] على مصير ١٣٠٠ من [illegible] في صحيفة [illegible] سنة ١٩٠٠م. [illegible] أخرى كثيرة في [illegible] على سطح البحيرة [illegible] وفي مكان آخر [illegible] على شاطئ البحيرة [illegible] ١٦٠ من الأيدي [illegible] في [illegible]

ثانيًا: الجوع والأهالي: انتشرت أخبار الإرهاب ووقع مئات الآلاف من البشر بين قتلى وجرحى، وفي الميادين كان الجنود كثيرًا ما يأخذون النساء من هؤلاء ويحرقون بيوتهم ويحبسونهم ويتركونهم بغير طعام. وهذا نوع من التعذيب كان موجودًا منذ ما قبل مرحلة المطاط عندما كان جنود ليوبولد يبحثون في الأساس عن العاج من الأهالي أنفسهم، وقد وصف أحد الضباط السويديين حملة من هذا النوع جرت في سنة ١٨٩٥م في الكونغو فيها عندما اقتربوا من القرية فر الأهالي وأخذوا على غرة فحملوا ما استطاعوا من حاجياتهم وفروا بعيدًا، وقال إنه قبل أن يغادر المكان كانت القرية قد نهبت، وشمل ذلك عددًا كبيرًا من الماعز والدجاج والعنزات، وبعدها تركوا القرية وذهبوا إلى مكان مريح يستظلون فيه.

وقد بلغ الأمر مداه في هروب الأهالي من هذه الغارات أن القرويين كانوا أحيانًا من شدة الخوف يتركون أطفالهم ونساءهم فلا يعرف أحد مكان أحبائهم، وقد مات بعض الأطفال جوعًا من هذا الصنيع. وإن نسبة صغيرة من الأهالي كانت محظوظة لأنهم كانوا يعيشون عند حدود الكونغو فهربوا من البلاد. وقدر أحد الحكام الاستعماريين البريطانيين أن من فروا إلى الأراضي الفرنسية (الكونغو برازافيل) نحو ٣٠ ألفًا من الأهالي، وبعض فروا إلى المستعمرات الإنجليزية قرب حدود روديسيا الشمالية (زامبيا)، وكثير من الأهالي توغلوا في الأدغال وقطعوا مسافات تبلغ ٥٠ ميلًا، وقدر البعض أعدادهم بنحو ٤٠ ألفًا على الأقل. وقد ذكر أحد الرحالة الإنجليز يسمى إيورت [illegible] أنه في مسيرته في غرب [illegible] عندما رأى أن نحو ثلاثة آلاف ميل مربع خالية من السكان ومدمرة، كل قرية فيها خربت وكلها كانت هياكل متساقطة.

- الجوع: ظهر المرض بين من لم يستطيعوا الهرب إلى الغابات، لأنهم إذا كانوا قرب مناطق المطاط فقد كان عليهم أن يسلموا الجنود اللحوم والأسماك والمؤن، وفي قرية تقع على ... كان هناك نحو ١٠٠ أسرة يجب عليها أن تسلم ١٥ كيلو من الحيوانات و خمسة خنازير وخمسين من الدواجن.

- آلاف من الأهالي منهم النساء والأطفال ... ماتوا ... في معسكرات التجميع القذرة وهم مقيدون بالسلاسل.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الذي عانت منه الأسر فتوقفوا عن الإنجاب[1].

---

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost P. 225

[illegible]

* * *

(١) مرجع السابق King Leopold's Ghost P. 294



الفصل الثالث

وسط إفريقيا «السودان الكبير»

التعريف بالسودان الكبير:

السودان الغربى والأوسط والشرقى

أولاً : ـ السودان الغربى والأوسط

ـ قرن الصحوة والحروب

ثانيا : ـ السودان الشرقى: سودان وادى النيل

ـ الممالك القديمة

ـ السودان الموحد

ـ رقيق الثورة المهدية

ـ رقيق الحكم الثنائى

ـ الأوضاع تختلف

وسط إفريقيا «السودان الكبير»

التعريف بالسودان الكبير

يُعرف وسط إفريقيا بالسودان الكبير أي السودان الغربي والأوسط والشرقي، وهو المنطقة الفسيحة الممتدة من المحيط الأطلسي في الغرب حتى السودان ووادي النيل في الشرق، ومن مناطق الصحراء وشبه الصحراوية في الشمال إلى نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب.

وصفه المؤرخ العربي علي بن الحسين المسعودي في كتابه "مروج الذهب" السودان بلاد كثيرة وأرض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البربر وشرقها إلى النوبة وغربها البحر المحيط (يقصد المحيط الأطلسي) والمصطلح السودان مأخوذ من لون بشرة سكان المنطقة يماثلها كلمة أثيوبيا التي تعني الوجه المحروق.

وحدده الرحالة عمر التونسي بشكل أدق فقسم السودان من المشرق إلى المغرب عشر ممالك: مملكة سنار ثم كردفان، ودارفور، ووداي، وباجرمي، وبرنو، وأوقر، ومنه، وسكتو، ومالي، وهي العاشرة، ومن يأتي من المغرب تكون مملكة مالي هي الأولى.

وعرفه الجغرافيون العرب في العصور الوسطى باسم السودان مطلقاً، وقد أضيف وادي النيل إلى هذه المنطقة الفسيحة، ويمتد نطاق السودان بمفهومه الجغرافي من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً. وهي تشمل ثلاث مناطق أخرى الغربي والأوسط والشرقي وهو محور هذا الفصل.

أولا: السودان الغربي والأوسط

• **السودان الغربي:** قامت في السودان الغربي ممالك ثلاث هي مملكة غانة القديمة ومملكة مالي ومملكة السنغاي. وهذه الممالك لم تكن مجرد دويلات ومشيخات صغيرة بل كانت من القرن الثالث أو الرابع الميلادي وسقطت واحدة تلو الأخرى بعد دخول الإسلام، واستمرت حتى القرن التاسع عشر حين ضربها الاستعمار الأوروبي.

(أ) أولى هذه الممالك مملكة غانة (وهي ليست غانة الحالية التي تقع في أقصى الجنوب الغربي)، ثم هي المملكة القديمة التي تقع بين منحنى نهر النيجر ونهر السنغال وتمتد حدودها حتى جنوب موريتانيا الحالية، وكانت متسعة الحدود والسلطان وتضم بين طياتها مناطق السودان الغربي. نشأت في الفترة ما بين القرن الثالث والرابع الميلادي، واستمرت حتى منتصف القرن الحادي عشر عندما غزاها المراكشيون.

اشتهرت غانة على أنها المصدر الرئيسي في التجارة لتجارة الذهب حتى صارت تعرف بأرض الذهب، وأصبح ملوكها من أغنى ملوك الأرض، وكانوا يتحكمون في طرق التجارة، فموقعها جعلها حلقة اتصال بين شمال القارة وغربها، ومع رواج التجارة في الصحراء أصبحت عاصمتها كومبي صالح أكبر سوق في بلاد السودان وتسرب إليها الإسلام من شمالها.

في بداية القرن الثامن الميلادي امتدت الفتوحات الإسلامية عبر قبائل شمال الصحراء، وفي نهايته كانت قبائل البربر الإسلامية من شمال غرب الصحراء تتقدم لاحتكار مع قبائل السودان، وفي القرن الحادي عشر الميلادي في عام ١٠٦٢م عبر عدد من المقاتلين المسلمين من مراكش وقادوا حملة منظمة شرسة ولم ينجحوا في اختراقها إلا عام ١٠٧٢م حين احتلوا عاصمتها[1].

وقد وصف الجغرافي الإدريسي أكبر مؤرخي الجغرافيات في العصور الوسطى (عاش ١١٠٠-١١٦٥م) بأنها المدينة الكبرى في أرض السودان والأكثر كثافة في تجارتها، ومع ذلك لم تكن المملكة بحالة طيبة بعد غزوة حول العاصمة ولم تعد متماسكة

1 Islam's Black Slaves, Ronald Segal, Atlantic Books, London 2001, P.84

بعد الدمار الذي أحدثه المرابطون إلى حقول الذهب في البامبوك «Bambuk» التي تقع بين نهر السنغال ونهر الفاليمي، ثم تحولت حرفتها من حرفة الاستغلال الحر المعروف، وكذلك مناجم «بيور ـ Bur» في أعالي نهر النيجر.

(ب) **سلطنة مالي الإسلامية**: تقع بين بلاد برنو في الشرق والمحيط الأطلسي غربًا، وبين الصحراء شمالًا والغابات جنوبًا، وقامت على أنقاض دولة غانة، وتعد هذه السلطنة من أعظم ممالك السودان الإسلامية في العصور الوسطى حيث تزيد على مساحة أوروبا كلها، واشتملت على خمسة أقسام في درجة قريبة من ذلك، وهذه الأقسام هي مالي في الوسط وهي أهم الأقسام وعاصمتها تقع إلى الجنوب من مالي وغانة وتقع شمال مالي وتمتد إلى المحيط الأطلسي، وكوكو تقع شرق إقليم مالي وتكرور تقع غرب مالي حول نهر السنغال[1].

حكمت سلطنة مالي في القرن الثالث عشر الميلادي مكونة أكبر صورة قوية كأعظم دولة حكمت في السودان الغربي. وما انحدر من شعب قريب يتحمون نسبه بكثرة، [illegible] في عهد الملك منسى موسى وتكلم عن حركة نشاط التجار والرحلة الآمنة والمستمرة في هذه البلاد ومن ازدهار الزراعة والتجارة وعن انتشار الثقافة في البلاد. ويعد منسى موسى من أعظم ملوك مالي، وقد زار القاهرة مرة وهو في طريقه إلى الحج وأنفق فيها ذهبًا كثيرًا أدى إلى هبوط قيمة الذهب وقتها، وذاعت شهرته في بلاد المسلمين بل وفي العالم المسيحي. وفي نهاية القرن الخامس عشر أخذت مالي في الأفول وسقطت على يد ملوك صنغي.

(جـ) **سلطنة الصنغي**: بدأت دويلة صغيرة على الضفة اليسرى لنهر النيجر، ثم توسعت وشملت أقاليم مالي وامتدت حتى السودان الأوسط إلى بلاد الهوسا (الحوصة) وشملت الأقاليم الممتدة من الغرب إلى الشرق، وسيطرت على مناجم الذهب والملح [illegible] في غابات إفريقية، وحاربت [illegible] ووصلت شمالًا إلى مراكش وإلى نهر [illegible] على شاطئ الأطلسي، وفي الشرق إلى ما بعد بحيرة تشاد.

• **السودان الأوسط**: يشمل ثلاث سلطنات إسلامية هي سلطنة كانم وبرنو، وسلطنة الهوسا أو الحوصة شمال نيجيريا، وسلطنة الفلاتة في حوض بحيرة تشاد.

---

(1) موسوعة [illegible] معهد البحوث والدراسات الإسلامية ١٩٩٧م، ص ٧٤

١- سلطنة كانم وبرنو: قامت في بلاد السودان الأوسط وتكونت من حوض بحيرة تشاد وتمتد جنوباً من ... من نهر النيجر غرباً إلى دارفور شرقاً، وكانت مركز الإشعاع الإسلامي ... الذي جمع ... ، قامت في القرن التاسع الميلادي في إقليم كانم وسيطرت على حوض بحيرة تشاد، وعاصمتها ... ، وأصبحت تعرف باسم سلطنة كانم وبرنو، واتسعت في القرن السادس عشر الميلادي حتى وصلت إلى مشارف وادي النيل شرقاً ونهر النيجر غرباً، كما ضمت بلاد الهوسا التي تشكل شمال نيجيريا التي كانت تابعة لها(١).

٢- سلطنة الهوسا (الإمارات الإسلامية في شمال نيجيريا): هي سبع إمارات كانو وزاريا وكاتسينا وجوبير ... كانت تسمى بلاد الهوسا وتضم شمال نيجيريا وجزءاً من جمهورية النيجر، وكانت حدودها في العصور الوسطى منطقة محصورة بين سلطنتي مالي وصنغي غرباً وبرنو شرقاً والصحراء الكبرى شمالاً وجنوب نيجيريا في الجنوب.

٣- سلطنة باقرمي الإسلامية: قامت في حوض بحيرة تشاد وظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي وظلت تابعة لسلطنة كانم وبرنو طوال فترات قيامها حتى بداية القرن العشرين حين سقطت في قبضة الاستعمار الفرنسي.

• **السودان الشرقي** هو سودان وادي النيل، يشمل سلطنة الفونج في سنار، وسلطنة الفور في دارفور، في قلب حوض النيل، وفي بدايات القرن التاسع عشر توحدت هذه السلطنات وأصبحت معها جزءاً ... من جنوب السودان.

١- سلطنة الفونج: تقع في سنار على الضفة الشرقية للنيل وقامت على أنقاض مملكة النوبة المسيحية: مملكة دنقلة ومملكة علوة من الشلال الثالث إلى النيل الأزرق.

٢- أما سلطنة دارفور: فهي تقع على هضبة تنتشر فيها المراعي وتحيط بها مرتفعات جبل مرة، واتسعت المملكة وامتدت إلى كردفان جنوباً، ومملكة وداي شمالاً.

(١) الموسوعة الإفريقية، المرجع السابق، ص٢٠١

ووصل السودان [illegible] حتى دخله الإسلام في القرن السابع ثم تم استقراره إلى أن فتحه محمد علي في القرن التاسع عشر، ثم صار السودان مدخلاً [illegible] ودارفور وكردفان والأصقاع التي [illegible] بحر الغزال [illegible].

***

[illegible] إفريقيا [illegible] السودان [illegible] من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر؛ لأن هذه المنطقة [illegible] هي التي كانت مسرحاً للتجارة [illegible] وموارد الرقيق الأسود.

وتاريخ هذه المنطقة من روايات [illegible] الجغرافيين العرب، كانت تمثل رابطة حضارية بين شمال إفريقية وجنوبها، [illegible] من فاس [illegible] وتعود [illegible] والرقيق عن ثلاثة طرق:

أولها: من مراكش حتى منحنى النيجر.

ثانيها: من تونس حتى بحيرة تشاد ونهر النيجر.

وثالثها: من طرابلس الغرب ومصر إلى تشاد.

في بداية القرن التاسع عشر الميلادي [illegible] الإسلامية في إفريقيا نحو جنوب [illegible] الصحراء، [illegible] شعوب [illegible] إفريقيا السوداء، وتقدم الإسلام في هذه المناطق بشكل سريع وتحولت [illegible] الوثنية [illegible] الإسلام، ولم يكن هذا التقدم بتوسع الإسلام في إفريقيا السوداء يعود إلى عنصر [illegible] من الشمال، فقد كان حكام [illegible] في منطقة [illegible] الإسلام؛ لأنه [illegible] في معاملاتهم مع [illegible] وكانت تجارتهم [illegible] في هذه المعاملات [illegible] المسلمين، وكانت [illegible] مؤثرين في انتشار الإسلام [illegible] الكثير من الشيوخ المسلمين، وكان لهؤلاء [illegible] شخصية [illegible] تجارتهم وبالتعامل معهم دون أي إيذاء.

وأكثر من ذلك أنه قد يكون فوق ذلك كله فإن الإسلام كان عاملاً ذا بعد محجوب عن الشكل الأساسي للحكم الموسعي. فقد كان حكم المسلمين يعتمد على ولاء من المسلمين بمعاصرة العربي والأصول المشتركة، وكلما اتسعت حدود الإمبراطورية كانت هذه الولاءات تتسع وتنتشر، وذلك بتعيين أعضاء من الأسرة المالكة كحكام مع مدهم بقوات من الجنود كان يؤدي إلى أن يصبح هؤلاء الحكام يستقلون والخروج بالتمرد وتشجيع القوى المعارضة، ولذلك فإن الملوك والأمراء بدلاً من ذلك عينوا حكاماً قبليين من بين عبيدهم الذين يعرفون بالولاء والمؤهلات اللازمة، وكذلك بالسمات الشخصية المطلوبة بعيداً عن النسب والقرابة، وكانت مثل هذه المؤهلات والولاءات توجد بين هؤلاء العبيد الذين كانوا أكثر العبيد تعلماً في مدارس المسلمين في هذه المناطق التي كانت تحت السيطرة من كل قطر الإسلام(1)

كان الرقيق والعبيد يشحنون مباشرة من الإمبراطوريات السودانية المتعاقبة في غرب إفريقيا إلى مراكش، ولم يكن ذلك هو الطريق الوحيد، ففي القرن التاسع عشر كان هناك طرق من ثلاثة التي حولها يتجه عبر الصحراء إلى مصر، وقد قلت أهمية هذا الطريق التدريجي في حين ظهر طريق آخر من دارفور إلى صعيد مصر في القرن الرابع عشر، ثم في القرن السادس عشر طريق ثالث من ... إلى القاهرة.

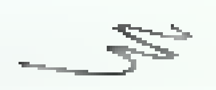
كانت الصحراء الكبرى في المغرب العربي في القرن العاشر تمر بها قوافل العبيد الآتين من مختلف أنحاء إفريقيا وكان هؤلاء الذين يجلبون من وسط السودان عبر ولاتة إلى طريق سجلماسة كانوا أكثر سواداً وأحسن من غيرهم.

ومن المحتمل أن مملكة وسط السودان في كانم التي ظهرت في القرن التاسع أو العاشر ظهرت كمستحدثة لتجارة الرقيق، وفي القرن الحادي عشر قبل داعية إسلامي هو (محمد هاني) حين ملك كانم إلى الإسلام، وهذا الملك منحه تعبيراً عن الامتنان نحو ١٠٠ من العبيد و١٠٠ من الإبل و١٠٠ من العملات الذهبية.

وحتى الحكام المنتمون إلى الإسلام، وكان المسلمون ذوي وضع مميز في المملكة، وفي نهايات القرن الثالث عشر أصبحت كانم قوة وبالمحتمل أن كان ذلك يشمل طرق

---

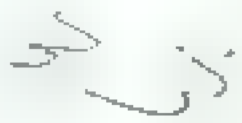
(١) المرجع السابق Islams Black Slaves. P 92



[illegible] عبر الصحراء. وفي منتصف القرن الرابع عشر خضعت المملكة لضغط شديد من
[illegible] من العرب والطوارق [illegible] من كانم [illegible] عبر أرضهم [illegible]
إلى [illegible] الجنوب [illegible] إلى برنو جنوب غرب كانم وأنشأوا
بها دولة جديدة (مملكة برنو) التي توسعت وامتدت حتى القرن التاسع عشر

وعدد من [illegible] السودان [illegible] السودان لاستخدامهم في الخدمة
العسكرية في شمال إفريقيا، كما كانت التجارة تستخدمهم في خدمة الحريم وخدمة
الحكومة وذلك [illegible] الجواري منهن [illegible] عبر الصحراء في
منتصف القرن الرابع عشر [illegible] في قافلة بها نحو ٦٠٠ من الجواري وكانت [illegible]
[illegible] والخيول الحربية [illegible] الرقيق الذين كانوا يقومون
[illegible] كثيرة، وبعض هؤلاء كان [illegible] من [illegible] تهدى

كان الرقيق مصدرًا ليس فقط للخدمة عبر الصحراء، ولكنهم كانوا مصدرًا [illegible]
[illegible] حكام السودان [illegible] امتلاك الحكام السودانيين الرقيق كان مظهرًا
من مظاهر الجاه والثروة وكانوا [illegible] لدى مالكيهم سواء في الأعمال [illegible]
[illegible] الأعمال [illegible] إلى [illegible] خاصة. وأكثر من ذلك فإنه
[illegible] نقصًا شديدًا في عدد السكان في بلدان إفريقية بسبب الجفاف
والمجاعات والأوبئة والحروب، فكان لا بد من تعويض هذا النقص في العمالة بشراء
الرقيق من داخل إفريقيا.



وضع الرقيق في السودان الأوسط والغربي

[illegible] الرقيق [illegible] عرب إفريقيا [illegible]
[illegible] حرب [illegible] الصحراء، [illegible]
[illegible] من [illegible] وفي [illegible]
[illegible] القبائل استرقاق بعضها بعضًا، [illegible]
[illegible] ثم تعدى
الاسترقاق والاختطاف [illegible] التجارة الخارجية عبر طرق [illegible] الصحراوية
القديمة نحو شمال إفريقيا والبحر الأبيض.

وبعد هذا الوضع تمتعت بالاستقرار الداخلي كما ساهم في ثبات الحكم وهذا كله أدى إلى ازدهار الإنتاج والنشاط الداخلي والخارجي وتوسع الزراعة والمراعي والثروة الحيوانية وتطور الحرف المهنية والخدمات، واستقر بعد ذلك الأرقاء، واستقر بعضهم إلى وضع لم يكن بعد حق يسمح له بأن يختص به ذلك قطعة أرض يعمل فيها بعد أن يؤدي ما عليه من عمل في أرض المالك ومن حاصلاتها مخصوصة، ويسمح له أيضا لو سعه أن يمتلك مأوى وماشية ومنتجات ويتحول لملك بعد وفاته، وكان بإمكان بعض الرقيق مع العتق مستقلاً برأسه ويظهر اسمه في حمى ملكه في ممالك حول بيت أسرة المالك (١)

كانت تجارة الرقيق أكثر أهمية حتى من تجارة الذهب، فهذه التجارة كانت توفر الحمولة المجلوبة من [illegible] حتى الركب، والحراس والحريم والخدمات في المنازل والخضبات الحربية الأخرى، والرقيق المعدين لزراعة الأرض، وكانت قوافل الرقيق المجلوبة تذهب إلى الشمال وإلى المشرق، لذلك فإن تجارة الرقيق كان عليها مردود كبير من الأرباح على الممالك

وكانت هذه التجارة تعني أن الحروب المستمرة تحولت إلى حملات منتظمة في مناطق الوثنيين لأسرهم، وقد تعددت هذه الحروب وكانت التجارة في الرقيق تعني شيئاً نفسه، وترتب على ذلك أن الحروب في بلاد السودان كانت أسبابها غارات من أجل الرقيق [illegible] كانت تعني الرقيق أكثر مما تعني الذهب، والرقيق أصبح هو السلعة الثانية، كما كان الرقيق أفضل وسيلة لسداد التجارة الخارجية، ويذكر أبو الفرج (٢) [illegible]

(١) [illegible] ص ٢٠١

(٢) [illegible] سنة ٤٨٨ [illegible]

[illegible] خبرة الرحالة والكتاب العرب [illegible] الدكتور كمال محمد [illegible] / جامعة إفريقيا العالمية مركز البحوث والدراسات الإفريقية إصدار رقم ٤٣/ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م]

... الشرقي لأصحاب التي يحتاج إليها من التجار، ثم يخرج في حملة لأسر الرقيق [illegible] الحصول على عدد كاف دفعة للتجار ثمناً للبضائع التي اشتراها وإذا لم [illegible] فعليهم الانتظار حتى الحملة القادمة (1).

[illegible] ذي الأهمية [illegible] أي إهمال الزراعة، فقد اشتغل [illegible] [illegible] وسطيها بالزراعة [illegible] كثيرة لم تستخدم [illegible] [illegible] لا يرجع ذلك إلى عجز [illegible] عن معرفة الزراعة [illegible] إفريقيا [illegible] مزارع [illegible] كما لا يمكن القول [illegible] الزراعة لم تتطور بسبب [illegible] [illegible] [illegible] وهي ليست [illegible] وإنما [illegible] الرقيق كان الحصول عليهم [illegible] من الزراعة، ولم يكن ممكناً أن تتطور الزراعة [illegible] [illegible] الزراعة [illegible] [illegible] على [illegible] متصل بالأرض [illegible] [illegible] [illegible] عرب إفريقيا ووسطها بسبب تجارة الرقيق، فلم تكن [illegible] فقط حرفة مهمة وكانت [illegible] اعتماداً على تجارة الرقيق

[illegible] بلاد السودان تقوم [illegible] من أجل أسر الرقيق وبيعهم للتجار [illegible] [illegible] وقد عرفت بلاد السودان [illegible] القاهرة [illegible] سوق الرقيق، وكان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من الرقيق، وهذا الطريق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] تجارة الرقيق من تأثير [illegible] [illegible] حياة السودان الاقتصادية (2).

[illegible] مملكة [illegible] في [illegible] السادس عشر [illegible] [illegible] كانت فرقة محترمة [illegible] [illegible] [illegible] من الرقيق، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] القرن الثامن عشر ازدادت أهمية الرقيق [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الرقيق [illegible] [illegible] [illegible] سيطر الرقيق على

(1) [illegible] الإسلام [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ترجمة [illegible]
[illegible] [illegible] 1995م، ص 393
(2) [illegible] الإسلام [illegible] المرجع السابق، ص [illegible]
(3) [illegible] الإسلام [illegible] المرجع السابق، ص 402

الإدارة وحتى حد الأرقاء مثل الأمير. وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان الرقيق قد أصبحوا [illegible] كطبقة إدارية، ارتبط وجودهم بدعم سلطة الملكية. وقد عهد لهم بالأمور العسكرية و[illegible] الأسلحة النارية [illegible]. [illegible] مجموعة في الدولة وهم على [illegible] الحكم [illegible] حركة [illegible] في البلاد، لأن [illegible] الإدارة الحربية [illegible] من [illegible] الرقيق في الإدارة وتحولت كل من [illegible] السلطان [illegible] بالإدارة والجيش شخصيات [illegible] ولاء [illegible] الرقيق [illegible] الملكية، وقد أدى [illegible] أصبح [illegible] الرقيق [illegible] في رفع [illegible] في الأمور الحربية.

وفي [illegible] كان للرقيق أهمية في مستويات أدنى من الإدارة، وقد شغل أحدهم منصب [illegible] الخاص للأمير [illegible] ثم [illegible] للناس. كما كان للرقيق أهمية في مجالات أخرى فهم مسئولون عن [illegible] الملكي و[illegible] ويشكلون حرس الملك [illegible] أكثر من الجنود، و[illegible] كانوا ينوبون [illegible] من [illegible]، وقد زادت سيطرة هؤلاء الرقيق بالتدريج حتى [illegible] قبضتهم على الإدارة، وهم [illegible] في أيديهم [illegible] ثروات كبيرة أيضا.

لم يكن الرقيق فئة واحدة بل كانوا ينقسمون إلى أربع درجات، في قمة الرقيق بيت الأمير [illegible] ويسمون [illegible] وهؤلاء [illegible] سيدهم ويستطيعون أن [illegible] في [illegible]، [illegible] رقيق [illegible] الذين يتمتعون ببعض الحقوق ولا يمكن بيعهم، و[illegible] الثالثة الرقيق الذين يحترفون مهن، [illegible] الرقيق الذين يفلحون الأرض أو يعملون في [illegible] وكانت مجموعة [illegible] الذين يعرفون [illegible] الملكي [illegible]، فهم فرقة [illegible] يتمتعون [illegible] عن غيرهم من الرقيق، وبعد هذه مجموعة هي التي يختار منها الموظفون والقادة الحربيون.

---

(١) النوبة والإسلام – المرجع السابق ص ٤٤٤

[illegible] عبور [illegible] الصحراء ظهرت جماعة جماعية في الاستقرار [illegible] لكي [illegible] في سلطة سياسية في [illegible] بوسع [illegible] خارجية أدى إلى عسكرة الدولة في غرب إفريقيا ووسطها خلال [illegible] عبر الصحراء، وقد تجلى هذا التعبير في صورة الجيوش [illegible] أشكال [illegible]، وكان [illegible] الجيوش الأرقاء [illegible] حققت [illegible] في الحصول على [illegible] في [illegible] فترة [illegible] الفتوحات [illegible] الأفراد [illegible] الخيول [illegible] [illegible]، وقد [illegible] تمكن [illegible] من [illegible] الرقيق في إمبراطورية مالي من الاستيلاء على السلطة من خلال [illegible] عسكري، حدث ساكورا وهو [illegible] ساموري [illegible] الجيش الأرقاء [illegible] [illegible] [illegible] إلى [illegible] ملك [illegible] القرن السادس عشر [illegible] [illegible] موسى [illegible]

* * *

نخلص مما سبق إلى الآتي:

* [illegible] الرقيق كان موجوداً في إفريقيا الغربية قبل [illegible] عبر [illegible] [illegible] عن طريق [illegible] [illegible] [illegible] الرقيق في [illegible] [illegible] الأحرار [illegible] [illegible]

[illegible] ص٤٨

ولسبب عدة شديدة كانوا في أمس الحاجة إلى الرقيق ، يحصلون عليه من البشر ،
الأسر . والرقيق كانوا أعدادًا هائلة ومنهم المخصصون للعمل في المنازل والعسكر،
والخدمة ، وهؤلاء كانوا أيضًا يمتلكون رقيقًا خاصًا بهم . والآخرون كانوا يوجدون في
وظائف تحتاج إلى مهارة ، مثل الصناعات الحرفية ، غير أن الغالبية كانت تؤدي عددًا
عملًا يدويًا مرهقًا ، كما كانوا يستخدمون خدمًا في المنازل ويعملون كحمالين
ويستخرجون الذهب ، ويقطعون الملح الصخري من الصحراء ، ويوجدون في جميع أنواع
العمل الزراعي ، ولم يكن الرقيق الذين يستخدمون ، كما هو الحال في أجزاء العالم
الأخرى في مجال العمل المستمر ، بل بقدر ما يؤدون عددًا من الأنشطة المختلفة ،
والمنتسبون إلى عدد من [illegible] المختلفة بينهم من الأتباع والحشم .

* كان الرقيق في المغرب العربي يؤدون وظيفة سياسية مهمة ، فالأفارقة كانوا
يشكلون الشرطة والسلطة والرجال الكبار المسئولين الأقدمين ، كما كانوا [illegible] يمارسون
السلطة [illegible] حتى أكثر من كونهم ملاك أراضٍ . ولكن هذا الخط لاستخدام الرقيق
في المناصب الحكومية كانت مغلقة أمام الأولاد ، وكذا في القرن الحادي عشر كان
الحكام يمتلكون أكثر من ألف رقيق ، وفي القرون التالية كان يوجد أصحاب رقيق
يملكون أعدادًا أكبر .

* إن تجارة الرقيق كان يتم تصديرها من أفريقيا العربية إلى شمال أفريقيا بتجارة
عبر الصحراء في أواخر القرن الخامس عشر ، بل إن هذه التجارة عبر الصحراء سبقت
انتشار الإسلام في غرب أفريقيا ، وفي [illegible] كانت [illegible] عليها
موضوعًا لأن مصادر [illegible] الأخرى كانت معروفة . وقد أدى توسع قوة العرب إلى
حصول مزيد على الرقيق في شمال أفريقيا والشرق الأوسط لاستخدامهم كجنود
وعمال وخدم ، وكان معظم الرقيق يحصلون عن طريق الحرب والغارات [يقدر ما كان
يصدر من الرقيق شمالًا عبر الصحراء خلال القرون [illegible] عشر بآلاف سنويًا في مقابل ٧٠ ألف
يشحنون غربًا عبر المحيط الأطلسي] .

* من الآراء الشائعة أن التجارة كان يسيطر عليها تجار العرب ، وكان يطلق لفظ
العرب على كل المسلمين ، في حين أن كان للبربر والسود [illegible] الأفارقة أيضًا دور

(*) [illegible] الاقتصادي [illegible] ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، المجلس الأعلى
للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، ١٩٩٨ ، ص ٤٦

مصالح في التجارة، كما كان الأوروبيون موجودين في الساحل الشمالي وكان لهم مصالح خاصة في محطاتهم في الساحل الغربي، وكانت هناك طرق متخصصة في التجارة عبر الصحراء[1]

* إن الرقيق كانوا يشكلون نسبة ضخمة من الأيدي العاملة والقوة العسكرية في مناطق معينة.

* كان نقص الأيدي العاملة ينتج عن حروب الرق، وكان العنصر البشري في الإنتاج الأيدي العاملة ونسبة الأرض. وقد واجه المستوطنون الأوروبيون في الدول الغربية المرتبطة بالتجارة نقصاً في الأيدي العاملة فلجأوا إلى استخدام التجارة على رغم ادعائهم إلغاءها، وقد تفشت العقلية الاستعمارية على حال نهاية التجارة بإعلان أن الرق عمل غير متحضر وأن التجارة ضرورية لإرشاد الشعوب الأفريقية إلى الطرق الحضارية.

* مثلما أثرت التجارة عبر الصحراء في الحدث الأفريقي في التجارة الدولية في القرون الوسطى، فقد تطورت التجارة عبر الصحراء منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى علاقة [illegible] مع العالم الجديد وأوروبا، واشتملت دورة التجارة الدولية من الساحل الأفريقي إلى المحيط الأطلسي، وبعد ما حصلوا [illegible] من أفريقيا الغربية تشحن في [illegible] أربعة قرون. وفي البداية كان الهدف الأساسي للتجارة الأوروبية هو إحكام السيطرة على موارد الذهب، ثم أصبح الهدف هو الرقيق.

* إن تجارة الرق كان لها آثار على المجتمع الإفريقي، علاوة على الخسائر المباشرة [illegible] القسوة كانت هي المعاملة الشخصية التي كانت تلاقي [illegible] الأفريقيين [illegible] الشحن عبر المحيط الأطلسي، مثلما كانت من قبل [illegible] الذين تم [illegible] عبر الصحراء الكبرى، وهؤلاء الذين قتلوا أو ماتوا في عمليات جمع الرقيق.

وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما بدأ الاقتصاد [illegible] بسرعة كبيرة كان يوجد نقص خطير في الأيدي العاملة في أجزاء كثيرة من [illegible]، ولا شك أن [illegible] يمكن أن تكون [illegible] نقص عدد السكان.

---

(1) التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية – المرجع السابق ص ١٦٩

• القرن التاسع عشر:

قرن الصحوة والحروب فى السودان الغربى والاوسط

أدى توسع السودان الغربية و[illegible] الإسلام في القرن الثامن عشر إلى انتشار موجة من الصحوة الإسلامية، ظهرت في [illegible] الغربية حركة [illegible] ضد حكم العثماني، وفي [illegible] حركة [illegible] ضد [illegible]، وحدث الشيء نفسه أيضا في غرب السودان. ووسعت [illegible] سلسلة من الحروب المقدسة عبر [illegible] الأفريقية.

في خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر قام الشعب الفولاني [illegible] من الأقوام الأولى المسلمة التي استقرت في بلاد الهوسا وصاروا مسلمين، ظهر من بينهم الشيخ عثمان دان فوديو الذي قاد حركة التجديد الإسلامي في غرب أفريقيا، وهو قائد سياسي ديني قام بثورة ضد ملوك الهوسا لتصحيح إسلامهم الذي كان ممتزجا بالعقائد الوثنية.

في سنة ١٨١٠م صارت ثورة الجهاد منتشرة في بلاد الهوسا. ويرجع هذا النجاح الكبير إلى عناصر عدة منها قادة عسكريون هم شقيقه الأصغر عبد الله الذي تولى قيادة الجبهات الغربية، وابنه محمد بلو الذي كان قائد الجبهات الشرقية، وكان [illegible] وعلى معرفة جيدة بالعسكرية الإسلامية وبخاصة ابنه محمد بلو الذي [illegible] التي [illegible] تحت قيادته وبين زملائه [illegible] من الفولاني. وعلى كل حال فإن القدرات القيادية لم تكن لتحرز النجاح [illegible] التأييد الشعبي الذي حصلوا عليه [illegible] من الشعب لدعوة الجهاد التي واجهت الاستبداد والفساد وبخاصة ما يتعلق بموضوع العبودية.

ورغم أن كثيرا من المجاهدين كانوا أنفسهم ملاك عبيد، وأن القادة العسكريين حصلوا على حريتهم في القتال ومهاراتهم من خلال غارات العبيد، فإن حركة الجهاد كانت تقوم على أساس المبدأ الشرعي [illegible] المسلمين [illegible] على [illegible] الممارسة التي كان يصدق عليها حكام الهوسا، لأن الأعراف [illegible] ضد العبيد

... مهمة جدا لاقتصاديات الجيوش، متجهة إلى حد أنهم كانوا يحصلون على عدد
... هؤلاء الثائرون مسلمين أو غير مسلمين، وزاد من عدم الاستقرار في الأسواق ما
... المسلم وغير المسلم رغبة في الحصول على الأسلحة، وكانت الأسلحة تصل
... ، وكان الأعراب أيضا تجارا ويسهل حصول
على الخيل، وكان ما يحصلون عليه من العبيد يعطونه ثمنا لتجار الصحراء ويحصلون
منه على السلاح، ... لم يكن هذا حال المسلمين فقط، بل كل جماعة
منهم تتجه صوب تحقيق العدل الإسلامي، في حين أن غير المسلمين كانت تحدوهم
الطموح إلى التمتع بالأمن نفسه. فقد كانت حركة عثمان دان فوديو حركة جهاد
جمع الناس من حول تطبيق العدل الإسلامي الذي يجمع شعوب المسلمين وكان
... الإسلام حسب فهم الأشراف.

وفي سنة ١٨١٢م تأسست إمبراطورية الفولاني على نهج الحكم الإسلامي وعلى
الخلافة، وصار عثمان دان فوديو خليفة ولكن ابتعد هو عن الحكم من أجل التفرغ
للدين والوعظ والتأليف تاركا المسؤولية ... ، وانقسمت
الإمبراطورية إلى منطقتين غربية تحت حكم أخيه عبد الله الذي حكم السلطنة الغربية وابنه محمد بللو الذي حكم
السلطنة الشرقية. ومع وفاة الشيخ عثمان سنة ١٨١٧م خلفه محمد بللو كخليفة لكل
الدولة وشرع في دعم الإمبراطورية ولم يكن التوسع سهلا كما يمكن وصفه، فقد
حاولت جيوش الفولاني في جهة الشرق الوصول إلى بورنو لاند (أرض البورنو)، حيث
سيطروا على الأقاليم الشمالية من الإمبراطورية الغربية وبورنو وحصلوا وأسسوا إمارة
... وكانت هذه هي قاعدة نشر الإسلام في بورنو.

وما يحيط فإن جيوش الفولاني تحركوا شرقا وصاروا ... في حالة
حرب مع مملكة بورنو، وقد عرفت جيوش الفولاني الغربية بورنو فوجدوا حكومة
مستقرة في حكم بورنو هو محمد الأمين الكانمي وكان مسلما صادقا للإسلام ولكن
... بالإسلام المختلط أي الحكم الإسلامي الذي
يتحمل ... دون عقائد أخرى، ولا شك أن كان هذا هو ما ساهم في نجاحه وعلى أن
يرتقي بنظام دفاعي شعبي.

وفي الغرب في منطقة ماسينا التي تصل إلى أعالي النيجر ... كان الرعاة
من الفولاني مستقرون، وكان الرؤساء التقليديون ...

يعرف بالإسلام [illegible] بعد العقد الثاني من القرن التاسع عشر ظهر محمد أحمد وهو واحد من حواريي الدين [illegible] الشيخ عثمان دان فوديو وحارب في صفوف مجاهديه وبدأ يخوض جهاداً خاصاً به.

هذا الجهاد كان من جهة ضد الزعماء الفولاني الذين [illegible] وكان [illegible] [illegible] [illegible] على المنطقة، ونتج عن ذلك تأسيس [illegible] عاصمتها مدينة حمد الله [illegible] حكم محمد [illegible] ثم خليفته حتى عام ٨٦٢ . وفي ذلك العام ظهر جهاد جديد بقيادة عمر بن سعيد [illegible] الإقليم [illegible] لور [illegible] (Tukulor) وبقي حتى عام ١٨٩٣م حيث سقطت [illegible] الاستعمار الفرنسي

[illegible] صورة شبيهة [illegible] في تاريخ الإسلامي [illegible] [illegible] [illegible] كانت حملات الجهاد في الغرب التاسع عشر في غرب أفريقيا لم تكن [illegible] كان الحصول على العبيد هدفاً [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] في الحروب [illegible] والجماعة [illegible] في المزارع [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] أعمال [illegible]

وفي الإسلام كما في غيره استخدم العبيد في الجيش وفي [illegible] الحروب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في أعمال [illegible] [illegible] في القصور [illegible] [illegible] [illegible] في الإصطبلات و[illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] أن تؤدي إلى الموت

---

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. [illegible]

كان الأفراد من النخبة الحاكمة السودانية يملك أي واحد منهم ما بين ألفين وثلاثة آلاف من العبيد. وكانت أسواق العبيد شائعة في الأقاليم، وقد قدر أحد المكتشفين الأوربيين أن كل رجل حر في مدينة كانو كان يوجد مقابله نحو ثلاثين من العبيد، ولعل في هذا التقدير مبالغة إلا أنه يوضح أن العبيد كانوا هم المكون الأكبر في الشعب.

ومع تصاعد الطلب على العبيد في ممالك السودان وإماراته الإسلامية فإن الجماعات [illegible] والشعوب [illegible] وعلى حدود الدول التي أنشأها الجهاد كانت محلا للغارات التي لا ترحم، وحتى الكانمي [illegible] ١٨٠٨ الذي واجه الجهاد مستمدين من الإسلام [illegible] مقاومة الشعب وبحقوق مملكة بورنو، هذا الكانمي قام بالسبي والغارات لاسترقاق العبيد ضد شعب الباري «Bari» على أساس أنهم من الوثنيين وفي الحقيقة فإن في بورنو كغيرها في السلطنة كانت لم تشجع الحكام رعاياهم من المسلمين على التحول إلى الإسلام، لأن ذلك كان سيسبب صعوبات شرعية تعوق استرقاقهم وأكثر من ذلك فإن بعض المناطق الإسلامية مثل كانو فإن الحكام يعتبرون أنه مقاومة ضد [illegible] وإنما مقاومة ضد الإصلاحات كانوا يعتبرونها تمرد في نحو نوع من الردة يبيح لهم استرقاق هؤلاء المتمردين.

وقد قدر عدد العبيد الذين ينقلون سنويا عبر الصحراء خلال القرن التاسع عشر عبر الصحراء بسبعة آلاف فرد، وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر قبيل حركة التجارة عبر الصحراء من بلاد السودان وبورنو ما كانت تكون موجودة أصلا بغير تصدير العبيد، وفي أواخر الخمسينات من نفس القرن كانت تجارة العبيد تستوعب نحو ثلثي تجارة السوق في كانو والسودان كلها حتى نهاية القرن.

كان حجم الطلب مثل حجم التجار الذين يجلبون من العبيد [illegible] الحيوان التي تطلبها حكام السودان للأغراض [illegible] الحرب أو الخدمة، وكان [illegible] التجار الشماليون يفرضون العبيد فقط كمقابل للخيول، ومن ثم التجار الشماليون [illegible] أنفسهم أن يشتركوا مباشرة في الإغارات الخاصة بجلب العبيد، وقد كان [illegible] على البحث عن [illegible] زيادة مطردة في أوروبا [illegible] بأحد كبار

(١) ملحوظة: إن الأرقام التي ذكرها الرحالة والأساتذة [illegible] في صحتها أو على الأقل يجب أن تؤخذ بحذر فقد أخذها عن كتابات الأوربيين [illegible] لتشويه صورة الإسلام والممالك الإسلامية ليبرروا استعمارهم لها

[illegible] يوسف باشا القرمانلي في هذه الإغارات، وخاصة ضد حاكم اسمه [illegible]
في دولة "باغرمي" في الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد. وفي سنة ١٨٢١م، قبض [illegible]
[illegible] أكثر من عشرة آلاف [illegible] من ربع مدن [illegible]
وعددًا لا يحصى من [illegible] في [illegible] الغارة، ولكن لأن كثيرًا منهم
[illegible] في حرب [illegible] باغرمي
استرق أكثر من ٣٠ ألفًا من شعبها.

[illegible] في أوروبا، وكان [illegible]
[illegible]
بالقوات المسلحة للدول في الشمال.

دور التجار

كانت التجارة [illegible]
[illegible] في وسط [illegible] انتشروا في الأقاليم الواسع وبعضهم
استقر في مناطق بعيدة مثل غدامس في جنوب تونس وجنوب غرب طرابلس، حيث
كانت مركزًا [illegible] التجارة عبر الصحراء [illegible] الأخرى في وسط
الصحراء [illegible] في التجارة [illegible] وكان من أعضاء أسرهم،
وكثير منهم [illegible] في وسط السودان [illegible] وشاركوا في [illegible] أو
[illegible] هذه البلاد، حيث [illegible] على مراكز
[illegible] وبعضهم [illegible] في [illegible]
[illegible] وبعضهم كان [illegible] من سلالة
[illegible] وبعضهم [illegible] في [illegible]

سود في مواضع معينة بالعمل ، وكانوا لا يبالون بالأخطاء التي يرتكبها الحكام ضد غيرهم بل كانوا يشجعون هذه الأخطاء إذا كان ذلك يخدم مصالحهم ، لذلك لم يكونوا محل حب الناس ولا ثقتهم

[illegible] الخصيان كانت غالية الثمن يكلف الواحد منهم نحو ١٢ عبداً ، وكان الأدنى [illegible] يستخدمون منهم [illegible] ، ومع ذلك فقد كان ثمة [illegible] والخلاء محل النقد ، فقد كانت معايير [illegible] والأهواء [illegible] في الوصف [illegible] كان يرى أنه من الضروري أن يمسك منهم [illegible] ، وكذلك [illegible] بالأسلحة وغيرها من السلع التي كانت تستورد إذا كانوا [illegible] في مثلات هذه الأشياء ، وبعد أن أحد [illegible] في [illegible] توفي في [illegible] من تقرب التاسع عشر وترك [illegible] آلاف من العبيد ونحو ألف من [illegible] وعدد من [illegible] ونحو ٢٧ محرثاً [illegible] والتي يحسبها [illegible] ، ومن الأسلحة نحو ألف [illegible] و١٢ ألف دولار [illegible] ونحو ألف رأس من الماشية [1]

[illegible] شمال إفريقيا كانوا منتمين إلى الإغراء الذي يثيره [illegible] في [illegible] وقدموا القروض التي تستحق الوفاء بعد مدد تصل إلى ثلاث سنوات ، وقد [illegible] الأمر حكامه وموظفيهم [illegible] في ديون ضخمة ، وكان [illegible] في زيادة [illegible] في تكثيف حملات وإغارات جمع الرقيق [illegible] وهي مدة مستقلة [illegible] في الأربعينات من القرن التاسع عشر [illegible] إلى حد [illegible] في تكثيف الإغارات [illegible] ولكن حكامها [illegible] كان يمكن أن يجردوا [illegible] كثيراً من [illegible] بهذه الإغارات [illegible] ساسة [illegible] جدد [2] .

وعندما كانت الإغارات على الشعوب الأخرى تصل إلى حدها الأقصى الذي لا [illegible] ولا حركة [illegible] يتصرفون بصرف النظر عن

(1) المراجع السابق Islam's Black slaves P 169.

(2) المراجع السابق Islam's Black slaves P 170.

[illegible]

يأحدونها من حكومات الأقاليم والإقطاعيات [illegible]

[illegible]

[illegible] كانوا يقبلون هذا المصير [illegible]

[illegible]

[illegible] كما أن الأسواق [illegible]

[illegible] ظهور مبدأ محاربة تجارة الرق.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الاسترقاق التي دخلوا فيها بحمية شديدة.

[illegible] ١٨٧٩م [illegible] ١٨٨٨م [illegible] ٤٠٠ كيلومتر [illegible] خمسة آلاف ساكن(1).

(1) المرجع السابق Islam s Black Slaves, P. 173

كان النخاسة يدفعون عادة ضرائب قبل أن يصلوا إلى مقصدهم النهائي وبعد فرض صفقات شاسعة، وحيث قد كان بعض النخاسة آلاف من العبيد وكان التجار الصغار يرحلون بعبدين أو ثلاثة وتوجد هذه الأسواق عديدة وسط.

وعلى رغم كل الدعاوى الرسمية وعلى الرغم من وجود قوات الجيش المتقدم للأمبراطورية الفرنسية كان يتغاضى الطرف عن هذه التجارة، إذ كانت قوات الاحتلال الفرنسيين يسمح لهم أن يتخذوا الأسرى خدما مستضعفين، وهذا شكل موارد جديدة لهذه التجارة، وقد حدث أن ذكر من الأسرى في أسواق سنجر وكسب من ذلك أن كلا الفرنسيون نحو ٢٠ عبدا لكل منهم وهو مكسب طائل وفي عام ١٩٠١م صدرت حكومة الفرنسية قرارات ضد هذه التجارة، ومع ذلك استمر العبيد يعرضون في الأسواق واستمر الأطفال يختطفون ويباعون



ثانياً: السودان الشرقي «سودان وادي النيل»

• الممالك القديمة

[illegible] من الأرقاء[1]

[illegible]

[illegible]

[illegible] مجاورة لها جنوباً وغرباً[2].

[illegible]

[illegible]

على قبائل دارفور، ووصلت الرسالة من سلطان دارفور إلى معظم سلطنات [illegible]

[illegible]، من بعد فنعلمكم أن خبر انتصاراتكم على الممالك وصل [illegible]

بهذه البشرى، وقد أخبرنا أحد [illegible] عن محاسنكم الأخلاقية فأرسلت كتابي هذا مع

خادم الدولة يوسف حسن الشلالي، كتبناه لنؤكد لكم صداقتنا ومودتنا [illegible] الله دوامها،

ونحن نوصيكم بحسن [illegible] المحبة [illegible] والمعاهدة"[1] وقد رد عليه بونابرت

برسالة "إلى سلطان عبد الرحمن سلطان دارفور، [illegible] خطابكم وفهمت محتواه،

[illegible] وصلت حين كنت [illegible] في بلاد [illegible] أعدائي

وتدميرهم، ولأجل هذا أطلب منكم أن ترسلوا إلي مع أول قافلة [illegible] من العبيد الأشداء

[illegible] ستة عشر من العمر [illegible] ولا [illegible]

[illegible] أحسن [illegible]

حيث تكون"[1] (إمضاء) بونابرت قائد عام جيش [illegible]

إن الأعراف والتقاليد التي حكمت الاسترقاق في سلطنة دارفور من العرف [illegible]

الإسلامي والأحكام [illegible] لا تختلف من تلك الأعراف والتقاليد في

[illegible] وكل [illegible]

[illegible] وكثر الأعيان

[illegible]، وكانت [illegible] في تنظيم [illegible]

[illegible] الدولة السودانية

[illegible][2] وكانت أكثر [illegible] تلك التي [illegible] السلطان فكان [illegible]

[illegible]

[illegible] مع السلطان على [illegible]

[illegible]، وكثيراً ما كان [illegible] شيوخ [illegible]

مع [illegible] على كيان

[illegible] الدولة [illegible]

[illegible]

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني [illegible] ص [illegible]

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني [illegible] ص [illegible]

وفي الرسالة نفسها من حيث الحجم والذي تأتي [illegible] سلاطين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ولم يرافقهم(1).

كان الرقيق في حرس وجيش السلطنة سمة ملازمة [illegible] في سلاطين الفور، من حملة الحراب حتى حملة الأسلحة النارية بعد الحصول على [illegible] [illegible] الحوا[illegible]، كذلك كان الرقيق هم الحاضر على مداخل قصر السلطان [illegible] [illegible] وقد وصل بعض الرقيق أن يصبح قوة ذات [illegible] في حاشية السلطان وخبرة إدارية وحنكة، [illegible] في سياسة السلطنة والصراع على السلطة [illegible](2).

وباختصار كانت سلطنة دارفور بحكم الموقع والتاريخ مركزًا لتقاطع طرق التجارة [illegible] شرقًا وغربًا وجنوبًا من المحيط الأطلسي [illegible] البحر الأحمر [illegible] ومن خط الاستواء [illegible] شواطئ البحر [illegible] فهي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] البحر [illegible] المتوسط، وكانت تنقل منها في كل عام قافلة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من الأرقاء [illegible] [illegible] [illegible](3).

• السودان الموحد

في [illegible] القرن التاسع عشر الميلادي [illegible] [illegible] [illegible] من دون [illegible] [illegible] [illegible] قوة ذات بأس في المنطقة الإسلامية من العالم، وامتدت حدود إلى الوباء، حيث كانت تقوم

(1) [illegible] في المجتمع السوداني، المرجع السابق، ص ٧٧
(2) [illegible] في المجتمع السوداني، المرجع السابق [illegible]
(3) [illegible]

تملكت المسيحيات وراث الحضارة الإفريقية، وسيطر تجار مسلمون هناك في أجزاء متفرقة، كانوا يتجرون مع مصر ويعقدون بينها [illegible] وفوق ذلك كله كان [illegible] هؤلاء [illegible] يستخدمونهم [illegible] والرحال يستخدمون جنوداً أو خدم منازل.

وكانوا يستوردون [illegible] من مناطق شاسعة تمتد من شواطئ [illegible] على جنود [illegible] شديدة، وكان [illegible] من أجل [illegible] الأسواق في مصر [illegible]

وفي [illegible] عشر [illegible] العرب في [illegible] الأسواق [illegible] الإسلامية

وكان [illegible] في [illegible] مملكة مسيحية مستقلة هناك ومع [illegible] موجودة [illegible] في الكتب [illegible] على وجه [illegible]

وكان [illegible] في هذه [illegible] الاعتماد عليهم، وكان [illegible] من [illegible]

وبعد فتح العثمانيين مصر [illegible] في [illegible] السادس عشر وفي شكل [illegible] من جورجيا وبلاد [illegible] على [illegible] أسيوط من [illegible] حيث كانوا يجمعون في [illegible] في أسيوط على بعد حوالي ٢٥٠ ميلا جنوب القاهرة. وكان [illegible] يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف من [illegible] ثم في سنة ١٨٢٠م [illegible] محمد علي شمال السودان [illegible] الخرطوم من قرية

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 94-95.

صغيرة تعمل هنا وهناك سرعان ما تحولت إلى أن تكون مخصصة للإدارة والتجارة، وصارت الخرطوم مركز التجمع للعساكر والجنود، ومنها من كان يجمعهم حملات عبر الحدود مع أثيوبيا[1].

كانت الحكومة المصرية تشن حملات أيضًا من جبال الحبشة، وفي سنة ١٨٣٨م كان الوارد إلى مصر سنويًا ما بين ١٠، ١٢ ألفًا من العبيد، وكان أغلبهم [illegible] من أجل الخدمة العسكرية، [illegible] وقرر محمد علي [illegible] السودان في [illegible] وإرجاع [illegible] من الحملات [illegible] وأثر ذلك على [illegible] خمسة آلاف من العبيد [illegible]، ومع ذلك بقيت الحملات [illegible] امتدت إلى الجنوب والجنوب الغربي. وفي سبعينات من القرن التاسع عشر كانت [illegible] في الخرطوم لدى كل عامل في تجارة العبيد كان من آلاف العبيد الذين [illegible] في سوق الأبيض وكردفان.

ومع سيطرة الحكومة المصرية كان العرب [illegible] وكان هناك الجعليون [illegible] يدعون أنهم عرب ينتمون إلى سلالة العباس عم الرسول، ولكنهم كانوا نوبيين [illegible] عرب، وفي بداية القرن التاسع عشر [illegible] الجعليون بهذه التجارة عند طريق [illegible] النيل [illegible] والطريق المتجه شرقًا إلى سواكن على البحر الأحمر والمتجه غربًا إلى كردفان وسلطنة الفور.

ثم جاء الفتح المصري للسودان لم يختلف الأمر كثيرًا بالنسبة للعمليات التي يقوم بها تجار الجعليون [illegible] في الخرطوم مع عناصر من أقباط مصر والشام [illegible] في تجارة العبيد [illegible] الأسرية. ولأن الحكومة المصرية لم [illegible] معسكرات [illegible] العبيد المستعبدين [illegible] كردفان في الخرطوم [illegible][2].

وإن جماعة من هؤلاء تسمى الزبير [illegible] وكان تاجرًا في تجارة العبيد في ستينات القرن التاسع عشر [illegible] العسكرية والسياسية على الجعليين

(١) المرجع السابق [illegible] Islam's Black Slaves [illegible]

(٢) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P151

الجنوبي، وفي عام ١٨٦٩م، استطاع أن يجمع بحر الغزال ويسيطر عليه، وفي سنة ١٨٧٤م كان من القوة بما مكنه من غزو سلطنة دارفور، الأمر الذي استفز الحكومة المصرية فأرسلت حملة عسكرية قبضت عليه وسيطرت على المنطقة التي كان يحكمها.

كان الزبير يؤسس حكمه باعتباره جزءاً من دولة الخلافة الإسلامية، ويظهر ذلك من خطاباته التي كان يرسلها إلى مصر وإلى حكام دارفور حيث كان يطلب منهم الانصياع لسلطة الدولة الإسلامية، غير أن الزبير وقع في خلاف بينه وبين المسئولين الأوروبيين التابعين لخديو مصر أمثال غوردون البريطاني وجيسي الألماني، فاستدعى الزبير إلى القاهرة ليمثل أمام الخديو ولم يسمح له بالعودة إلى السودان مرة أخرى. وكان أشد ما أشيع ضد الزبير من اتهامات هي تجارة الرقيق وكان مصدرها الإداريون الغربيون في جنوب السودان، ونفى الزبير عن نفسه هذه التهمة بقوله «أجزم بكل صدق أنني لم أبع في حياتي عبداً واحداً، ولم يكن لي دخل أو صلة بما يجري من تجارة الرقيق سوى أنني كنت أشتري عبيداً مجندين، وأن القوافل كانت تمر فعلاً في أراضي إقليمي وأنها كانت تستعمل سبل حمايتي، أما ما قيل من أنني كنت أملك ثلاثين محطة للرقيق فإنه محض هراء وليس بصحيح إطلاقاً، إني لم أبعث برأس رقيق واحد إلى القاهرة أو إلى إسطنبول في كل حياتي»[1].

عندما غادر الزبير عاصمته (ديم زبير) مستجيباً لدعوة الخديو كلف ابنه سليمان ليحل محله في إدارة الحكم حتى عودته من مصر، ولكن الخديو أمر بحجزه وظل حبيساً تحت الإقامة الجبرية، أما سليمان فقد واجه ظروفاً عصيبة إذ تكثفت الضغوط عليه في وقت تزايدت فيه الحملات الاستعمارية على المنطقة. وخرج سليمان على رأس أربعة آلاف مقاتل لمواجهة غوردون ودارت معركة هزم فيها سليمان وفر إلى دارفور ونصحه أبوه الزبير بالتسليم وعارضه في ذلك قائد جيشه رابح فضل الله. ولما أتم سليمان التسليم أوثق هو وأقاربه ورموا بالرصاص.

كان رابح فضل الله من القادة العسكريين في جيش الزبير وصار أشهر تاجر رقيق في منطقة دارفور، وعندما رأى ما حاق بسليمان وجنوده قاد قوة عسكرية من أتباعه

(١) العلاقات السودانية التشادية، د. كمال محمد عبد [illegible] (الخرطوم) ص ٦٩

الجعليين وأخذوا العبيد وتحركت من غرب دارفور إلى منطقة جنوب وداي وعملوا على جلب العبيد حتى سنة ١٨٩٣م، وقد أغارت وداي حيث صدّه فهزم جيش وداي فتقدم غربًا حتى فتح مملكة بورنو، وأثار ذلك صراعًا بينه وبين التوسع الإمبريالي الفرنسي، وهناك اشتبك مع القوات الفرنسية وقتل قائدها «لامي»، وجرح رابح في المعركة ثم قتل بعد ذلك وتولى ابنه فضل الله القيادة فهزم وفرضت عليه القوة العسكرية الفرنسية سنة ١٩٠٠م وعلقت رأسه على أحد الأعمدة كرمز لظهور مصير كل من يواجه هذه القوة الجديدة التي توغلت بشكل عميق في إفريقيا.

ويذكر رونالد سيجال في كتابه «Islam's Black Slaves» أنه في عام سنة ١٨٦٩م كان الحاكم المصري وعائلته يملك مئات من العبيد يعملون في مزارع السكر الخاصة به في صعيد مصر وكانت تروج حملات الاستعدادات للرحلات ليسير بين كل منهم حربة، وحتى موظفو الحكومة في المديريات الأقل كان لديهم عبيد في منازلهم والمزارعون الذين يملكون مزارع صغيرة كانوا يملكون عبيدًا، واستخدمت أعداد كبيرة من العبيد في مشروعات الري، وكان سبعة أعشار من يعملون في مشروعات الري في ست من العبيد، وقد عين تشارلز جوردون حاكمًا للمديرية الاستوائية في سنة ١٨٧٣م وقدّر جوردون أنه فيما بين أعوام ١٨٧٥ - ١٨٧٩م فإن عددًا يتراوح ما بين ٨٠ ألف و١٠٠ ألف من العبيد قد اصطيدوا من منطقة بحر الغزال وصدروا إلى الشمال.

ويقول سيجال ومهما كانت القاهرة تصدر من تصريحات تستنكر وتنكر علاقتها بتجارة العبيد فإن الحكومة المصرية كانت متورطة في هذه التجارة وأنشأت مراكز تجميع للعبيد تفشى في بعضها الأمراض، وإن كبار السن كانوا يذكرون أن لكل عشرة عبيد يصلون إلى القاهرة كان هناك خمسون يموتون في الطريق، وكان بعض كبار الموظفين المصريين يكسبون من هذه التجارة وكان المديرون وبعض من رؤساء العسكريين يعتبرون شركاء في عملية نقل العبيد، وأنه تحت ضغط بريطاني شديد عقدت الحكومة المصرية معاهدة مع الإنجليز تحرم استيراد وتصدير العبيد السودانيين والأثيوبيين وتمنح السفن البريطانية سلطة وقف القوارب والزوارق والمراكب وتفتيشها ومعرفة ما إذا كانت تحمل عبيدًا على طول البحر الأحمر وخليج عدن والمياه المصرية.

على أنه يجب ملاحظة أن أقوال [illegible] وغيره من [illegible] الأوروبيين تستند في الدور المصري في تجارة العبيد إلى كتابات وتقارير (أمثال صمويل بيكر وغوردون وغيرهم من غلاة الاستعماريين الإنجليز، وكانت كتاباتهم هذه جزءاً من الحملات على [illegible] على مصر [illegible] [illegible] [illegible] و[illegible] [illegible] ومن [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] و[illegible] [illegible] في [illegible]

• رقيق الثورة المهدية

[illegible] الثورة المهدية في السودان سنة ١٨٨١م وكان [illegible] [illegible] على حكومة [illegible] [illegible] في [illegible] سنة ١٨٨١م [illegible] [illegible] في السودان، [illegible] حركة الإسلامية [illegible] تحت قيادة المهدي [illegible] على الأبيض عام ١٨٨٣م [illegible] [illegible] [illegible] على بحر [illegible] وهو منطقة التي يصطاد فيها العبيد.

وشهدت ظاهرة الرق [illegible] الثورة المهدية، كان الرقيق [illegible] [illegible] في شئون [illegible] وفي [illegible] [illegible] [illegible] كان الرقيق سلعة استراتيجية ومورد استراتيجي [illegible] في جيش التركي وفي جيش المهدية [illegible] في [illegible] [illegible]، [illegible] الثورة [illegible] في الرقيق [illegible] [illegible] [illegible]

كان [illegible] الرق [illegible] [illegible] استراتيجية عسكرية للمهدية وهي [illegible] الرقيق في [illegible] [illegible] [illegible] عبد الله [illegible] [illegible] [illegible] الجهادية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] حتى لا [illegible] نكمرة (يقصد الجيوش التركية)

[illegible] الرقيق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] المهدية [illegible] في [illegible] [illegible]

أدى إلى صناعة [illegible] على [illegible] المهدية أدت في [illegible] إلى [illegible] الرقيق [illegible]
الصائفة ورفع المعاناة[1].

الرقيق والجهادية

في مجتمعات الرق والاسترقاق كانت الخدمة العسكرية من مسارب الأرقاء نحو [illegible] الجهادية، [illegible] وأسرهم، [illegible] كان له أثره في إحساسهم بقدر من المساواة، وفي اكتساب قيم معنوية وروحية جديدة من [illegible] والأخذ بشهادة الجهادية في المحاكم[2].

كانت الجهادية [illegible] عسكرية [illegible] المهدي [illegible] الحربية، [illegible] السلاح، [illegible] السلاح [illegible]

رقيق بيت المال

بعد سقوط الخرطوم [illegible] سنة ١٨٨٥م سوى [illegible] الحكم التركي [illegible] الحكومية [illegible] اكتسب خبرة في التعامل مع الرقيق [illegible] الأبيض [illegible] سقوط الخرطوم، [illegible] على حركة [illegible] سوق الرقيق، وهو الموثق

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

المجتمعات وهو متصرف في الرقيق العامل وهو الذي يستخدم [illegible] رقيق للسخرة في مؤسساته ومرافقها[1] وهذه ظاهرة عامة مشتركة في كل مجتمعات في الدول والدويلات التي مارست الرق والاسترقاق.

وقد زاد عدد الرقيق الذي تجمع من [illegible] الخرطوم وبكثرة بحيث أصبح عبئاً، وصرف على [illegible] بكثير إلى الحد الذي [illegible] على [illegible] على جهات [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يتعرف على [illegible] من صنف الرقيق [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والمريض [illegible] [illegible] محمد إبراهيم [illegible] في كتابه [illegible] الرق في المجتمع السوداني [illegible] [illegible] [illegible] الرق والاسترقاق لم يكن ظاهرة [illegible] [illegible] [illegible] المجتمع السوداني [illegible] [illegible] تكوين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والأخلاقية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كسب العيش وحياة الأسرة[2] [illegible] الرقيق [illegible] المجتمع الرقيق في [illegible] ورقيق في مراعي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في خدمات الأسرة، وأصبح [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] الرقيق [illegible] [illegible] شيء المفصل على [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] اشترك في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الرقيق.

[illegible] في [illegible] في سوق [illegible] أو يزوجها لرقيق حر.

[illegible] [illegible] المجتمع السوداني، المرجع السابق، ص ١٠٥

أن الرقيق أيام المهدي وخليفته السلطات الخاصة مركزية كانت أو محلية وتم تعرف مالكه، فهي تضعه تحت التحفظ فترة تنتظر أن يتفقده مالكه ويبحث عنه فإن ظهر له مالك ردته إليه بعد أن يدفع مصروفات إعاشته فترة احتجازه في صورة رسوم يؤديها، وإن لم يظهر له مالك في الفترة المعلومة بيع في سوق النخاسة ويحصل في المزاد عن هويته وبعض عيوبه في عقد البيع، وعادة ما يكون ثمنه أقل من قرينه؛ لأن حائزه وهو يدرك هويته يبيعه بعجل على أن يساوم لرفع سعره؛ ولأنه يريد أن يتخلص منه تخفف من أعباء معيشته وحراسته، وعادة ما يصر المشتري على أن يثبت في عقد البيع هويته منعًا من أن يصير بعد ذلك من ينافسه في عقد الملكية ويدعي أن الرقيق رقيقه.

وقد شرع المهدي في حينه بعودة الرقيق الذي دخل بيت المال خطأ إلى أربابه أو سيوني عليه بيت المال بغير وجه حق، واسترداد ملاك الأرقاء لهم إذا استرعوا منهم عنوة، ويضبط حركة الرقيق ومحاصرة السلب والنهب واستعادة الرقيق الهارب كان المهدي أو خليفته وأحد عماله يمنح تذاكر العبيد لكل مسافر أو أسرة متنقلة من منطقة لأخرى يحتوي عدد الأرقاء وأوصافهم وأسماءهم ليسهل البحث والتعرف عليهم في حالة السلب والنهب، وللسماح لهم بالمرور عبر دوريات الأنصار في الطريق وللاحتياط في توثيق المبيعات إذا اضطر مالك الرقيق إلى بيع جزء منه خلال السفر

سوق النخاسة

يصف سلاطين باشا سوق النخاسة بعد نشأة الحكومة السودانية (المهدية) في أم درمان في ساحة فسيحة قريبة من بيت المال بالقرب من الطوب تعرف بسوق الرقيق ... وبما أن تجارة الرقيق أمر جائز ومشروع في السودان فمن حق الباعة والمشترين أن يفحصوا رقيقهم فحصًا دقيقًا من الرأس إلى أخمص القدم دون أي تقيد كما لو كان هذا الرقيق من فصيلة الحيوانات لوضعه، فكان المشتري يفتح فم الرقيق ليرى حالة أسنانه وأضراسه ثم يأمر البائع بأن يرفع ما عليه من غطاء على النصف الأعلى من جسمه ليفحصه فحصًا دقيقًا.

ويستحضر سلاطين الممارسات "قصة الخودة" في سوق النخاسة تنطوي على نفاق حيث فهو صاحب لقب عند الحصان الرمادية الكابية في العرق الرخي سوف ... العشا بدا

يسعى للارتقاء به في مستوى فلا يستحق هذه الحضارة التي كتب عنها الشعراء أن تعامل كما لو كانت دواب حروبه(١). هذا ما سجله سلاطين عندما عبر عن موقف عهد الخليفة في شؤون الرقيق بعد عشرة فتح السودان في إدارة الحكم الثنائي. ولا تختلف صورة سوق الرقيق في المهدية عن سوق الرقيق في أسواق حرب الفترة التي سبقتها.

مدت صلاحيات المهدية إلى الرقيق، وشغل الرقيق في معسكرات الجهادية كثير نوعًا من بلاد الأمن وبعد حين، فإن هذا التاريخ الجهادي ومعيشته الشهرية يضمن لقمة عيش عليهم الأولاد، وأحسن ثبات الأرقاء أن الأشخاص معروف الجهادية يستعد من الاسترقاق وهو شكل، ومن جانب آخر فرصة الأسر سجينه العسكرية مع مصدر الرقيق وتشدد شمع حسبة عروب في عسكرية تقصد الرقيق في حروب وحروب الغربية، كما فرصة الإشراف المركزي على الآخر في ترتيب وتوثيق للمبيعات. وفي الشق الاجتماعي بالإصلاحات حرمت المهدية الخصي ومنعت تفريق شمل العائلة خاصة الأم والطفل وشجعت على زواج الأرقاء واستقرارهم، ونحت الأخذ بشهادة الجهادية في المحاكم. ولكن الرقيق ظل رقيقًا برغم الإصلاحات فلم تسقط عنه صفته ولا استعاد ذاته المسروقة(٢).

رقيق الحكم الثنائي

بنود اتفاقية الحكم الثنائي الخاصة بالرق:

عندما سيطر الإنجليز على السودان بعد معركة أم درمان سنة ١٨٩٨م ضعفت تجارة الرقيق المنتشرة، كما ضعفت الحروب المستمرة سبب ورود العبيد في بحر الغزال والتي كانت قد استنزفت شعب [illegible] حتى أن آثارها استمرت واضحة في عشرينات من القرن العشرين.

عقدت اتفاقية الحكم الثنائي على السودان بين مصر وبريطانيا عام ١٨٩٩م ونصت المادة الحادية عشرة من الاتفاقية على أنه يمنع منعًا مطلقًا إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره. ولكن المعضلة التي واجهت إدارة الحكم الثنائي تمثلت في الرقيق

---

(١) سلاطين [illegible] في المجتمع السوداني، مرجع سابق، ص ١١٦

(٢) سلاطين [illegible] في المجتمع السوداني، مرجع سابق، ص ١١٧

(١) إن الإدارة لم توفر لهم موارد لاستيعاب الأرقاء في عمل أو خدمات

(٢) خشية من اندلاع مقاومة ملاك الرقيق بعد أن عرفت تلك المقاومة خلال معارك مهدية، لذلك ظل موضوع الرقيق في صلب جدول أعمال وتقارير الإدارة لفترة عقدين وأكثر.

فمنذ البداية وجهت إدارة الحكم الثنائي بحجم وعمق جذور المشكلة وتعقيداتها، كيف يعيش الرقيق بعد عتقه وهو لا يملك وسيلة كسب عيشه؟ كيف يعيش الملاك وقد [illegible] من قسمتهم وسمة تدرج [illegible] ذات خدمات؟ كيف يدير المجتمع شئون حياته اليومية [illegible] الرقيق بعد [illegible] التطور [illegible] في [illegible] الاستجابة [illegible] بمستوى مدى [illegible] فيه عمل الرقيق حدود الاقتصادية [illegible] بعد حدود الاجتماعية؟

ظلت الإدارة تسير [illegible] في سياستها العامة تجاه تصفية مؤسسة الرق [illegible] الاسترقاق وعلى طول الفترة من ١٩٠١م إلى ١٩٢٤م عرفت في مشكلة [illegible] متعددة الأوجه [illegible] الرقيق [illegible] والرقيق [illegible] والحدود الذين يحرصون [illegible] على [illegible] من ملاكهم والأرقاء الذين هجروا مهد الاسترقاق وهم على [illegible]، [illegible] وكانت ترجح [illegible] فرصها.

في عام سنة ١٩١٩م صدرت مذكرة بعنوان «[illegible] الرقيق [illegible]» من خمسة عشر [illegible] في [illegible] السياسة العامة [illegible] في [illegible] «[illegible] من المرغوب فيه [illegible] في مصلحة المجتمع [illegible] الرقيق [illegible] التي نشأوا بها ليجدوا أنفسهم [illegible] بلا عمل فيتحولون [illegible] و[illegible]» [illegible] «كثيراً ما نحدث أن [illegible] الأرقاء الذين [illegible] سنوات طويلة مع عائلة سيدهم [illegible] وأسعد [illegible] من عائلة السيد، وليس المقصود مساعدة الملاك على الاحتفاظ بالأرقاء [illegible] الاسترقاق وإنما المقصود حماية الرقيق نفسه وحماية المجتمع»

في عام ١٩٢٤م أصدرت مذكرة أخرى حول ضوابط الرقيق [illegible] فيها «[illegible] في [illegible] سيده [illegible] معاملة حسنة فلا مانع من تسوية [illegible] بينهم [illegible] مفتشي المركز [illegible] من تلقاء أنفسهم في قضايا الأرقاء [illegible] بالإقامة [illegible] مع سادتهم على ألا يمنعوا عنهم أوراق الحرية إذا طلبوها»

وفي عام ١٩٣١م أي بعد ٣٧ سنة من منع الرقيق في السودان أصدرت الإدارة البريطانية مذكرة بعنوان «الرق في السودان» إن استئصال جميع أغراض هذه المؤسسة (مؤسسة الرق) بصورة واحدة كان سيتسبب في مصاعب جمة وكان سينتج عنه خطر عام بتكوين طبقة كبيرة من الأرقاء السابقين دون فرص عمالة لاستيعابهم وهم في عجز تام عن كسب العيش بصورة مستقلة، لهذا سمحت حكومة السودان ببعض الأعراض للاسترقاق التي لا اعتراض عليها في أن تبقى طالما أنها لا تضر بالرقيق وطالما كان الرقيق قانعا بها، ولكن لا يمكن التأكيد بقطع أن أساس بقاء تلك الأعراض هو التوافق الطوعي الحر بين الطرفين» . وهكذا اعترفت بريطانيا صراحة بأن سمحت حكومة السودان ببعض مظاهر الرق والاسترقاق، وعدم توفر عمالة لاستيعاب الأرقاء، ومخاطر نشوء طبقة كبيرة من الأرقاء السابقين عاجزة عن كسب العيش بصورة مستقلة(١).

الأوضاع تختلف

في مصر كانت الدعوة في عام ١٨٨٩م توقف تجارة العبيد وتسريحهم في **مصر**، هذه الدعوة تحت حقيقة، فإن العبيد وخاصة الجواري كانوا يأتون إلى مصر من السودان وبعضهم كان يفر بهم لاجئون في خلال فترة حكم الخليفة خليفة المهدي، واستمر الوارد منهم في التدفق ولم تكن القوانين تنص صراحة كلها لأن المسلمين كانوا يضطرون إلى قوانين منع التجارة رغم اعتراضهم على شراء الجواري أو انتقاص حقوقهم الدينية(٢) وقد كان عدم تحريم بيع العبيد حتى أعداد الجواري في البيوت في ... أما في الواحات فالعبيد ... النظام وتجارته بعيدا عن عيون السلطات الرسمية

وعلى كل حال هناك من العناصر ما ساعد على تقبل تجارة العبيد منها مخاطر الحملة على اكتشاف وجود العبيد والجواري الذي يؤدي إلى المصادرة بغير تعويض وإلى عقاب المالك، جعلت الاستثمار في العبيد استثمارا خطرا، ثم إن النمو الثقافي

---

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني ـ المرجع السابق ـ ص ١٢٧

(٢) المرجع السابق Islam s Black Slaves, P 153

عربي لم يتمكن من إزالة خاصة نظام العبودية صار له تأثير فضلاً عن نمو سوق العمل الحر لاقتصاديات المدن المتوسعة، وفضلاً عن كل ذلك فقد كان غزو الإنجليز السودان هو ما قطع السبيل أمام هذه التجارة. وطبقًا لما ذكره اللورد كرومر سنة ١٩٠٤م لم تعد هناك تجارة للعبيد في مصر، وكان ذلك بسبب أن سياسة الاستعمار الإنجليزي للسودان كانت قد استعاضت عن بيع العبيد الإفريقيين خارج أراضيهم، استعاضت عن ذلك باحتلال أرض السودان والاستيلاء على ما بها من ثروات، وكان ذلك يحتاج إلى استبقاء العمالة السودانية في أرضها ليقوموا بهذا العمل.

في كردفان: كانت الأعراب تقوم بها قبائل البقارة والكبابيش، وكانت مهور العرائس تدفع رؤوسًا من العبيد في أيامهم، وأن تجنيد العبيد الحبيس في فرق الشرطة في الأبيض سنة ١٩٠٢م، له بعض الأثر، وما كان له بعض الأثر أيضًا الحكم على تجار العبيد بالسجن خمس سنوات، وكذلك إنشاء مراكز عسكرية سنة ١٩٠٨م على حدود بين بحر العرب وإفريقيا الاستوائية الفرنسية (إفريقيا الوسطى حاليًا)، تمكن من السيطرة على هذه المنطقة التي كانت مصدرًا للعبيد.

في النوبة: كانت جبال النوبة مصدرًا للرقيق وموقعًا للاسترقاق، ثم تنحصر مشكلته في عتق الأرقاء من قبائل العربية وإنما امتدت بعتق الأرقاء في بعض قبائل النوبة التي استرقت بعضها البعض، وتشجيع الرقيق للعتق على العودة إلى قراه التي فرعها تجار الرقيق، ولم تكن جهود لإعتاق الأرقاء مجدية لدى أصبحوا أحرارًا بالعودة إلى قراهم كرجال أحرار، وتأكيد الضمانات اللازمة كي تصبح حريتهم حقيقة، خاصة أن عددًا كبيرًا ممن يسمون بالأرقاء يرتاحون في عائلات ملاكهم، وعددًا ممن يهربون نتيجة نزوة أو استياء.

في دارفور: بعد الهزيمة على دينار في مايو سنة ١٩١٦م، وضم دارفور للحكم الثنائي وضعت الإدارة خطة للتعامل مع الرقيق، وشرعت في تشجيع الأرقاء وملاك على أسلوب المعاملة، ولكن الرقيق عجز عن دفعهم، وكان للهزيمة على دينار أثرها في هروب ونزوح آلاف الأرقاء، عرفًا، حولها خاصة أن جيش السلطان كانت قوامه من أبنائه وعبيده من الأرقاء، إضافة إلى أعداد كبيرة منهم في الأسلحة والتشكيلات

العسكرية الأخرى وراء الخاشنة والعسكر وأرقاء الأحباش في أنحاء السلطنة، وكان السلطان يحكم بالسيد لقب الكبير أكبر ملك الرقيق، وبتغير الحكام أحدث فوضى صعب معها إحكام تجارة الرق.

المناطق الشرقية من السودان: تمت التجارة في المناطق الشرقية من السودان على طول البحر الأحمر التي كان يصدر منها العبيد بالتسلل إلى شبه الجزيرة العربية فقد كانت مقاومة التجارة أكثر صعوبة في هذا المكان، وكان القبض على ٥٨ تاجرا وحكم عليهم بالسجن سنة وبالمصادرة في يناير سنة ١٩٠٥م مما قلل حجم التجارة في الشرق.

أثيوبيا: كان سوق الطلب التقليدي يفضل العبيد الأثيوبيين، وعلى الأخص من الأوروميين الذين كانوا يعرفون باسم الجالا، وهم يعيشون عادة في مثل البحر ولكنهم قلّ عليهم من سلالة الأمهرة، وكان ذلك بسبب بشرتهم الفاتحة لأن السودان وكانوا يعتبرون من أجمل الأجناس الحية وملامحهم متناسقة وعيونهم جميلة وصوتهم ... وشعرهم ... وفي السوق أن كان يباع ... في ... الأوروميين ويسبب ذلك إلى قتل الأوروميين

وفي القرن التاسع عشر كان العبيد الأوروميون يكثرون في أسواق التصدير في جوندار وحلابات شمال غرب أثيوبيا، وكانوا هم المرتبة المفضلة ويقدمون إلى التجار المسلمين بواسطة رؤساء الأوروميين في المناطق الغربية لأثيوبيا، ورغم أن معبر حدود أثيوبيا السودان ... عدد كبير من العبيد ... كانوا يرسلون ... من العبيد ... وفي سنة ١٨٦٦م قيل إن آلافا من ... والجاهلة من الأوروميين كانوا يباعون كل سنة، وقد بيع نحو ٥٠٠ في أسواق حلابات وحدها، وكان التجار المسلمون يجمعون العبيد في ربيع ... ثم ينقلونهم بالسفن إلى أسواق مصر والجزيرة العربية وتركيا، وكانت أعمارهم ... أو ...

وفي سنة ١٨٨٤م، قيل تقريرا عن مكافحة العبيد ... قدر أن نحو ٨ آلاف من العبيد لا يزالون يصدرون كل سنة من أثيوبيا ... الملك منليك ملك أثيوبيا كان يستولي على عبد من كل عشرة يصدرون ... تغاضيه عن ذلك. وفي سنة ١٩٠٣م

أصدر الملك منليك مرسوماً بمنع تجارة الرقيق في كل أنحاء أثيوبيا، ومع ذلك كانت ثمة شكوك من أن التجارة ظلت قائمة. ففي سنة ١٩١٠م ذكر أحد زوار مدينة نجران أن تجارة التصدير من الحبشة لا تزال قائمة، وإنها تشمل سنوياً من الحبشة الصغار.

إن البحر الأحمر الذي كانت تحميه مراكب أسطول الدولة العثمانية كان معبر طرق مستمرة لتصدير العبيد من الشرق والرقيق على مدى القرن التاسع عشر، وفي سنوات ذلك القرن، فإن السفن التي كانت ترفع العلم العثماني كانت تحمل نحو ١٥ ألف من العبيد سنوياً في موسم الحج، وبعضهم كان يباع مباشرة في جدة ومكة، وبعضهم كان يستبدل بالأسلحة الحديثة في دمشق، والأسلحة والأحجار الكريمة في فارس والحرير والجواهر في أقصى الشرق، وإن استجابة العثمانيين ضد تجارة الرقيق في خضوع للضغوط (البريطانية كانت ضعيفة الأثر)، وقدر التقرير الذي نشر عن مكافحة العبودية من مراقبين في الإسكندرية عام ١٨٧٠م أن عدد من يباعون أو يستبدلون من العبيد سنوياً في مكة والمدينة نحو ٢٥ ألفاً(١).

***

---

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 154-159

الفصل الرابع

شـــرق إفـــريقيـــا

أولاً:

(أ) الأوضاع فى شرق إفريقيا

(ب) التجارة العربية: التباين الجوهرى - تدمير القرى

(جـ) قرن الرعب: قسوة المعاناة والدمار

ثانياً:

(أ) العرب والكونغو

(ب) مملكة تيبوتيب العربية

(جـ) سياسة القضاء على العرب

اولا: (أ) الاوضاع فى شرق افريقيا

منذ قديم العصور هاجر العرب من الجزيرة العربية إلى الساحل الإفريقي الشرقي الذي لا تفصله عنهم سوى البحر الضيق الذي يسهل عبوره هو البحر الأحمر، وبعد هكذا مع الإسلام وبعده، فرق من الطوائف من التجارة والأفراد المسلمين من المضطهدين، ولم يقتصر الاتصال على العرب من شمال إفريقيا بل العرب في الجزيرة العربية، ولم يرحموا في هذه المسيرة قسراً من طريقها عن طريق تجارة الرقيق من كانوا يذهبون إليهم لا في عصر الخلافات، والعلاقات التي تقوم على مبدأ قيام العرب والأفارقة بنشاط في تسويق تجارة الرقيق من كل الأفارقة حيث يتجولون في المراكز من العرب ليجدوا الطعام والكساء وحياة أفضل مما كانوا عليه، وبهذا كانت حتى جاء البرتغاليون إلى شرق إفريقيا في القرن الخامس عشر[1].

وكان المحيط الهندي في الوقت الذي كان العرب واليهود يتحكمون في تجارته ويتاجرون بين الموانئ المختلفة في المحيط الهندي في القرن التاسع كان هناك مستوطنون عرب في إفريقيا قد امتدوا إلى الساحل، ومع القرن التاسع كان الإسلام قد ضرب بجذوره في المناطق الساحلية في شرق إفريقيا، وظهرت مستوطنات ... من الجزيرة العربية والأقطار المحيطة بالخليج الفارسي، ... في إفريقيا في القرن العاشر ... على طول شمال إفريقيا ... السود[2].

وفي هذه الفترة على طول الساحل الإفريقي وعبر الخليج من عدن كانت مدينة ... مركز تجارة الرقيق ... على طول طرق التجارة في وسط ... في القرن الرابع عشر تعرف في ...

---

(1) ... د. أحمد نجم النبي خليجة ص ٢٩

(2) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 95

ومصر باسم بلاد زيلع، وكتب عنها المؤرخ المراكشي الادريسي بصفة زيلع بأنها مدينة صغيرة لمساحة مكتظة بالسكان تصدر العبيد والفضة

إن الجغرافيين العرب يقسمون الساحل الشرقي لإفريقيا إلى أربع مناطق بلاد البربر التي تقع حول القرن الإفريقي وتنتهي شمالاً عند مقديشيو، وبلاد الزنج التي تمتد جنوباً إلى ما حتى زنجبار، وبلاد سوفالا التي تنتهي عند نهر الليمبوبو، والرابعة هي منطقة غير معروفة جيداً تعرف باسم بلاد الواق الواق[١]

وقد امتد الإسلام في هذه المناطق على طول الساحل الإفريقي الشرقي وعلى عمق ازداد عبر القرون امتد إلى أريتريا والصومال، ولكن المستوطنات الساحلية لم تترك في الإسلام ولا برزت دونها لتستمتع بما لديهم من رخاء، فقد أتيح لهم الصعود عليهم من جانبين أولهما تهديد العرب الشماليين وكذلك تهديد البرتغاليين الذين جاءوا فجأة من البحر وبدءوا يضطهدون الرجال لا يعرفهم والتهديد الثاني أتى من الداخل عندما هاجم بعض الأهالي الجماعات الزراعية المواجهية على طول الساحل، وكتب أحد المعلقين البرتغاليين عن المدن الساحلية أنها كانت في حروب دائماً ولم تهدأ الإسلام إلا قليلاً، وكانت هذه المدن محاطة بالسور. وأحد أسباب الحروب أن كثيراً من المستوطنات الساحلية مرتبة تجارة الرقيق لذلك بها أعداء من الداخل

وفي القرن السادس عشر وقعت سواحل شرق إفريقيا تحت حكم البرتغال، وقد لاحظ البرتغاليون فخامة الملابس الحريرية والفضية والمجوهرات والذهب التي يلبسه أهل الطبقات العالية في المدن الساحلية. ولاحظوا أن العبيد كانوا وقتها يلبسون ثياباً تختلف في نوعيتها عن ثياب الأسياد. وقد زار ابن بطوطة هذه المنطقة من قبل ووصف كلوة بأنها مدينة على الساحل أغلبية سكانها من الزنوج ولونهم أسود وهم يشاركون في حملات عسكرية، وكانت العبودية أحد شئون المجتمع

ولكن بعد أكثر من قرن ونصف القرن تمكن العرب من الحصول على استقلالهم، وساعدهم في هذه الحروب أئمة مسقط الذين كانوا يعتمدون على رجال بحر عادوا من حروب ضد المحيط الهندي، وهذا ما جعل أئمة مسقط يصبحون سادة شرق إفريقيا

(١) المرجع السابق Islam s Black Slaves. P. 96

في فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ العرب العمانيون يعودون إلى الساحل الشرقي ويكونون مجتمعاتهم هناك، وكان الإنجليز يساعدونهم في دفع لمواجهة قوة البرتغاليين في المنطقة. ومع منتصف القرن الثامن عشر استطاعت أسرة بوسعيد العمانية أن تسيطر لا على عمان في الجزيرة العربية فقط ولكن على زنجبار على الساحل الأفريقي أيضاً. وفي سنة ١٨٠٠م ومن بعدها بسنوات قليلة أمكن للحاكم البوسعيدي السيد سعيد أن يضع قدمه في الساحل الأفريقي، وعقد معاهدات مع فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة، وكان هو وعدد من أسرته متورطين في تجارة الرقيق، وكانت معاهداته مع الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا تمده بـ ٥٪ رسوماً على البضائع التي تحملها المواصلات إلى الموانئ الساحلية ولكن تجارته مع الرقيق كانت مربحة له وتمده بمورد للعمل في مشاريعه الخاصة(1).

والخلاصة أنه كانت هناك تجارة رقيق على الساحل الشرقي لأفريقيا وأنها كانت تصل إلى جنوب العراق، وأن الرقيق كانوا يعملون في المزارع هناك مما دفع لثورة معروفة في التاريخ الإسلامي باسم ثورة الزنج، وأن تجارة الرقيق استمرت في هذه المنطقة، ويقول بعض المؤرخين الفرنسيين أنه في الوقت الذي كان فيه العرب المسلمون مسيطرين فيه على المحيط الهندي كانت التجارة عبر هذا المحيط إلى الصين تتعلق بالعاج، أما التجارة إلى العراق وبلاد الرافدين فكانت تتعلق بالرقيق.

تمكن السلطان سعيد سلطان مسقط بالسياسة والنقود أن يخضع ساحل إفريقيا الشرقي ويتخذ زنجبار مقراً لحكمه، ومع مضي الزمن امتدت سيادته إلى داخل إفريقيا بسبب انتشار العرب وحمايته لهم عند عودتهم إلى الساحل وتحصيل تجارة إفريقيا عبر زنجبار، وأصبحت أكبر ميناء على سواحل المحيط الهندي وأكبر مستودع لتجارة إفريقيا الاستوائية، والمورد الرئيسي لتزويد العالم بالقرنفل والعاج والرقيق.

وقد وصلت قوافل العرب في هذه الفترة إلى منطقة البحيرات العظمى (تنجانيقا وفكتوريا)، بل وصلت حتى وسط الكونغو، وهكذا نجح السلطان سعيد في بسط نفوذه على كل تلك المنطقة(2).

(1) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 99
(2) التنافس الدولي في شرق إفريقيا د. جلال يحيى ص ٢٢.

كان النشاط التجاري العربي في شرق إفريقيا يعتمد على الذهب والعاج والرقيق، ويشير تصدير الرقيق متى كانت تقوم به العناصر العربية ومعظمهم من شرق إفريقيا (لم يشترك العرب في تجارة الرقيق عبر الأطلنطي على الإطلاق) إلى أن أعداد من كان يخرج من زنجبار مركز الرقيق مدينة التجارة في شرق إفريقيا قدر بنحو ١٥ ألفاً سنوياً، وأن عدد من كانوا يصلون بطريق البحر أو عبر الصحراء في تلك الفترة لم يكن يقدر على شراء الرقيق إلا السلاطين والأمراء وهم قلة محدودة وكانوا يستخدمون الرقيق في الجيش وحرس السلطان ومنهم من يستخدم في الفلاحة أو في حراسة حريم السلطان. وكان الأطفال الأرقاء يستخدمون في بعض الأحيان كرفقة لأولاد الأمراء. كتب ديوارت باربوسا سنة ١٥١٨م عن تجارة الرقيق يقول إن أصحاب الرقيق في ممباسة تدل على أن استعبادهم يجري من بيئته، فيفتح أبو حداحيث لا يسيرهم عن استعبادهم إذ يبيع هؤلاء بينما يستعبدونهم في البيوت وفي حدود من شئون العيش[1].

وتتحدث المصادر العربية عن الرقيق المصدر من شرق إفريقيا إلى الجزيرة العربية أو الأقاليم الأخرى إنه كان يستخدم في الصيد أو في الغوص بحثاً عن اللؤلؤ أو الخدمة والأغراض في الحراسة أو الأعمال المنزلية أو الرعي.

ومع الكتاب المشهورين والرحالة الأوروبيين في وصف بشاعة تجارة العرب بالرقيق الإفريقي، فيستحضر صورة العرب وهم يسوقون الرقيق أمامهم في شكل قطار طويل من الرجال والنساء مكبلين في أصفاد من حديد، وذلك كتابات المؤرخين الأوروبيين على حديث عن الحملات والحروب وحرق القرى التي تمت من عمليات صيد الرقيق داخل شرق إفريقيا، وعن الآلاف الذين هلكوا وجدت جثثهم في الطريق وعن عمليات جلب الرقيق على الشاطئ وربطه بالسلاسل أثناء الرحلة من الداخل إلى الساحل، وعن وفاة الأعداد الكبيرة من الرقيق أثناء الرحلة نتيجة الإنهاك وقلة الغذاء والأمراض والضرب، ومن أمثلة ذلك مثلاً في كتابات المستكشف البريطاني بيرتون Burton الذي حاول أن يلقي باللوم على العرب على خمسين مرة من الرقيق الذين كانوا يقومون بالإغارة بالسلاح على عشر قرى إفريقية ويقتل في كل قرية نحو مائتي إفريقي، ويحصلون على هذا العدد كان الداخل يتعرض لرحلة شرق، يسوق كل

(١) المصدر نفسه د. محمد عبد الغني سعودي ص ٩٢-١٠٢.

حيناً. ويذكر الضابط البريطاني رجبي أنه عند عودته من جزيرة بمبا شاهد على الطبيعة مليئة بقرى خربة في المنطقة لكنها كانت مجرد أطلال، وشاهد مراكز كانت من قبل عامرة بسكانها بسبب صيد الرقيق[1].

❋ ❋ ❋

عندما وصل البرتغاليون إلى ساحل إفريقيا الشرقي أدهشتهم الحضارة العربية للساحل البحري لشرق إفريقيا. فقد وجدوا أن هذه المنطقة الإفريقية المطلة على المحيط الهندي من سواحل موزمبيق إلى الصومال وكانت لها الخصوصيات، وهي أطول من مسافة بين سوفالة والبلاد، وقد تبين لهم أن التبادلات الحضارية واضحة مع الشرق وخاصة الهند، ووجدوا أن السفن في البحار الشرقية تفوق الملاحة أكثر منهم، ووجدوا دولاً ومدناً وحكومات غنية ذات مقدرات مركزية لا تقل عما يوجد في أوروبا. ويذكر أحد رجال فاسكودي جاما أنهم بعد يومين أو ثلاثة من وجودهم في هذه المنطقة أتى شيخ من سادة هذه البلاد ليزورهم ولم يعجبه أي شيء أعطوه لهم، ولا سيما بعض الكمية التي كانت لدى فاسكودي جاما. وفي الحقيقة فإن الرحالة الشرقي كان لديه سفن أكثر بكثير يحاربها إلى الهند وسيلان، وكان يعرف المحيط الذي يصل إلى الصين[2].

وثمة أثر بحري عربي عظيم الطابع ذاته قيل ذلك بسنوات قليلة عن ميناء كلوة وقيل إنه يبدو أنه كان عميقاً تبلغه السفن الكبيرة وأنه كان متسعاً إلى حد يستطيع على وجه التقريب أن يحتوي أسطولاً.

إن مدن الساحل الإفريقي القديمة وما عثر من بقايا حضارتها قبل وصول البرتغاليين كانت تقدر بنحو ١٤١ مدينة وميناء منها ٦٥ في تنجانيقا و٣٠ في كينيا و١٤ في الصومال و٢٨ في جزيرة بمبا و١٤ في جزيرة زنجبار. وتظهر الشواهد الثقافية والاجتماعية وخاصة في المناطق القريبة من كلوة وجزيرة «جواني ـ Juani» التداخل الذي كان حاصلاً في الثقافة الإفريقية بينها وبين الثقافات غير الإفريقية، وكانت الملاحة المصرية الإفريقية منذ حوالي ألفين من السنوات، والملاحة التي كانت قائمة بعد ذلك مع جنوب الجزيرة العربية. وبين عامي ٨٠٠ـ٩٠٠م كتب الكتاب العرب يصفون

---

(1) المرجع السابق، ص ٩٢ـ١٠٢.

(2) المرجع السابق The African slave Trade. P 175-176.

طبيعة التجارة التي كانت قائمة، ولم تكن تجارة العبيد هي السائدة في التجارة الإفريقية، وقتها كان الطلب الهندي والصيني على العاج وكانت هذه الأصناف ذات الأهمية القصوى. وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر كانت الموانئ الحوية للصين تتعامل بالنقد الصيني مع مدن الصومال وتنزانيا وظلت كذلك حتى القرن الخامس عشر، وقد أسهم ذلك في تأسيس ونمو الدول المدن على طول الساحل، ولكن البرتغاليين في القرن السادس عشر لم يراعوا الأوضاع الإفريقية ووحدوا بين العقيدة وبين الجنس ونظروا إلى شعوب كلوة وممبسة وماليندي باعتبارهم مراكشيين ولم يهتموا بدراسة اللغات ولم يعرفوا اللغة السواحيلية، وتصوروا أن المدن الشرقية هي مجرد مستعمرات عربية رغم أن المدن الدول على ساحل إفريقية الشرقية كانت مدناً إفريقية ذات حضارة إفريقية تحمل تأثيراً عربياً وتأثيراً بالعقيدة الإسلامية. وأن أحد الأسباب تقوية لهذا القول يبدو في الحضارة التي تظهر في الأدب السواحيلي والتقاليد السواحيلية[1].

وحسب أقوال البرتغاليين فإن عبودية الساحل الشرقي من موزمبيق إلى برازيل صارت تجري ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف عبد في السنة، وبمقارنة ذلك بتجارة الرقيق من غرب إفريقيا يبدو الرقم متواضعاً. ورغم أنها زادت بعد ذلك إلى ٢٥ ألفاً في السنة، ثم تضاعفت تقريباً في السنوات التي أعقبت سنة ١٨٥٠م؛ فإنها تشير إلى قدر صغير نسبياً هذا الذي لعبته تجارة الرقيق بواسطة الأوروبيين من الساحل الشرقي[2].

(ب) التجارة العربية

انقسمت تجارة الرقيق إلى قسمين: قسم محلي ويشمل الاتجار في الرقيق بين أصحاب القوافل العربية أو السواحيلية وبين سكان المدن الساحلية وأصحاب المزارع العرب، كما يشمل تبادل الرقيق الذي تجمعه القوافل مع قبائل إفريقية أخرى. وقسم خارجي يشمل الرقيق الذي يصدر إلى الخارج والذي كان يشحن إلى مسقط وجزر

(١) المرجع السابق The African slave Trade. P. 178

(٢) المرجع السابق The African slave Trade. P. 196

المحيط الهندي وفارس وأصفهان وبغداد والبصرة والبحرين والهند، وقد مورس نوع آخر من تجارة الرقيق وهو مبادلة رقيق شرق إفريقيا بالهندوس في الهند.

كان العرب والسواحليون لا يحصلون على الرقيق دائمًا من خلال شن الغارات على الإفريقيين وصيد الأسرى؛ لأن عدد العرب كان قليلاً في الداخل، كما كان حجم القوافل لا يكفي للإغارة على القبائل القوية، وكانت أيضًا حالات الإغارة نادرة من جانب العرب لأنهم كانوا يفضلون استخدام ما لديهم من سلاح في صيد الفيلة لارتفاع أسعار العاج مقارنة بأسعار الرقيق، هذا فضلاً عن تهافت الإفريقيين على السلاح واستعدادهم لدفع أثمان باهظة للحصول عليه، ومن ثم فإنهم كانوا يقومون بصيد جيرانهم من الإفريقيين من القبائل الأخرى وبيعهم للعرب.

ووصلت قوافل جمع الرقيق عربًا إلى البحيرات الاستوائية، وبحيرتي نياسا وتنجانيقا وحوض الكونغو، ووصل العرب إلى مملكة الباجندة (أوغندا حاليًا) وأقاموا بينهم، ولم يكن الباجندة يعرفون اقتناء الرقيق، ولكنهم حصلوا عليه بصيده من القبائل المجاورة وأمدوا العرب به، ثم تكن أراضي بوجندة أو البنيورو (جزء من أوغندا الحالية) مجالاً لصيد الرقيق لقوة ملوكها وإنما مورست عمليات الصيد خارجها[1].

كانت كلوة تستقبل رقيقها من بحيرة نياسا أو من جنوب تنزانيا، وكانت أكبر سوق لتصدير الرقيق بعد زنجبار، وكان حكامها العرب يتعاملون مع تجار الرقيق الفرنسيين الذين كانوا يشترون الرقيق ويحملونه على سفنهم الخاصة إلى جزر ريونيون والكومور.

أما أسعار الرقيق فكانت تختلف حسب السن والنوع ودرجة الوسامة والجمال، كما أن الأسعار يتباين من منطقة لأخرى، وفقًا لقربها أو بعدها من السواحل والضريبة التي تفرض على الرأس تزداد وتنخفض حسب منطقة التصدير وحجم المخاطر واحتمالات مصادرته من جانب سفن التفتيش بعدما ألغي الرق، وكان التجار يفضلون شراء الرقيق من النساء أو الأطفال دون الذكور البالغين فكان سعر المرأة يصل إلى ٣٥ دولارًا والصبي ما بين ٧ ـ ١٥ دولارًا، وكان يتم تبادل الرقيق بالأقمشة ويقابل ثمن الرأس

---

(١) العرب في إفريقيا (إصدار قسم التاريخ) كلية الآداب جامعة القاهرة ... دار الثقافة العربية القاهرة ١٤٠٢هـ ١٩٨١م) د. محيي الدين محمد مصيلحي ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

الواحد من الرقيق كان يعادل ثمن ثلاث قطع من القماش وأحيانا ثمن بندقية واحدة وخمس قطع من القماش بينما كانت الأنثى تباع ببندقيتين وعشر قطع من القماش

ورغم اختلاف أسعار الرقيق فإن هذه الأسعار قد انخفضت مع زيادة إمدادات الرقيق من الداخل، كما أدت عمليات حظر تجارة الرقيق إلى مزيد من خفض الأسعار حرص تجار الرقيق على التخلص من الرقيق الذي يحتجزونه قبل مصادرته. وكان الرقيق سلعة تدفع مقابل الحصول على الغذاء في الداخل لدى بعض القبائل أو مقابل الحصول على بعض الصنائع الأجنبية، كما كان العرب يحصلون عليهم من بعض الزعماء بطريق الهدايا أو مقابل الاعتذار عن أضرار أصابت قوافلهم من جراء الحروب الأهلية الداخلية أو الهجمات القبلية عليهم.

وكان الرقيق يعتبر سلعة تتسم بارتفاع نسبة الفاقد، لأن جزءاً كبيراً من الرقيق كان يقع فريسة المرض كالدوسنتاريا أو الجدري أو الحمى، كما كان عناء الرحلة وسوء الغذاء وقسوة المناخ يزيد من عامل الفقد، هذا فضلاً عما كان يحدث أحياناً من هروب بعض الرقيق من القوافل التجارية، ومن ثم كان سعر الرقيق في الداخل منخفضاً نسبياً، وكلما تقدمت القوافل نحو الساحل ارتفع سعر الرقيق

كان الرقيق يشحن علانية من الموانئ الكبيرة على ساحل شرق إفريقيا، وبعد أن شددت حملات مصادرة الرقيق وحظر الاتجار لجأت التجارة إلى الموانئ الصغيرة ومصبات الأنهار غير المعروفة، ولم تفلح عمليات حظر الاتجار في الرقيق في منع تهريب الرقيق حتى إلى المستعمرات البريطانية نفسها التي قادت حملات حظر الرقيق، ولا شك أن استمرار التجارة كان مبعثه أرباحها العالية، مما دفع المسئولين الاستعماريين إلى التورط في هذه التجارة مع التجار العرب والهنود

وتمثل جزيرة مدغشقر نموذجًا لتصدير الرقيق واستيراده في وقت واحد، وكان لتجار الرقيق العرب مركز دائم على الساحل الشرقي للجزيرة، وكان ملك مدغشقر يفرض ضريبة على كل رأس من الرقيق المصدر تصل إلى دولارين ونصف، وكانت مدغشقر حالية هادئة تمول عمليات صيد الرقيق من الداخل، وكان متوسط ما يصدر من الجزيرة من الرقيق سنوياً يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف رأس. وكان رقيق مدغشقر يصدر إلى شبه الجزيرة العربية والخليج العربي والأمريكتين والهند

أخذت مدغشقر مستورد الرقيق رسمياً لمشروعاتها الزراعية التي تركزت وسط الجزيرة، لأن التجار العرب تواطؤوا مع الهنود وبعض أفراد البيت الحاكم وبدءوا يصدرون الرقيق من مناطقها الجنوبية والغربية والشرقية وعملوا على تهريبه خارج الجزيرة للحصول على أرباحه العالية، الأمر الذي أدى إلى نقص العمالة اللازمة لزراعة جزيرة مدغشقر. ولم يستطع حكام هذه الجزيرة الإفريقيون السيطرة على عمليات التهريب، وكان الرقيق المستورد في مدغشقر يأتي أساساً من موزمبيق وزنجبار.

لعب العرب في مدغشقر دور المستورد والمصدر للرقيق، حيث كانوا يشحنون الرقيق من مدغشقر إلى الخارج، ثم تعود سفنهم بعد بيع شحناتها إلى موانئ مدغشقر محملة بالأقمشة أو الصنائع الآسيوية الأخرى، ثم تبحر في المحيط الهندي.

وكان التجار العرب في مدغشقر والذين أطلق عليهم لفظ الأنتلا أوترا Antala Otra هم من يقومون بتصدير الرقيق واستيراده، ويرجع ذلك إلى أنهم استخدموا القوارب العربية Dhows محل السفن، وظلت السلطات البريطانية لفترة كبيرة تعتقد أن هذه القوارب لا تحمل الرقيق، كما أن كثيراً من السفن الخاصة بالرقيق كانت ترفع الأعلام الفرنسية، ثم استخدمت هذه السفن الأعلام الأمريكية، وعلاوة على هذا كان للخبرة العربية بالرياح وتيارات ممر الموزمبيقي البحرية أثر كبير في قدرتهم على الإفلات من التفتيش البريطاني، وكانت الأرباح المتزايدة من تجارة الرقيق التي كانت تفوق المائة في المائة دافعاً للعرب للتخصص في تجارة الرقيق لساحلية في ممر الموزمبيقي، كما دفعت بأفراد البيت الحاكم في مدغشقر إلى التورط فيها، بالإضافة إلى الهنود الذين عملوا على إقراض الأموال للتجار العرب لمواصلة الاتجار في الرقيق.

وينتهي بحث د. محيي الدين محمد مصيلحي حول تجارة الرقيق العربية في شرق إفريقيا إلى هذه الملاحظات:

١ - إن القلة من العرب هي التي خرجت في صحبة قوافل التجارة المتجهة إلى الداخل، وربما كانت تمثل الشريحة الدنيا من العرب في ساحل شرق إفريقيا، وإن العرب لم يزد عددهم على عدة مئات بالداخل، بالإضافة إلى ألف أو ألفين من المولدين، ورغم تسلح القوافل العربية بالأسلحة النارية فإن قوة العرب في الداخل لم تصبح قوة مؤثرة حتى بعد استقرارهم وتأسيسهم لبعض المراكز التجارية

والمستوطنات، ومن ثم كانت جهودهم في صيد الرقيق محدودة للغاية، وكان الإفريقيون هم الذين يقومون بعملية جمع الرقيق للعرب ويقايضونهم عليه، ومن ثم فإن ما ارتبط من فظائع حول صيد الرقيق في الداخل كان مبالغاً فيه؛ لأن جمع الرقيق وصيده وأسره والإغارة على القرى كان مقترناً بنشاط القبائل الإفريقية القوية وعدوانها على المنطقة المجاورة غالباً.

٢ ـ إن استقرار العرب بالداخل لم يكن ناجماً عن السيطرة وفرض القوة على الإفريقيين في الداخل إلا نادراً، ولكنه ارتبط باستمرار علاقات الود والتعاون بين العرب والإفريقيين التي ربط عامل الرغبة في الربح وتبادل المصالح بينهم حتى أدت إلى تخصيص بعض الزعماء الإفريقيين أجنحة خاصة في مناطقهم لتجار العرب.

٣ ـ إن العرب كانوا يحرصون على عدم استخدام الأسلحة النارية في صيد الرقيق رغبة منهم في توفيرها لصيد العاج وفي الدفاع عن أنفسهم؛ لأن سعر العاج أو السلاح كان أعلى قيمة من الرقيق، كما كانت تجارة الرقيق تتسم بارتفاع نسبة الفاقد فيها إذا ما قورنت بالتجارة في العاج والسلاح.

٤ ـ إن معظم الرقيق الذي كان يشتريه العرب من الداخل كان من الصبية والنسوة لأن الطلب الخارجي عليهم كان كبيراً وكان سعرهم مرتفعاً، ولم يكن الطلب على البالغين من الذكور من الرقيق عالياً إلا في المشروعات الزراعية في الساحل الشرقي الإفريقي أو بعض جزر المحيط الهندي، وكان نطاق هذه المزارع محدوداً ولا تبرر الحاجة إلى العمالة في جمع الأعداد الكبيرة من الرقيق في الداخل.

٥ ـ إن ربط تجارة الرقيق بتجارة العاج كان من خلال الحصول على الرقيق بشراء الأراضي في الساحل وتحويلها إلى مزارع للمحاصيل النقدية مثل القرنفل وجوز الهند، ثم استثمار المال من التجارة في هذه المحاصيل لجمع العاج والاتجار فيه.

٦ ـ إن تجارة الرقيق العربية تواطأ فيها الهنود والأوروبيون والأمريكيون والأفارقة كما حدث في جزيرة مدغشقر مع العرب، وإن انحصر دور الهنود كممولين ودور الأفارقة كجامعين وصيادين للرقيق.

٧ ـ إن أرقام الرقيق وأرباح التجارة ذات سمة تقديرية، ويرجع السبب في عدم وجود أرقام حقيقية حول هذه التجارة إلى سرية هذه التجارة وعدم مشروعيتها وإلى عدم أمانة الهنود القائمين على إدارة الجمارك، وإلى تورط أطراف كثيرة فيها كان يهمها إخفاء حجم نشاطها الحقيقي.

٨ ـ إن بعض المناطق الإفريقية خلت من صيد الرقيق لقوة ملوكها وقبائلها.

٩ ـ صاحبت حركة القوافل العربية هجرات كثيرة من رقيق الداخل إلى الشرق لاستخدامهم بالخدمة في المزارع العربية في الساحل، كما أدى امتداد حدود تجارة القوافل العربية إلى مسافات بعيدة نحو الغرب إلى ضعف قدرة الزعماء الإفريقيين عن الدفاع عن مناطقهم أو إحكام الرقابة على عمليات صيد الرقيق.

١٠ ـ لم يكن العرب هم وحدهم من مارسوا النشاط التجاري في الرق فقد كان للهنود نشاط موازٍ في هذه التجارة وكانوا يقومون بالوساطة التجارية وتمويل قوافل الرق[1].

* * *

التباين الجوهري

كان ثمة اختلاف جوهري بين تجارة الأطلنطي في الغرب الإفريقي وتجارة المحيط الهندي في الشرق الإفريقي في العصر قبل الغزو الأوروبي، وهذا الفارق لم يصح في صيغه ولكن تأثر مختلفة عن بوحدة في السبب الدافع إلى هذين النوعين من نظم التجارة عبر المحيطات. لم تكن تجارة المحيط الهندي أساساً تجارة جلب العبيد لا في العصور القديمة ولا في العصور الوسطى ولا في أي وقت قبل القرن الثامن عشر. وكما هو شأن في معظم مناطق العالم القديم كان ثمة قدر من التعامل العبودي عبر البحار في هذه المنطقة في الأزمنة الأولى. كانت مصر تشترى المقصيين من أرض بونت وأرض بونت تشكل الآن الساحل الشمالي للصومال الحديث، وكانت الجزيرة العربية تصنع شر وكان العبيد الإفريقيون معروفين في فارس وما حولها والبعض منهم كان يوجد في ممالك الهند. وفي القرن التاسع كان يستخدم بعيداً في الصين.

---

(١) محمد قسم: تاريخ العرب ... ص ١٩٤، المرجع السابق ص ١٩٤

وهناك وثيقة صينية ترجع إلى عام ١١٨٧م تشير إلى مدغشقر وتذكر أن هناك جزيرة في البحر يسكنها العديد من البدائيين أجسامهم سوداء وشعرهم مجعد، وكان يجري إغراؤهم بالطعام ثم يقتنصون ويباعون عبيداً في البلاد العربية وكانت أسعارهم عالية ويستخدمون حراساً ويقال إنهم لم يكونوا يحنون إلى أقربائهم.

بالنسبة لحضارات الشرق كان العبيد يأتون من كل حدود المحيط الهندي وليس من شرق إفريقيا فقط، كانوا يوردون إلى الصين لمدة طويلة، وأن التقرير الصيني السابق الإشارة إليه يذكر أن العبيد الذكور والإناث كانوا يباعون، وكانت السفن تحملهم كما تحمل البضائع وأن مراقباً صينياً للجمارك البحرية كتب بعد ذلك بخمسين سنة أن طفلاً عبداً قدر ثمنه بثلاث قطع من الذهب أو ما يماثلها من الخشب (يقال إنهم كانوا يستخدمون لسد ثقوب السفن سواء من داخل السفينة أو من خارجها) وأن كثيراً من هذه الضحايا البائسة كانت تأتي من إفريقيا[1].

ولكن لا يوجد دليل يظهر أن العبودية كانت هي التجارة السائدة في الشرق أو أنها صارت كذلك. لقد كانت بالفعل بنداً صغيراً من بنود التجارة. إن الشواهد المتاحة رغم قلتها تقول شيئاً آخر: إن عبيداً من أفضل نوع كان يمكن شراؤهم في القرن الثاني الميلادي من «أوبن ـ Open» وهي رأس هافون في أقصى شمال القرن الإفريقي، ومن موانئ شرق إفريقيا إلى رأس هافون لا توجد إشارة إلى العبيد في ذلك الوقت. ولا توجد إشارة إليها لدى الكتاب العرب في العصور الوسطى، ولم يذكر هؤلاء الكتاب حالة واحدة يركز عليها بالنسبة للعبودية في شرق إفريقيا على العكس كانوا يؤكدون فقط أهمية شرق إفريقيا باعتبارها مصدراً للعاج والذهب والمواد الخام الأخرى.

يقتطف من الجغرافي العربي المسعودي الحديث عن أهم أنواع التجارة والصادرات وهو الذهب دون الإشارة لتجارة الصادر من العبيد في شرق إفريقيا ويتكلم أيضاً عن المدن السواحيلية وعن تجارة كلوه في هذه الأزمنة بالطريقة نفسها

ولكن للإنسان أن يصل إلى النتيجة نفسها بطريق آخر هل كان الشرق يحتوي على مزارع واسعة ومناجم عديدة مما يتطلب جيوشاً كبيرة من العمل العبودي؟ ببساطة لم

(١) المرجع السابق The African slave Trade, P. 188-189

يكن يوجد ذلك، كما أنها لم تكن توجد في الغرب الإفريقي قبل عبور الأطلنطي. هل كانت توجد أقليات إفريقية كثيفة في الشرق تقارن بالأقليات الإفريقية في أمريكا؟. لم يكن يوجد ذلك. وإن القول إن التجارات القديمة في المحيط الهندي كانت تتعامل في العبيد بالمنطق نفسه التي تعاملت به تجارة الأطلنطي هذا قول وهم محض نشأ من الضمير الأوروبي، إن ما كان قد حدث هو وجود العبودية بشكلها المعروف ولكن على نطاق ضيق بين عدد من الدول في عالم العصر الوسيط. كانت تجارة ثانوية ونادراً ما كانت مهمة في التوازنات العامة للثروة وللمشروعات الاقتصادية.

إن الاختلاف حاد جداً بين هذا الوضع وبين التجارة عبر الأطلنطي، فالاحتكاك والتبادل عبر المحيط الهندي على مدى ألف سنة لم تكن العبودية فيه ذات أهمية، وهذه الاحتكاكات والعلاقات عبر المحيط الهندي سمت بالشعوب على الساحل الشرقي إلى العصرية الكامنة في مجتمع الحضارة الشرقية وأتى ذلك بعائده على البلاد الأصلية، ولكن على مدى أقل من خمسمائة سنة من العلاقات عبر الأطلنطي كانت العبودية ذات الأهمية القصوى في هذه العلاقات ولم يكن يمكن الادعاء بأنها أنتجت عصرية كاملة في مجتمع الحضارة الشرقية أو العربية، إن العكس من ذلك تماماً هو ما حدث.

وهذه المدن التي كانت قائمة على الساحل الشرقي قد اختفت وزالت بغير خطأ يعود إلى أهلها، دمرها البرتغاليون وكانت السرقة هي المفتاح في طموح هؤلاء المكتشفين الأوروبيين. وقد سيطر البرتغاليون على الساحل الشرقي لإفريقيا بعد رحلة ڤاسكو دي جاما وكانت سفنهم تأتي متتابعة على مدى كبير من السنين، وكانت تحمل أوامر خاصة بالسيطرة على المحيط الهندي وتحويل المدن الشرقية الإفريقية إلى مجرد موانئ لهم وتحصيل الضرائب منهم بالنهب وتأسيس السيطرة البرتغالية. وقد ووجه البرتغاليون بالمقاومة، ولكن المدن الساحلية الإفريقية لم تكن لديها المدافع. وكانت المدافع لدى البرتغاليين مصحوبة بنوع من القسوة والتصميم لم تعرفه هذه الشواطئ من قبل. كان غزواً دموياً استسلمت بعده كلوه وممبسة وزنجبار وغيرها.

وأحياناً كان البرتغاليون يتلقون المساعدة والمعونة من واحد أو آخر من الحكام الإفريقيين ضد حاكم أو آخر من الإفريقيين، وأدى هذا على سبيل المثال إلى سقوط

حكم جزر «كريمبا Kerimba» في شمال موزمبيق. ففي عام ١٥٢٢م قبل البرتغاليين موجودين في موزمبيق التي كانت القاعدة الأساسية لهم في الساحل الشرقي جاء إليهم رسل من وكمبار وغيرها من أقصى الشمال وذكر هؤلاء الرسل أن حكامهم سيقبلون حماية البرتغاليين بدلاً من كريمبا وكانوا في ذلك يطلبون حماية البرتغاليين وقد تسبب هذا الوضع في حرب مع كريمبا انتهت بسقوطها(١).

* * *

تدمير القرى

سقطت على شرق أفريقيا التواريخ المكتوبة للعربي من الرحالة منذ أن وطئها البرتغاليون، كانت المعلومات التاريخية عن الشاطئ ترد قليلاً جداً حتى ظهر الأسطول التركي في البحر الأحمر في القرن السادس عشر وأوقف الزحف البرتغالي

لم تكن السلطنة العثمانية تميل إلى اتخاذ قرار حاسم ضد تجارة الرقيق؛ لأن الأناضول وهي قلب الإمبراطورية تشمل أسواقاً للعبيد السود، ولأن شركة العزيزية وهي من خطوط الملاحة التي يسهم فيها خديو مصر بأسهم كثيرة كانت تنقل العبيد السود من الإسكندرية إلى موانئ الأناضول ثم تحملهم سفن صغيرة إلى مناطق مختلفة. وقد استوردت الأناضول وحدها نحو ثلاثة آلاف من العبيد السود أتوا بالبحر من مصر أو بطريق البر عبر بغداد أو مع الحجيج العائد من مكة والمدينة. وكان شبان مخصيون يباعون في الجزيرة العربية ليقوموا بأعمال الإشراف على الأماكن المقدسة، وكذلك حراسة الحريم وأماكن نزول الحجاج. وكانت الأناضول تشكل سوقًا واسعًا للخصيان، وبقيت كذلك على مدى القرن التاسع عشر. وفي الأناضول كما في غيره من بلاد المسلمين كان الخصيان يعاملون باحترام شديد وقد سجل أحد تقارير مكافحة العبودية ما يلي: «أن أي خصي سواء كان من خصيان السلطان أو من خصيان حريم شخص كبير عندما يدخل أي مركبة عامة في إسطنبول كان الأتراك جميعًا في المركبة يقفون له ويؤدون السلام باحترام ويظلون واقفين حتى يجد الخصي مكانًا مخصصًا فيه»(٢).

---

(١) المرجع نفسه The African Slave Trade P. 190-193

(٢) المرجع نفسه The African Slave Trade P. 155

ولكن نظام العبيد في الإمبراطورية العثمانية كان مختلفًا بالنسبة للنظر إليه وإلى طريقة التعامل معه . وطبقًا لتعاليم الإسلام والشريعة الإسلامية كان العبيد أناسًا لهم حقوق . وفي الواقع فإن كثيراً من الجنود ومن رجال الدولة كانوا من عبيد السلطان وترقوا حتى صاروا جنرالات في الجيش وحكامًا للأقاليم وغيرها . وكان من المسلمين من ولدوا أحراراً ولديهم بذلك مناعة من أن يسترقوا استطاعوا أن يتسللوا حتى يصيروا عبيداً للسلطان ومكنهم ذلك من الوصول إلى أن يكونوا ذوى وظائف عالية في الدولة . إن الجارية المحظية للسلطان كان ابنها يصير سلطانًا وكانت ذات وضع متميز ، طبعًا كان هناك عدد لا يحصى من العبيد يعاملون معاملة قاسية وكان منهم من يعملون في مزارع أصحاب الملكيات الكبيرة ، ولكن يظل أن أعدادهم لم تكن بالقدر الذي يجعلهم مصدراً للتراكم الرأسمالي وكانوا يشكلون الطابع الغالب للعمالة في مجالات الإنتاج .

وفي الأساس فإن الفرق بين النظام العبودي العربي والنظام العبودي العثماني وهو نظام إسلامي يخضع إلى حد ما لضوابط الفقه الإسلامي ، الفرق هو ما بين الاستغلال التجاري في مجالات الإنتاج والاستخدام المنزلي ، هذا لا يجعلنا نتجاهل العبيد الذين يعملون في المنازل في المستعمرات الغربية ، كما لا يجعلنا نتجاهل العبيد الذين يعملون في الأنشطة التجارية والإنتاجية وبوصفهم عمالاً في الإمبراطورية العثمانية ، ولكن قاعدة الرق في الغرب كانت تقوم على الاستغلال الاقتصادي للعمل العبودي في حين أنه كان في الإمبراطورية العثمانية يقوم على أساس الخدمات الشخصية ، وكان العبيد في الغرب يوجهون إلى الإنتاج الاقتصادي ، بينما كانوا في الإمبراطورية العثمانية شكلاً من أشكال الاستهلاك[1] .

أوقف تواجد الأسطول التركي في البحر الأحمر توغل النفوذ البرتغالي في شرق إفريقيا ولكن السلطة العثمانية لم تستطع أن تحرر المنطقة من الغزو الخارجي ولم تسلم السواحل الشرقية من تهديد الدول الاستعمارية الأوروبية الأخرى ، وسرعان ما جاء الإنجليز والفرنسيون والهولنديون يعملون في المحيط الهندي وتحول شرق إفريقيا إلى بؤرة وصراع وتنافس دولي ، وباتت تجارة الرقيق محور نشاط هذه الدول وهدف دول

(١) المرجع السابق The African slave Trade, P. 103-117

الساحل ، ويمكن للمرء أن يدرك ذلك من تقرير فرنسي عن كلوة يذكر أنه على الرغم من أن الفرنسيين أبحروا تجاه الشرق حول رأس الرجاء الصالح قبل الإنجليز والهولنديين بكثير ، فإنهم لم يهتموا قط بالشاطئ ولم يتركوا أثرًا . وفي بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدءوا يتبعون الساحل بحثًا عن العبيد الذين يطلبونهم في مزارعهم في جزر المحيط الهندي البربون bourbon وموريشيوس . وكان الرائد في هذه التجارة فرنسيًا يسمى «موريس» هرب بعد أن عطبت سفينته إلى كلوة وتقرب من السلطان الذي أعطاه قطعة أرض في كلوة بأربعة آلاف قرش . واستمر هو هذا النجاح بعقد اتفاقية مع السلطان منحته امتياز احتكار تصدير العبيد ، إن هذه الاتفاقية التي عقدت في سنة ١٧٧٦م كان لها صدى بعيداً في التطبيق ، لقد وعد السلطان بأن يسلم ألف عبد كل سنة مقابل عشرين قرشًا للواحد منهم ويأخذ «موريس» قرشين عن كل عبد ، ولم يسمح لتاجر عبيد آخر أن يعمل حتى يكتفي موريس ويعلن اكتفاءه

انتعشت التجارة نوعًا ما وثمة تقرير فرنسي آخر عن الفترة نفسها هو خطاب موجه إلى وزير البحرية الفرنسي يتضمن ملاحظات عن قبطان في تجارة العبيد يسمى «جوزيف كراسون» ذهب مرتين إلى كلوة في شئون تتعلق بتجارة العبيد وذلك في السبعينيات من القرن الثامن عشر . وقد وجدها مكانًا فقيرًا وفي حالة من الفقر وقال إن كلوة تستطيع أن تصدر التبل والفلفل وقصب السكر والصمغ بوفرة وقد نجح في أن يعقد صفقة مع السلطان وحصل بها على عدد من العبيد المحتجزين في الوقت الذي كان فيه السلطان يطلب حماية الفرنسيين له من أعدائه المجاورين بمن فيهم البرتغاليون . وقد بقيت التجارة في العبيد قليلة الشأن . وذكر «كراسون» أن السفن الفرنسية استلمت نحو ٤١٩٣ عبداً من كلوة في السنوات الثلاث السابقة وأن نصيبه منهم كان ٣٨٣ عبداً ، وكان تكلفة كل واحد منهم ٤٠ قرشًا ضعف الثمن الذي وافق عليه «موريس» من قبل وقد حملوا إلى موريشيوس وبوربون وبعضهم حمل إلى جزر الهند الفرنسية . وقد بلغ ما أخذ من العبيد إلى الجزر الفرنسية من موانى شرق أفريقيا الأخرى نحو ١٧٩٩ عبداً .

ولكن تجارة العبيد الأوروبية في الساحل الشرقي لم تكن هي نهاية القصة الحزينة لشعوب هذه المنطقة ، فقد تدخلت قوى ساحلية أخرى في هذه الأعمال كانت تجار

أهمهم . ذكر بحار بريطاني كابتن «سمى - Smee» فى سنة ١٨١١م أن حاكم زنجبار يسمى «ياقوت» كان يتعاضى عشرة دولارات على كل رأس من العبيد يسلم إلى الفرنسيين لمزارعهم فى موريشيوس والبربون . وكما كان «ياقوت» يبيع للفرنسيين كان يسلم للأسواق الشرقية الأخرى، بين ستة آلاف إلى عشرة آلاف من العبيد سنويًا، وإن كان ذلك يجرى بطريقة غير منتظمة وليس فى كل سنة، كما أن الإجماليات الحقيقية تظل غامضة.

هؤلاء العبيد المصدرون كانوا يوجدون على نطاق صغير نسبيًا مقارنًا بما يصدر من غرب إفريقيا إلى أمريكا، ففى الغرب كانت البرازيل تتسلم أكثر من خمسة أضعاف هذه الأعداد . وأيا ما كانت الشرور الخاصة بتجارة العبيد فلم تكن شعوب الساحل الشرقى يعانون كثيرًا من تجارة العبيد، ولا جيرانهم فى الداخل، وإن كان بعض تجار العبيد من عمان ومسقط قد اندفعوا إلى هذه التجارة. وفى عام ١٨١٩م عندما كان لزنجبار نصيب الأسد فى تجارة العبيد ذكر أحد المراقبين البريطانيين أن ما بيع من العبيد قد بلغ عددًا يتراوح ما بين ٤٠ و ٤٥ ألفًا . وأن نصف هؤلاء تقريبًا كان يذهب شمالاً إلى الجزيرة العربية والخليج الفارسى ومصر، وأغلب الباقى كان يهرب فى اتجاه الجنوب للبرتغاليين فى موزمبيق، وكان هؤلاء يرسلونهم إلى البرازيل فى سفن العبيد الأمريكية التى تحملهم من هذا المصدر.

وفى عام ١٨٤٠م فإن عملية استخراج العبيد من شرق إفريقيا صارت على قلتها النسبية عربية، وفى ذلك العام فإن سلطان عمان نقل عاصمة مسقط إلى الجزيرة التابعة له زنجبار. وكان حاكمًا ذا مواهب تجارية فائقة فنظم تجارة زنجبار وفى جزء كبير من الساحل على أسس جديدة. وبدأ ينعش الصادرات من المنتجات الطبيعية المستخرجة من الأراضى الإفريقية (القرنفل بالذات) الذى زرعه على نطاق واسع وأرسل مبعوثين للبلدان الشرقية ليكسب أسواقًا جديدة وينعش الأسواق القديمة أيضًا، وبدأ التجار العرب ينتعشون ويستعيدون ماضيهم فى العصور الوسطى ويتعاملون مع الشاطئ الجنوبى للصين، وبُذلت جهود كبيرة لإعادة بناء التجارة المزدهرة عبر المحيط الهندى بين شرق إفريقيا والمتعاملين القدامى معه، ولكن كان هناك اختلاف فقد صارت العبودية جزءًا مهمًا من هذه التجارة.

إن السنوات السابقة على سنة ١٨٤٠م والسنوات اللاحقة لها بشكل خاص هي ما حدث فيها تغلغل عرب الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية في داخل شرق إفريقيا. لقد ذهب هؤلاء ووكلاؤهم السواحيليون عبر طريق التجارة القديمة من بجاموبو وكلوه وطنجة، وأسسوا سريعًا مراكز للتجارة عند البحيرات الكبرى في وسط إفريقيا وأماكن مناسبة بينها. وكانوا مسلحين ببنادق قديمة واندفعوا إلى الداخل، وكما يصف أحد البريطانيين أن عرب زنجبار بلغوا منتصف القارة تقريبًا وأنهم في سنوات قليلة يمكن أن يلتقوا بالشعوب الآتية من لواندا (أنجولا) من الشاطئ الغربي، وأن أرشيفات أنجولا سنة ١٨٥٢م تتحدث عن الاتصال المباشر للمرة الأولى بالتجار العرب، وأن ستة منهم عبروا القارة فعلاً من الشرق إلى الغرب في هذه السنة.

كان هذا التغلغل العربي إلى الداخل يحمل هدف تصدير العبيد للمزارع الجديدة في زنجبار وحيازات الحديدة هناك، وهذا أدى إلى التدمير الذي لاحظه المستكشفون. لقد كان هذا التدمير حديثًا في المناطق التي يؤخذ منها العبيد. والنقطة هنا أن هذا التدمير الذي لاحظه المستكشفون لم يكن خاصًا بشرق إفريقيا وحدها ولا تاريخها وحده لا في وسط إفريقيا ولا على السواحل. وبعد مجيء سلطان عمان وتجاره لوحظ أن هذا النظام جميعه للتجارة الداخلية قد توسع وانتعش أكثر كثيرًا من العمليات التي كان العرب يرتبطون بها لعصور طويلة في الماضي. ولكن حقيقة الدمار الذي حدث في الداخل كان دمارًا حديثًا لا يقاس بما فعله التجار البرتغاليون في جنوب من وادي الزمبيزي، ومع ذلك فإن هذا البؤس العبودي ألصق بالعرب وحدهم.

من هذه الحالة وبواسطة الطرق ذات الاتصال المباشر أو غير المباشر ظهرت المشروعات الإمبريالية ووقائع الغزو. وهذا الغزو الإمبريالي للداخل الإفريقي كان يبرر دائمًا بأغراض إنسانية أساسها قمع تجارة العبيد العربية. ومن المؤكد أن هذا الهدف كان يحتاج إلى من يفعله، وقد فعله فورًا فعلاً بواسطة البريطانيين والبلجيكيين، ولكن في مقابل إخضاع جديد للإفريقيين الذين صاروا يعانون من أشكال جديدة من العبودية. وهنا يمكن للإنسان أن يلحظ بوضوح كيف أن عجز المؤسسات الإفريقية عن مقاومة العبودية كان هو السبب الرئيسي للإطاحة بها وأن المصدرات التقليدية والعبودية الداخلية قد تحولت بشكل كارثي إلى التشدد على تجارة

العبيد من أجل التصدير، وكان هذا الدمار كبيراً فى هذه الأقاليم وخاصة فى شرق إفريقيا؛ حيث لم تكن الأشكال الأخرى لتجارة العبيد العابرة للمسافات الطويلة، مزدهرة فقط.

من المهم فهم هذه العملية، أن أيديولوجية الفتح الاستعمارى التى تمت بقوة فى أوروبا قد أنعشت مفهوم أن الإفريقيين غير قادرين على حماية ثقافاتهم وتطويرها ولم يكن ذلك حقيقيًا، ولكن تجارة العبيد جعلته حقيقة، إن الأوروبيين قدموا صورة لداخل القارة الإفريقية، صورة متوحشة بشكل كامل وغير قابل للإصلاح وتعتمد على القسوة وإراقة الدماء وعدم القدرة على حماية نفسها، وأن كل أقصوصة شريرة - وكان يوجد منها الكثير - كانت تقوى هذا الانطباع، وبقى بعد ذلك حقيقة واحدة لهذه المشكلة وهى الحق فى الإلحاق[1].

هذه الأيديولوجية تأكدت، وأن الإنسان ليجد كتابًا بعد كتاب فى الفترة الإمبريالية يحتوى على ذكريات عما تحمله عبء الرجل الأبيض أو ما يبرر حمله لهذا العبء، مثل ما كتبه «كوبلاند - Coupland» وهو مؤلف كتب إنجليزية مرجعية عن تاريخ شرق إفريقيا، كتب فى سنة ١٩٢٨م يقول: «إن فعلاً جديدًا من تاريخ إفريقيا بدأ مع الرحالة ديفيد لفنجستون ويجب القول إن إفريقيا الحقيقية لم يكن لها تاريخ وإن الجسم الأساسى للإفريقيين بقى غير محكى عنه موغلاً فى البربرية!! وهكذا بقى راكدًا إن قلب إفريقيا نادراً ما كان ينبض»، وبهذه الطريقة كتب كوبلاند عن مدن السواحيلى قائلاً إنها كانت مستعمرات عربية من العصور الأولى وبقيت كذلك.

يقول بازيل ديفيدسون: «نحن نرى الآن أن كوبلاند مخطئ بلا شك، كان مخطئًا بالنسبة للمدن الساحلية؛ لأنه تجاهل طبيعتها الساحلية، وأنه أخطأ بالنسبة لشعوب الداخل فهم يكونوا منغمسين فى البربرية كما قال. كان ثمة نوع من البربرية بالمعنى المعجمى الضيق ما داموا غير متعلمين وليسوا فى الحضر ولكنهم بالتأكيد لم يكونوا برابرة بالمعنى الذى كان يؤكده كوبلاند، بمعنى أنهم لا يحوزون قيمًا أخلاقية ولا قوانين ولا حكومات ولا حضارة خاصة بهم، وهم أيضًا لم يكونوا باقين على الركود لقد

(١) المرجع السابق The African slave Trade. P. 198-201

تحركوا خلال حقب كثيرة من التطور الاجتماعي، بحيث كانوا عاديين مع الفروع الأخرى للجنس البشري. إن ما وجدته أوروبا الغازية لم يكن فقدانًا أو اضطرابًا كما تصور الكثيرون ولكن كان كوارث نتجت عن أزمات اجتماعية مفاجئة وكانت هذه الأزمات هي ما فتح الطريق للاحتلال الاستعماري. ولا شك أن النتيجة الكبرى لذلك كانت هي تجارة الرقيق في القرن التاسع عشر التي شاهدها شرق إفريقيا».

(جـ) ١ـ قرن الرعب

في كل قرون تجارة الرق يعتبر القرن التاسع عشر هو الأكثر في عدد من استرقوا أو استعبدوا من الإفريقيين رجالاً ونساء وأطفالاً وهو أيضًا أكثر عددًا بالنسبة لمن قتلوا في هذه العمليات. وقد أدى ذيوع الجريمة البشرية على نطاق واسع إلى ضغوط من العالم الغربي ضد هذه التجارة، وتزعمت بريطانيا حملة تحريم الاتجار في الرق بحجة انتهاك هذه التجارة للمبادئ الإنسانية، والواقع أن بريطانيا سعت إلى إلغاء الرق بعد أن فقدت مستعمراتها في أمريكا الشمالية وقلت حاجتها إلى الرقيق هناك ولم يعد الرق الذي يذهب من إفريقيا إلى أمريكا مما يعود بالربح على بريطانيا بعد أن فقدت سيطرتها في أمريكا

ورغم محاولات إلغاء تجارة الرق فإنها استمرت في شرق إفريقيا نتيجة عدة عوامل منها التوسع الزراعي في زنجبار وفي الساحل الشرقي الإفريقي خاصة في مجال زراعة القرنفل وجوز الهند والمطاط والحبوب وحاجة المزارع المتزايدة لليد العاملة من الرقيق، كما كانت قسوة ظروف العمل في المزارع الساحلية تدفع الرقيق المحلي إلى الهرب، وكانت نسبة الوفيات تصل إلى ٢٢٪ من قوة العمالة في المزارع تؤدي إلى نقص العمالة وتستدعي وصول أعداد جديدة منها من الداخل. وكانت القروض التي يقدمها الهنود لأصحاب المزارع العربية لتسيير قوافل تجارية من أجل الحصول على الرقيق والعاج تسهل لهم ذلك، بالإضافة إلى الحاجة إلى الرقيق لمزارع قصب السكر في جزر موريشيوس ومدغشقر، فضلاً عن الارتباط الوثيق بزيادة الطلب العالمي على عاج شرق إفريقيا[1].

---

(١) سمار قسم التاريخ. المرجع السابق. د. محيي الدين مصطفى ص ١٨٤.

وتعددت أسواق الرقيق، وكان سوق زنجبار كما سبقت الإشارة هو السوق الرئيسي فيه سوق كلوه، كما وجدت أسواق صغيرة في ممبسة ومالندي ومقديشو. وحين شتدت عمليات التفتيش عن الرقيق ونشطت الدوريات البريطانية الساحلية خرجت السفن العربية التي كانت تحمل الرقيق على تحت زنجبار والاتجاه شرقاً بعيداً عنها رافعة أعلاماً أجنبية فرنسية أو فارسية، كما كان الرقيق تشحن في قوارب صغيرة لا تتسع لأكثر من عشرة أشخاص ويقدم أصحابها إقرارات بأن ما عليها تجارة. وكان الرقيق يجمع من أسواق الصومال الداخلية ومن قلب الهضبة الحبشية واشتهرت الجزيرة العربية بالرقيق الأسود الذي يعمل في خدمة المنازل، وكانت السفن العربية تأتي من الجزيرة حاملة التمر أو الأسماك، حيث تقوم ببيعها ثم تشتري بها رقيقاً أو سلاحاً من سواحل إفريقيا الشرقية خاصة جيبوتي. وكان استخدام بعض السفن للأعلام الأجنبية يتم بناء على اتفاق بين السلطات الأجنبية والعربية تبادلاً للمصالح[1].

كان العمانيون العرب يتاجرون في الرقيق على طول ساحل إفريقيا الشرقية لقرون عديدة. وقد كتب أحد الأطباء الإيطاليين الذين كانوا يعملون في مسقط سنة ١٨٠٩ - ١٨١٤م يقول إن أغلب دخل هذه المنطقة كان يأتي من استيراد العبيد[2]، وأنه بالنسبة لسكان العمانيين البالغ عددهم حوالي ٨٠٠ ألف كان السود يمثلون واحداً من كل ثلاثة في عمان، وكان يرد إلى عمان كل سنة نحو ألفين من العبيد تقريباً غير ما كان يباع على طول الساحل.

وخلال القرن الثامن عشر صارت كلوة الميناء الأساسي لإفريقيا الشرقية بالنسبة لتصدير العبيد الذين كانوا يجلبون من الجنوب الشرقي من تنجانيقا وكذلك من منطقة بحيرة نياسا، وكان العمانيون على الساحل يتمركزون في زنجبار، وعندما سيطروا على كلوة في منتصف سنة ١٧٨٠م حولوا هذه الجزيرة إلى تجارة العبيد. وفي سنة ١٨٣٤م كان تصدير العبيد بلغ عدداً سنوياً يقدر بـ ٦٥٠٠، وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر كان العدد السنوي يتراوح ما بين ١٤ ألفاً و١٥ ألفاً، وقسم من هؤلاء العبيد كان يوجه إلى أسواق الشرق الأوسط، وبعضها كان يستخدم في الزراعة في زنجبار، حيث نمت زراعة القرنفل بعد سنة ١٨١٠م وازداد الطلب العالمي عليه. وفي الخمسينيات من القرن التاسع عشر فإن سكان الجزيرة كانوا يضمون ما لا يقل عن ٦٠ ألفاً من العبيد

---

(١) سمسار قسم التاريخ - المرجع السابق - ص ١٨٦

(٢) يجب التحفظ على هذا القول لأنه في ذلك الحين كانت بها تجارة متنوعة تجوب حتى الهند والصين

إن حكم عمان السلطان سعيد نقل مقره إلى زنجبار سنة ١٨٤٠م وتحولت الجزيرة بفضل سياساته إلى أن تكون أهم إقليم خاضع لحكمه، وأن تكون الميناء الدائم على الجانب العربي للمحيط الهندي، والمصدر الأساسي الذي يمد العالم بالقرنفل والعاج، والذي يحتوي على أهم سوق للرقيق في الشرق. وعلى هذه القاعدة من السلطة والغنى وسع السلطان سعيد سلطانه في داخل إفريقيا. ازدهرت بجاموير بزراعاتها وبقربها من زنجبار فصارت مركزاً مهماً لتجارة الرقيق. وكانت تجارتها تمول في الأساس من الأسيويين الآتين من الهند واستقروا في المدن الساحلية وخاصة زنجبار.

وكان من يباشرون التجارة منهم عرباً يسمون عرب الشمال أو العمانيين، وفي الحقيقة ربما يكون أكثر من مارس تجارة العبيد هم العرب الأفارقة، وقد صارت التجارة زنجبارية أكثر منها عمانية مع الوقت. ومن المؤكد أن الكثير من تجار العبيد الأساسيين مع العديد من المتعاملين في العبيد في ذات الأقاليم كانوا من السود مثلهم في ذلك مثل ضحاياهم. وكانت القوافل العربية تواجه مصاعب كثيرة منها الحاجة إلى إمدادات الغذاء وإلى الحمالين من الإفريقيين ومواجهة قبائل الداخل مما اضطرهم إلى مهادنة زعمائها الإفريقيين ومدهم بالسلاح والأقمشة ودفع رسوم مرور عبر أراضيهم طلباً للحماية. وكانت الحروب القبلية الداخلية وارتفاع تكاليف نقل التجارة بين الساحل والداخل ونشاط بعض الإفريقيين في أعمال اللصوصية وقطع الطريق في الداخل من أهم أسباب فشل كثير من قوافل التجارة العربية وإفلاسها مع ملاحظة أن القوافل التجارية كانت زعاماتها عربية أو سواحيلية ولكنها كانت تتألف من الإفريقيين أساساً[1].

بدأ السلطان سعيد حكمه في عام ١٨٠٦م في الوقت الذي بدأ فيه الصراع الإنجليزي الفرنسي يدخل مرحلته الحاسمة في المحيط الهندي وشرق إفريقيا، وأدرك سعيد أن إنجلترا باستطاعتها أن تتوسع في سواحل إفريقيا دون أن تقوى فرنسا أو أي دولة أخرى على معارضتها، واختار سعيد الانحياز إلى جانب تلك الدولة التي ادعت أنها تحافظ له على أملاكه.

---

(١) مختار قسم التاريخ: المرجع السابق ص ١٧٩

كان الثمن الذي دفعه سعيد لصداقة إنجلترا للمحافظة على بلاده أمام قوة إنجلترا البحرية في المحيط الهندي هو قبوله للسياسة الإنجليزية الخاصة بمحاربة تجارة الرقيق، واستخدمت بريطانيا هذا الادعاء الإنساني لخلق المتاعب أمام الدول التي تعتمد على الأيدي العاملة المشتراة وهم العبيد في إنتاجها الزراعي وإضعاف إنتاج من يعتمد على العبيد لافتقاره إلى الأيدي العاملة من ناحيه ولمصادرة الأسطول البريطاني لشحنات العبيد المستوردة إليه. وإذا لاحظنا أن إنجلترا كانت تهتم بتمويل الحركات التجارية أكثر من اهتمامها بالإنتاج الزراعي، لهذا فإن إلغاء الرق لم يكن يتضارب مع أرباح أصحاب رءوس الأموال البريطانيين الذين حصلوا عليها من مصادرة الأسطول البريطاني لشحنات العبيد حيث كان يأسر السفن التي تقع تحت قبضته[1].

كان سعيد يعتمد على البريطانيين في حمايته من منافسيه العرب بالنسبة لمجال حكمه الفني، وكذلك كان البريطانيون يحمونه من مخاطر القوى الإمبريالية الأخرى الضخمة التي كانت تأتيه من تجارة الرقيق، وكان هو شخصيًا وبعض أفراد أسرته يمارسون هذه التجارة، ورغم أن الحكومة البريطانية كانت سياستها في هذا الوقت ضد تجارة الرقيق فإنها آثرت الابتعاد عن أن تثير خلافًا مع حليف لها يمكن من نفوذها في المنطقة. وكانت النتيجة هي نوعًا من التناقض الدبلوماسي الذي يتراوح بين الضغوط والمقاومة والتنازلات والتفاهمات حتى كان عام ١٨٤٥م، حيث وافق سعيد على معاهدة تمنع التجارة البحرية بين موانئ لامو في الشمال وكلوة في الجنوب فيما عدا نقل العبيد بين أقسام ما يسيطر عليه السلطان من أقاليم إفريقيا. ومن ثم انتقلت تجارة المصادر الصريحة إلى كلوة، وكان العبيد الذين يجلبون إلى زنجبار لأغراض الاحتياجات الداخلية يهربون من الأسطول البريطاني إلى مختلف الأسواق في بلاد المسلمين.

توفي سعيد سنة ١٨٥٦م عندما صارت زنجبار مستقلة عن عمان وتولى العرش ابنه ماجد الذي كان أقل انصياعًا للضغوط البريطانية. وفي عام ١٨٥٩م وحدها وصل إلى زنجبار نحو ١٩ ألفًا من الرقيق، ويعتمد هذا الرقم على الرسوم التي حصلت، ومن ثم لا يحسب فيه من تهربوا من دفع الرسوم أو المعفون منها مثل السلطان وأفراد أسرته من مهربي الرقيق.

(١) التنافس الدولي في شرق إفريقيا - د. جلال يحيى - ص ٢٢ و ٢٧.

وفى عام ١٨٦٨م ذكر القنصل البريطانى هناك أن نحو ٣٠ ألفًا من الرقيق الذين جلبوا كانوا يردون سنويًا من منطقة بحيرة نياسا إلى كلوة وأن ثلثيهم كانوا يشحنون بالسفن إلى زنجبار، أما الباقى فكانوا يرسلون إلى الموانئ الشمالية فى عمان أو غيرها وذكر تقرير القنصل البريطانى أيضًا أنه فى مقابل كل عبد يصل إلى كلوة كان هناك آخر يقتل فى عمليات الخطف والنقل[1].

وفى زنجبار كان العبيد ينزعون من السفن ومن يموت منهم يلقى فى الماء ومن يكون ضعيفًا أو مريضًا يترك على الشاطئ توفيرًا للرسوم التى تحصل عليه إذا مات قبل أن يباع، والرقيق يعطى من الطعام والماء حتى يتماثل للشفاء، ثم يعطى من الملابس ووسائل الإظهار ما يتناسب مع إعداده لسوق الرقيق حتى يباع، وكتب الكابتن كولومب وهو من الأسطول الملكى الإنجليزى فى عام ١٨٦٨م يصف واحدة من سوق الرقيق، وكان هو ممن يتعقبون تجار العبيد فى المحيط الهندى، كتب يقول: «كان هناك من أسواق المزادات التى يجرى فيها بيع الرقيق نحو عشرين، ثم وصف أحد هذه المزادات كانت المجموعة المعروضة فيما يبدو حديثة الورود، وكلهم صبية وصبايا وبعضهم أطفال. وبين هؤلاء يبدو القسم المؤلم والمرعب من انتظام العبودى وأقصد بذلك حالة البؤس والجوع الذى يعانى منه الكثيرون. كان المنظر مرعبًا وبعضهم كان عليهم أمراض جلدية وأمراض فى العيون» ومع مراقبين آخرين ممن يعادون تجارة الرقيق وضع كولومب تمييزًا بين الفظائع التى يتضمنها استيراد العبيد وبين ما يتبع ذلك من معاملة بواسطة ملاكهم العرب، وكولومب يميز بين الفظائع التى تجرى فى عملية النقل والاتجار وبين المعاملة التى يلقاها العبد بعد ذلك من ملاكهم العرب، ويعترف كولومب بأنه لم يستطع أن يكتشف ما إذا كان الرجل الحر الأسود فى زنجبار أحسن حالاً من العبد فى أى من الحالات «إن المالك للأرض يتطلب من عبده عملاً خمسة أيام فى الأسبوع وفى مقابل ذلك يعطيه من الأرض بالقدر الذى يستطيع أن يزرعه، والمالك للرقيق فى المدينة يعطى الرقيق المسكن والمأكل والملبس ويعطيه مبلغًا من المال أيضًا. وفى كل الحالات فإن النبيل العربى هو رئيس إقطاعى لمن يتبعونه وهو يقدم لهم الحماية بمعنى الكلمة وبالمعنى الذى نفهمه نحن»[2].

---

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 147

(٢) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 149

ليس من المؤكد أن حياة العبيد في زنجبار كانت بالنسبة لهم جميعًا على هذا المثال الذي ذكره كولومب، ولكن القدر المتيقن من الشواهد الحاصلة أن معاملة العبيد بواسطة ملاكهم كانت أكثر إنسانية بشكل ملحوظ من معاملة التجار لهم عند نقلهم وبيعهم.

٢ ـ قسوة المعاناة والدمار

شاعت الفظائع التي كانت تصاحب اقتناص العبيد ونقلهم وخاصة من الساحل الشرقي لإفريقيا على مدى القرن التاسع عشر، وشكلت لجنة مختارة من البرلمان البريطاني سنة ١٨٧١م للبحث في هذا الموضوع وتعقب تجارة العبيد في الساحل الشرقي لإفريقيا ولوضع نهاية لهذه التجارة ونقلها عبر البحر، وسجلت شهادتها في هذا الأمر.

يذكر أنه في سنة ١٨٦٠م فإن الأهالي من الهنود ممن كانوا يقيمون لسنوات عديدة في كلوة قالوا: إن مناطق بالقرب من كلوة تمتد مسيرة عشرة أيام أو اثنى عشر يومًا كانت لسنوات قليلة تعج بالسكان وصارت بعد ذلك خالية منهم تمامًا، وإن عربيًا عاد من منطقة بحيرة نياسا ذكر أنه ارتحل لمدة ١٧ يومًا ولم ير إلا قرى مدمرة وكانت قبل سنوات قليلة تعج بقبائل «الميجانا والميجان ـ Migana - Migan» ولم يجد فيها شخص واحد على قيد الحياة، وفي تقديرات أخرى معاصرة ترد من المبشرين والرحالة والمكتشفين والديبلوماسيين تؤكد هذه المقولة التي وردت في تقرير لجنة البرلمان البريطاني[1].

وفي إقليم «أونيام ويزي ـ Ungam wezi» بين بحيرة تانجانيقا والساحل، فإن تجارًا عربًا أو إفريقيين عربًا أنشئوا مركزين في تابورا وعلى الساحل الشرقي لبحيرة عند أوجيجي Ujiji، وكتب أحد المبشرين «سوان»: إن النظام العربي امتد إلى مناطق واسعة وسيطر على كل الجماعات القروية غير المحمية وجعل البلاد كلها ميدان معركة ولم يعد أحد آمنًا خارج الأسوار المبنية!! وذكر مبشر كاثوليكي آخر زار سوق العبيد في أوجيجي سنة ١٨٨٨م أنه وجد أكواخًا من الطين ممتدة بمكان واسع ومزدحمة بالعبيد مقيدين بالسلاسل في خطوط طويلة يظهر عليهم الجوع وبجوارهم مدفن وبعض الموتى يتركون للضياع

(١) هذه الجمعيات كانت نطاق لتبرير لبريطانيا حق التدخل والتفتيش عن تجار الرقيق وهي التي مهدت بقوى لأجنبية استعمار القارة وللإلحاق والتوسع الأوروبي.

[illegible] في [illegible] [illegible] في [illegible]

[illegible] في [illegible] في [illegible]

[illegible] على [illegible]

٢٥٠ [illegible] في [illegible]

[illegible] على ظهورهن [1].

[illegible] لا [illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] من [illegible] في [illegible]

[illegible] في [illegible]

لتحقيق غرضه.

[illegible] في [illegible] من [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible] على [illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible] من [illegible] في [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible] ١٩١١ [illegible]

[illegible] على [illegible] [2] [illegible]

[illegible]

1. [illegible] Islam's Black S[illegible]
2. [illegible]

إن القسوة في اقتناص العبيد ونقلهم زادت مع الضغط الذي كانت تمارسه بريطانيا في البر والبحر ضد هذه التجارة، وبالتالي زادت القسوة من الضغوط البريطانية التي كانت تتلاءم مع مقتضيات التوسع الإمبريالي وأعطت لهذا التوسع حجماً أخلاقياً.

وفي «أوغندا» فإن تجاراً عرباً أو إفريقيين عرباً وصلوا إلى ممالك «بوجندا» و«بونيورو»، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وجد التجار هناك مورداً خصباً للعبيد من أسرى هذه الممالك المتجاورة نتيجة الغزوات والحروب وكانوا ينقلونهم سريعاً بما يقدر بأربعة آلاف فرد في العام إلى الشاطئ. وقال الأسقف «تاكر» إنه وجد أعداداً من تجار العبيد كانوا يرشون الرؤساء المحليين ليساعدوهم في الغارات. وفي عام ١٨٩٢م عقدت بريطانيا مع بوجندا اتفاقية تمنع الغارات لاصطياد العبيد والاتجار فيها كما تمنع استيرادهم أو تصديرهم. ومع إعلان الحماية البريطانية مع هذه المملكة سنة ١٨٩٤م انتهت تجارة العبيد. وفي بونيورو في الشمال الغربي زادت تجارة العبيد من أجل الحصول على السلاح والذخيرة مع التجار العرب والعرب الإفريقيين، ولم تستطع الحملة العسكرية البريطانية على عاصمة المملكة أن تنهي هذا الأمر.

وفي المناطق البعيدة من كينيا بالقرب من بحيرة رودلف فإن تجارة العبيد نشطت في التسعينيات من القرن التاسع عشر. ففي عام ١٨٩٠م اشترك التجار في حملات امتدت نحو سنة وكونوا شراكة بينهم وكانوا يتعاملون مع التجار الهنود. وفي نهاية الحملة كانت الأرباح توزع بين الشركاء حسب مساهماتهم، ويفترض أن إعلان الحماية البريطانية في شرق إفريقيا سنة ١٨٩٥م قد أنهت تجارة العبيد في هذا الإقليم رغم أنها استمرت في الشمال الشرقي إلى ساحل الصومال حتى القرن العشرين[1].

وعلى الشاطئ الغربي من بحيرة نياسا فإن مغيرين من العرب والعرب الأفارقة عملوا وتوسعوا في ذلك حتى أعالي الزمبيزي وكانوا يصطادون الفتيات والشابات ويتاجرون في العبيد مع الرؤساء المحليين. ويظهر في شمال غرب بحيرة نياسا مدى الدمار الذي سببته هذه التجارة، حتى أن وادياً خصباً يمتد نحو ٢٥ ميلاً كان معروفاً بزراعة الغلال ومنطقة أخرى تمتد من شرق البحيرة لم تعد موجودة وقد أحرقت القرى وما تبقى من الأهالي هرب في الكهوف والجبال.

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P.161

في عام ١٨٩٠م عين هاري جونستون مبعوثاً ملكياً وممثلاً عاماً في الأراضي التي تحت النفوذ البريطاني شمال الزمبيزي وكانت مهمته هي إنهاء تجارة العبيد واستغرق ذلك عدداً من السنين ليطهر المنطقة من التجار وعملائهم.

وفي زنجبار ساعد بريطانيا كل من ألمانيا والبرتغال، ثم صدر مرسوم بتحريم تجارة العبيد في زنجبار ووقعه السلطان سنة ١٨٩٧م وامتد ذلك إلى داخل البلاد، وقد حاول التجار العرب تجميع رقيقهم والسير بهم شمالاً في طريق بري حتى موانئ الصومال، ولكن السلطات البريطانية اتخذت هذا ذريعة لاحتلال ممباسة واتخذته قاعدة لقطع طريق التجارة العربية بين الشمال والجنوب، وقد حاول الأهالي القيام بثورات متعددة ضد السلطان وضد تغلغل النفوذ البريطاني في سواحل شرق إفريقيا ولكنها قمعت بعنف[١].

* * *

(١) السعدي ندوي في شرق أفريقيا ـ المرجع السابق. د. جلال يحيى ص ٦٧

ثانيًا (أ) العرب والكونغو

عندما بلغ الأوروبيون الأول الكونغو عام ١٤٨٢م وكانوا من البرتغاليين واجهوا مملكة إفريقية قوية عظيمة، ورغم الازدراء الذى كان يشعر به البرتغاليون تجاه ثقافة الكونغو فإنهم ما لبثوا أن اعترفوا بالنظام والتقدم الذى تسير عليه المملكة هناك، وهى المملكة التى كانت تتولى قيادة الساحل الغربى لوسط إفريقيا، كانت إمبراطورية مترامية الاتساع والسكان، وجزء منها يقع الآن فى عدد من الأقطار الأخرى بعد أن تحكم الأوروبيون فى رسم الحدود الاستعمارية عام ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م. لقد كانت الكونغو هى الجوهرة التى من أجلها مارس الاستعمار عمليات القتل والإبادة.

إن ما حدث فى الكونغو من أكبر الجرائم التى ارتكبها الأوروبيون فى إفريقيا ولا يمكن أن يقارن بما فعله العرب هناك، فمع الاعتراف بظلم ووحشية تجارة الرقيق العربية فإنه يصعب مقارنتها بما فعله ملك بلجيكا ليوبولد الثانى من مذابح وقتل وإبادة.

ومع ذلك تحمل العرب وزر تفشى تجارة الرقيق رغم مشاركة الدول الأوروبية لهم فيها، وشهد المكتشف كاميرون فى تقريره الذى قدمه عام ١٨٧٣م للجمعية الجغرافية فى بروكسل أن ظاهرة تجارة الرق كانت تسبق الوجود العربى فى أواسط القارة، وأن الرؤساء الإفريقيين هم الذين كانوا يقدمون بنى جلدتهم كسلعة للاتجار فيها، والبرتغاليون هم من كانوا وكلاء لتصديرهم، وأن العرب اشتروهم لخدمة المنازل أو فلاحة الأرض وقد أسهموا فى هذه التجارة أمام بريق الكسب الكبير الذى أبرزه لهم الأوروبيون الذين عادوا ونددوا بهم[1].

عرف العرب القادمون من عمان عبر زنجبار طريقهم إلى الكونغو منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بعد أن مروا بأرض تنجانيقا (تنزانيا حاليًا) التى أسسوا فيها مدنًا ومحطات تجارية ابتداء من ساحل المحيط الهندى عند مدينة دار السلام وحتى شواطئ بحيرة تنجانيقا فى أقصى غرب تنزانيا عند الحدود الحالية مع الكونغو، ومن أشهر تلك المحطات والمراكز التجارية التى أقامها العرب فى طريق رحلتهم إلى الكونغو ووسط إفريقيا تابورا وسط تنجانيقا وأوجيجى على ضفة بحيرة تنجانيقا، وكان التجار العرب

(١) مسار قسم التاريخ، المرجع السابق، بحث د. إبراهيم رزق مرقص ص ٢٣٤

في طريقهم إلى الكونغو يستمدون نفوذهم وقوتهم ويؤمنون حماية قوافلهم من سلطان زنجبار[1].

ومن العوامل التي دفعت العرب إلى دخول الكونغو من جهة الشرق عدم توقعهم أن يواجهوا مقاومة حادة من السكان الأصليين لتعرفهم على عاداتهم واحترامهم لها، وحداثتهم بالأسلحة فاستغلوا أفرع نهر الكونغو للدخول إلى أغوار الكونغو وغاباته الكثيفة، ولأن الكونغو غني بالعاج وهو سلعة مطلوبة في أسواق الساحل يحتكره الأجانب الأوروبيون وهو السلعة الوحيدة التي كانت تتحمل النقل لمسافات طويلة على خلاف المحاصيل الأخرى. وكانت رحلتهم إلى الكونغو تنقسم إلى مرحلتين: **الأولى** تبدأ من الساحل إلى ضفاف بحيرة تنجانيقا، **والثانية** من بحيرة تنجانيقا إلى أفرع الكونغو متجهين نحو مصبه، ولم تكن هذه الطرق سهلة إذ كانت تخوض داخل ظلام الغابات الاستوائية الكثيفة بما حوته من أخطار فضلاً عن شدة مراس الزنوج[2].

عاش العرب في تلك المناطق داخل إفريقيا بعيداً عن حكومة زنجبار إلا أنهم كانوا على اتصال بها مخلصين لها. وكانت حكومة زنجبار تشاركهم تمويل مشروعاتهم، وكان هؤلاء العرب يعتبرون مسئولين عما يدور في الداخل لدرجة أن الرحالة الأجانب كانوا يختصمون السلطان في زنجبار في دعاوى التعويض عندما يلم بهم أذى من الزنوج.

انتهج العرب في تلك المناطق سياستين أساسيتين مسالمة الزنوج فقام بينهم وبين زعمائهم نظام تآخ، وتبادل الطرفان الهدايا والزيارات خاصة من دخل منهم الإسلام، وسياسة الجنوح إلى السلاح إذا لمسوا منهم غدراً أو خيانة، إلا أن الأمر بين هذا وذاك كان يتوقف على مدى ثقل سلطان زنجبار ضعيفاً كان أم قوياً.

(ب) مملكة تيبوتيب العربية

كان للعرب في القرن التاسع عشر فضل السبق في كشف عمق القارة والوصول إلى حوض الكونغو وجلب ثرواته مما لفت أنظار الأجانب والمستكشفين إلى تلك البلاد،

(١) الجماعات العربية في أفريقيا: دراسة في وضع الجاليات والأقليات العربية في إفريقيا جنوب الصحراء، د. عبد السلام بغدادي، الناشر مركز دراسات الوحدة العربية ص ٢٢٣.

(٢) زنجبار عبر التاريخ، المرجع السابق، تحقيق: إبراهيم زرق مرقص ص ٢٢١.

لمساعدة العرب في وصولهم إلى الكونغو، وارتبطت جهودهم برجل عربي كان أول من دخل الكونغو وهو حميد المرجبي الملقب بتيبو تيب العربي، كان قد دخل الكونغو بشكل منظم في أعداد غفيرة من التجار والصيادين العرب في شكل حملات تجارية عسكرية مخطط لها. وكان لهذا الرجل فضل الريادة في الدخول العربي المنظم للكونغو وفضل إرشاد وحماية معظم المستكشفين الأوروبيين إلى تلك البلاد أمثال بيرتون ولفنجستون وستانلي. وهكذا بدأت العلاقة وتحققت خلالها إنجازات علمية كبيرة ما لبثت أن تعكرت عندما تكشفت ميولهم الاستعمارية[1].

وحميد بن محمد بن جمعة المرجبي الذي اشتهر باسم «تيبو تيب - Tippo Tyip» هو أول من نستطيع القول إنه الزعيم والتاجر الذي أسس الوجود العربي في الكونغو والذي انتهى كثير من هذا الوجود بنهايته.

قام هذا الرجل بثلاث رحلات إلى الكونغو بهدف الاتجار في الرقيق والعاج ومحاصيل وسط القارة، وجرى في ركابه المستكشفون والأجانب، وتمكن من تأمين نفوذ سياسي والحكم الاقتصادي على المنطقة خلال أعوام ١٨٨٣ - ١٨٨٦م، وهذا يعني أنه أسس نظامًا إداريًا وسياسيًا وتجاريًا متماسكًا على ناصية التجارة في تلك البلاد حتى وصف بأنه «ملك غير المتوج للكونغو»[2] وبعد أن استقر وأنشأ وجودًا عربيًا داخل تلك البلاد ما لبث أن تعارض مع أطماع هؤلاء الاستعماريين البلجيكيين الذين كان له فضل إرشادهم وتأمين من أرسلوه من المستكشفين والمستعمرين، فقامت حرب بينه وبينهم انتهت بالقضاء على الوجود العربي وقيام مستعمرة الكونغو ملكًا خاصًا للملك ليوبولد الثاني.

كانت رحلاته الثلاث في سنوات ١٨٥٠ - ١٨٦٢م، وكانت الرحلة الثالثة هي التي وطدت الوجود العربي في الكونغو، كما كانت بداية الصراع بين العرب والمستعمرين الذي انتهى بإبعاد العرب من الكونغو وحل البلجيك محلهم ولكن كمستعمرين[3]

---

(١) مصدر تعلم التاريخ - المرجع السابق بحث د. إبراهيم رزق مرقص ص ٢٢٥

(٢) الجماعات العربية في أفريقيا - المرجع السابق ص ٦٢٤ - ٦٢٥

(٣) مصدر تعلم التاريخ - المرجع السابق بحث د. إبراهيم رزق مرقص ص ٢٢٥

عندما دخل العرب فى مواجهتهم الثالثة مع تيبوتيب عام ١٨٧٧م وكان موفداً من قبل الملك ليوبولد ملك بلجيكا بقصد ظاهرى وهو استكمال كشف حوض الكونغو وقمع تجارة الرقيق ، أما السبب الحقيقى فكان تهيئة الكونغو لتكون ملكية خاصة بالملك.

طرح الملك هذا الموضوع فى الجمعية الجغرافية فى بروكسل عام ١٨٧٦م على الدول الأوروبية الاستعمارية وخاصة فرنسا وإنجلترا لتنازع المصالح الاستعمارية بينهما فى الشرق والوسط من إفريقيا . وتم الاتفاق على أن تترك إنجلترا والدول الأوروبية المستعمرة للشرق الإفريقى ، تترك منطقة الكونغو لليوبولد مقابل ترك شرق إفريقيا لهم ، واستقر الوضع بمؤتمر برلين الشهير سنة ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م الذى اعترفت فيه الدول الاستعمارية بقيام مستعمرة الكونغو الحرة وإدارتها بمعرفة الملك ليوبولد .

العلاقات العربية البلجيكية

فى بداية الأمر لم تكن هناك علاقة مباشرة بين العرب والبلجيك إنما كانت من خلال المستكشف ستانلى الذى حرص على أن يسلك معهم سلوكاً ودياً حتى ينال تعاونهم وحمايتهم . وكان يوصى الضباط البلجيك بألا يظهروا أى عداء للعرب الأمر الذى جعلهم يركنون إليهم ويحسنون بهم الظنون حتى أنهم اصطحبوا تيبوتيب لاكتشاف بقية ما لم يكتشفوه من أراضى الكونغو

أرسلت بلجيك عدة بواخر فى فروع نهر الكونغو وظن العرب أنها لتيسير نقل التجارة ولكنها وزعت السلاح على المحطات البلجيكية هناك وأعطت قدراً يسيراً منه هدايا للعرب الذين ردوا لهم العطاء بالعاج وسلع وخدمات . ولعل العرب كانوا مدفوعين لهذا السلوك بسبب ضعف سلطان زنجبار الذى سيطر عليه الإنجليز فضعفت هيبته وانعكس ذلك على العرب فى الكونغو .

وبعد أن استتب الوضع للبلجيكيين فى الكونغو من الناحية الأمنية والاقتصادية والسياسية مع الدول الأوروبية بدءوا يتخلصون من العرب . وكان العرب فى ذلك الوقت قد خلدوا إلى الهدوء مكتفين بترويج تجارتهم وتسيير قوافلهم ، وزرعوا الأرض وشاركوا الأجانب بأموالهم فى الأنشطة التجارية جاهلين ما يدبره البلجيكيون لهم

في الكونغو، وفي المحافل الدولية وأوروبا بهدف تشويه سمعتهم واستعمار القوى ضدهم، وركز المبشرون والرحالة يكتبون عن بشاعة تجارتهم في الرقيق ورسموا صورتهم أمام العالم وهم يسوقون الرقيق في شكل قطار حزين إلى الساحل مكبلين بالأصفاد الحديدية، واستجابت أوروبا لما كتب من آلاف الأقلام والأموال على من يوقف هذا النزيف الآدمي بعد أن أقر الجميع على ضرورة مناهضتهم في الكونغو ( )

(جـ) سياسة القضاء على العرب

بدأت سياسة العداء بالعرب بعد مؤتمر برلين عام ١٨٨٤م، عندما غير ستانلي أسلوب تعامله مع العرب فبدأ يستولى على تجارة العاج ويحتكرها ويكره التجار العرب على الاتجاه بما تبقى لهم من عاج وسلع أخرى إلى الساحل الغربي للكونغو وليس الشرقي بهدف إحلال القطيعة بينهم وبين أهلهم في زنجبار، واتبعوا سياسة الحصول على توقيعات من العرب والزنوج في غياب تيبوتيب في الساحل الشرقي بالتنازل عن حريتهم للبلجيكيين والعيش تحت سيطرة الملك ليوبولد.

فلما عاد تيبوتيب خالف ما توقعوه، وبدأ بجمع العرب حوله للدخول في معركة مع البلجيكيين متصديًا بمنع التعامل التجاري معهم. وفي عام ١٨٨٦م بدأت الحرب وانتهت بمعركة بانتصار العرب ومقتل قائد البلجيك. وإزاء هذا النصر اعترى القوات البلجيكية الضعف والخوف، وتوجس ليوبولد أن تكون إنجلترا وراء تيبوتيب لتستخدمه ضده في الكونغو لتضيع عليه فرصة تملكه للكونغو بعدما أنفقه من مال، فلجأ إلى مهادنة العرب مرة أخرى وعرض على تيبوتيب أن يكون حاكمًا من قبله على منطقة ستانلي فولز وقائدًا للعرب الموجودين في المنطقة ومنفذًا لسياسته في الكونغو مقابل راتب شهري، وأن يرفع العلم الذي اختاره لما أسماه بدولة الكونغو الحرة وكان ذلك عام ١٨٨٧م ولكن تعيين تيبوتيب لم يأت بالثمرة المطلوبة، لأنه أغضب العرب بسبب تبعيته لليوبولد، وإزاء هذا قامت المعارك من جديد بين البلجيكيين والعرب الثائرين لكرامتهم، واستمرت المعارك بين الطرفين تشتد وتفتر حتى عام ١٨٩٣م واشتبك في حرب ضروس استمرت عامًا كانت القاضية على الوجود العربي وسلمت

( ) سعيد قاسم بن بريح: المرجع السابق، نقلت د. يواقيم رزق مرقص ص ٢٢٨

فيها دماء الآلاف منهم، وتشتت الأسر، وسيق قادته إلى بلچيكا حتى لا يعودوا مرة أخرى للقتال. ومع ذلك فإن العرب بقيادة سيمو بن تيبوتيب تمكنوا من جمع مائة ألف مقاتل وظلوا يقاتلون طوال سنتين حتى سقطت آخر معاقلهم في ١٨٩٤م بعد أن استمدت كل قوتهم[1]. وعاد تيبوتيب مهزوماً مريضاً إلى زنجبار بعد مقتل ابنه وقواده وضياع ماله وعتاده، رجع ليجد الإنجليز متربصين به، حيث لفقوا له تهمة وضع بسببها في السجن إلى أن مات سنة ١٩٠٦م.

خلصت الكونغو لليوبولد وخضع شعب الكونغو لأبشع أنواع الاستعمار الذي راح ضحيته خسائر بشرية قدرت بعشرة ملايين شخص، حيث كان القتل والمجازر الجماعية والعمل بالسخرة والجوع وحرق القرى هو النظام المطبق، وكان هناك نوع من الكرابيج يصنع خصيصاً من جلد الخرتيت بعد أن تجف وتقطع بطريقة تجعل أطرافها حادة وجارحة، وكانت تترك آثاراً دامية على الأجسام وأن عشرين جلدة منها كانت تنقل المجلود إلى عالم اللاوعي ومائة جلدة كانت قاتلة.

كان استخراج المطاط عملية صعبة استخدم فيها وكلاء ليوبولد إجراءات قاسية ليجبروا الأهالي في الكونغو أن يذهبوا إلى الغابات ويجمعوا المطاط. وكان أي رجل يقاوم هذا الأمر يرى بعينيه كيف تختطف زوجته وتقيد بالسلاسل ليضطر هو إلى الرضوخ والذهاب لجمع المطاط، وأحياناً كانت تقتل زوجته انتقاماً منه.

وقد قاوم كثير من القرى نظام المطاط، فكان وكلاء ليوبولد يأمرون جيش الطوارئ بأن يغزو هذه القرى المتمردة ويقتل أهلها، وحتى يتأكد الضابط أن جنوده لم يبددوا الرصاص في اصطياد الحيوانات كانوا يطلبون من الجنود أن يبتروا اليد اليمنى لكل شخص يقتلونه، وأحياناً كانوا يحصلون على أيدي أناس أحياء لم يقتلوا ليقدموها. وكانت السفن تشحن بالمطاط والعاج وتعود إلى الكونغو حاملة الجنود والبنادق[2].

* * *

وضع العرب في الكونغو

ترددت الآراء حول وضع العرب في الكونغو فوصفهم البعض بالمستعمرين لأنهم

---

(١) الجماعات العربية في إفريقيا. المرجع السابق ص ٢٢٦

(٢) العبودية في إفريقيا. المرجع السابق ص ٢٣ - ٣٢ [يراجع ما ورد في الفصل السابق عن هذا الأمر]

وصنوا جماعات واستعمروا هناك واستولوا على اقتصاد البلاد واشتركوا في تشكيل سياستها وتدخلوا في أمورها. ووصفهم البعض بأنهم لم يكونوا كذلك لأنهم لم يقوموا هناك بأية محاولة من شأنها إظهارهم أو تأسيس دول وإنما كانوا مجرد مغامرين من الساحل يهدفون مثل الهنود إلى جمع الثروات بسرعة والعودة إلى الساحل، لم يغيروا من طبيعة الأرض أو السكان بل تركوا السكان الأصليين على ما هم عليه. لقد قسوا على الأهالي الوطنيين ولكن كان ذلك لكي يحفظوا لهم مركزاً ويؤمنوا تجارتهم، كما كانوا لا ينوون الاستقرار بل كانوا دائمي التنقل، وأمنيتهم دائماً العودة إلى مقرهم في الساحل[1].

أثرى العرب من الكونغو، وكانوا يقيمون فترات طويلة في أرضه حتى تعود إليهم قوافلهم التجارية القادمة من زنجبار، وكانت الرحلة تستغرق عاماً أو أكثر فتجهوا إلى استثمار هذا الوقت وكانت الزراعة أول ما فكروا فيه فطهروا الأرض وأعدوها للزراعة وتعلم منهم أهالي البلاد الزراعة والاستقرار والرعي والزراعة المتنقلة فأحدثوا بذلك ثروة زراعية هناك، وأدخلوا غلات جديدة بدل الاعتماد على ثمار الغابات مثل القطن والقمح وقصب السكر والذرة والأرز وفواكه مثل الليمون والمانجو والموز. وقد أجمع المكتشفون الأجانب الذين شاهدوا هذا التقدم الزراعي على أنه بعث عربي بالكونغو، واعترفت بذلك حكومة الكونغو الحرة بعد عام ١٨٩٣م وأصدرت أوامرها بالحفاظ على هذه النظم الزراعية العربية.

كما أسهم العرب في صناعات يدوية كثيرة كصناعة الحبال والسلال والحصير والنسيج وطوروا صناعات استخراج الزيوت من الخروع وتحيين الزيت والصابون الذي لم يكن للزنوج عهد به، وراجت حياة الحرفيين كالحدادين والنجارين والنحاسين والخواصين والمحارين وارتفعت أجورهم، وذلك نتيجة لحركة التعمير والبناء والتجارة، وانتعشت صناعة الأسلحة النارية وإصلاحها. ونتيجة نشاطهم في مجاري شقوا الطرق وقطعوا الغابات لتأمين المرور خلالها واستغلوا المجاري المائية في النقل بالقوارب فارتبطت قبائل المناطق وأسواقها. عموماً اكتسب الزنوج ثقافات ومهارات من العرب

---

[1] سميرة فهمي - المرجع السابق ص ٢٣٢.

ولقد تركت [illegible] في الكونغو آثاراً حضارية يتحاكى بها الكونغوليون والمنصفون من [illegible] لم يعيشوا في عزلة، ولم يكونوا يضمرون استعماراً، وهم [illegible] في الإسلام [illegible] في التعامل والتعاون مع الأهالي، ومن ثم [illegible] بينهم وبين الأهالي.

في حين أن المرحلة الاستعمارية لم تترك في الكونغو سوى حكم الاستبداد [illegible] عند حصول الكونغو على استقلاله عام ١٩٦٠م لم يكن هناك [illegible] ولا مهندسون ولا زراعيون ولا أطباء من الكونغوليين. لم تصنع الإدارة الاستعمارية شيئاً يمكن الكونغوليين من حكم [illegible] من خمسة آلاف [illegible] في جهاز الإدارة لم يزد عدد الشاغلين لها من الأفريقيين عن ثلاثة.

ويدل على صدق هذه الحقائق [illegible] في [illegible] حكومة الاستقلال [illegible] كل شيء في الكونغو [illegible] مدينة [illegible] قبل سوى مدينة [illegible] العرب [illegible] المرحلة [illegible] العرب [illegible] المرحلة الاستعمارية التي [illegible] وتركوا على أرضها [illegible] يحصدونهم بالأسلحة الحديثة.

❁ ❁ ❁

[illegible] المرجع السابق ص ٢٤٥

الفصل الخامس

إلغاء الرق وآثاره

أولا : التنافس فى نقل العبيد

ثانيا : حظر الرق

ثالثا : الممارسات الاستعمارية للرق فى:

شمال نيجيريا ـ السودان الغربى ـ موريتانيا

الصومال ـ زنجبار وشاطئ كينيا

رابعا : عدد العبيد المقتنصين

خامسا : خلاصة أربعة قرون من تجارة الرق:

نهاية وبداية ـ الهجرات ـ الشاهد الاقتصادى ـ

تدهور الصناعات المحلية ـ الجانب الاجتماعى

أولاً: التنافس في نقل العبيد

بدأ شراء الأوروبيين للرقيق الإفريقي في القرن التاسع عشر في بدء اتصالهم بالساحل الغربي الإفريقي، واستعمل البرتغاليون الرقيق قليلاً في العمل بمزارع قصب السكر في بعض جزر ساحل غانا، ولكن الأغلبية كانوا يصدرونها إلى أمريكا اللاتينية للاشتراك في تعدين الفضة عام ١٥٢٠م[1].

وعندما نزل البرتغاليون سنة ١٥٠٠م في مملكة كلانجا التي تقع في الشرق الإفريقي عند نهر زمبيزي بقصد الاستيلاء على مواطن الذهب بدءوا يستعيضون تجارة الذهب بتجارة الرقيق. أثارت تجارة الرقيق حفيظة السكان المحليين وأعلن ملك كلانجا غضبه على الإدارة البرتغالية ونشبت الحرب بينهما، وانتصر البرتغال وأسروا ابن الملك الصغير وأرسلوه إلى جوا في الهند، حيث تعلم وعمد واتخذه الحاكم هناك عبداً له[2].

وفي أوائل القرن السادس عشر نزل البرتغاليون في حوض الكونغو مبشرين بالمسيحية في عهد ملك الإفريقي نزنجا (الذي لقب فيما بعد أفونسو الأول) سنة ١٥٠٦ـ١٥٤١م الذي أبدى قبولاً للمسيحية وأرسل مجموعة من أبنائه وذويه إلى البرتغال لدراسة اللاهوت، غير أنهم كانوا يقعون أسرى في قبضة تجار الرقيق الأوروبيين فيأخذونهم أرقاء في سفن الرقيق إلى أوروبا. ونظراً لازدياد عدد الأرقاء المأسورين من مملكة نزنجا ساءت علاقة هذا الملك بالإداريين البرتغاليين واستنجد نزنجا بملك البرتغال فلم يعره انتباهاً.

وفي الفترة ما بين ١٦٤٠ ـ ١٧٥٠م اشتدت المنافسة على تجارة الرقيق وأسس الأوروبيون عدداً كبيراً من الحصون العسكرية والمراكز التجارية على شواطئ إفريقيا لتواجه الطلب المتزايد على العبيد. واشتهر القساوسة والمبشرون هذه الفرصة فعمدوا

(١) قصة ... ترجمة د. محمد عبد الغني سعودي ص ٩٢

(٢) مجلة أحداث الرقيق (مجلة شهرية سودانية) العدد ٢٢ ديسمبر ١٩٩٩م، ص ٩٦

على استشير بينهم، وقد لعب هؤلاء الأفارقة المتنصرون دوراً بارزاً في نشر المسيحية في إفريقيا فيما بعد[1].

كان التوسع الكبير في تجارة الرق عبر الأطلنطي في منتصف القرن السابع عشر متوسع في زراعة قصب السكر في جزر الهند الغربية بأمريكا عندما ثبت أن الإفريقي متفوق في العمل الزراعي لمناعته ضد أمراض المناطق الحارة كالملاريا والحمى الصفراء، فضلاً عن قدرته على العمل في المناخ الحار الرطب أكثر من الأوروبيين. وبلغت تجارة الرق الأوروبية عبر الأطلنطي مداها في القرن الثامن عشر، ويقدر المصدر منهم ما بين ٣٠ ـ ٤٠ مليون نسمة، وهذا العدد هو عدد من وصلوا أحياء إلى العالم الجديد غير من هلك بسبب صعوبات النقل والأمراض والذين قتلوا أثناء الإغارات وعمليات القنص البشري، ومن الصعب معرفة نصيب كل جزء من أجزاء إفريقيا في هذه التجارة على وجه الدقة ولكن ربما خرج ثلثا الرقيق من ساحل الذهب وأنجولا والكونغو التي ذاع صيتها في توريد العبيد في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد نقلت بريطانيا والبرتغال نحو ثلث الشحنات ونقلت هولندا نحو ١٨٪ منها وفرنسا ١٢٪ و الولايات المتحدة ٥٪[2].

وفي عام ١٧٩١م كانت زرائب[3] الأوروبيين على شواطئ إفريقيا ٤٠ زريبة منها ١٤ لبريطانيا، و٣ لفرنسا، و١٥ لهولندا، و٤ للبرتغال، و٤ للدانمارك.

وبلغت تجارة الرقيق البريطانية ذروتها عشية حرب الاستقلال الأمريكية سنة ١٨٦٠م وكان عدد سفن تجارة الرقيق المبحرة من موانى غرب إفريقيا ١٩٢ سفينة، وأول من مارس تجارة الرقيق في بريطانيا هو السير جون هوبكنز، وكان تجار الرقيق البريطانيون منهمكين في سد احتياجات المستعمرات الفرنسية من الرقيق، حيث لم تكن لبريطانيا مستعمرات مستقرة في أمريكا.

كانت تجارة بريطانيا مع إفريقيا وقفاً على شركات نعينها في لندنه، ثم صدر أمر منحها لكل رعايا التاج، وكان سد احتياجات المستعمرات الإسبانية من الزنوج حصراً

(١) مرجع السابق ـ مجلة دراسات إفريقية ص ٩٧

(٢) شضب فريقية ـ المرجع السابق ص ٩٢ ـ ١٠٢

(٣) زرائب جمع زريبة وهي المكان الذي كان يجمع ويحشد فيه العبيد حتى نقلهم إلى السفن وكانوا يطعمون فيه حتى لفظ ورشه

على الهولنديين ثم الفرنسيين ثم انتقل إلى البريطانيين، حاولت شركة بريطانية احتكار التعاقد عام ١٧٦٣م، إلا أن هذا التعاقد انتهى على أثر تصاعد الشكاوى والاحتكاكات من الشركات البريطانية من جانب وبين الموظفين الإسبان من جانب آخر فارتفعت مشاعر السخط في بريطانيا[1].

ظلت بريطانيا الناقل العالمي الأول والمتعهد الأوفر إمكانات لضمان شحن وتأمين سفن الرقيق لوصولها لمستعمرات بقية الدول الأوروبية في جزر الهند العربية والأمريكتين، أسطول ضخم يحرسه أسطول حربي وتحميه مباركة الملكة اليصابات لدوره في تجارة الرق بعدما كانت مبادرة خاصة بالقراصنة والتجار المغامرين، وحافظت بريطانيا على مركزها في سوق النخاسة العالمي طيلة قرنين والنصف[2].

كما لعبت إسبانيا دورًا مزدوجًا في مأساة الرق والاسترقاق، إذ سحقت الهنود الحمر في مستعمراتها في جزر الكاريبي وفي الأمريكتين ودمرت حضارتهم واستجلبت أرقاء إفريقيا ليؤدوا ما عجز الهنود عن إنجازه في الزراعة والمناجم. ففي القرن السادس عشر اقترح الأسقف بارتلومي دي لاكاساس على ملك إسبانيا سنة ١٥١٨م جلب الرقيق من إفريقيا ليحلوا محل الهنود في الزراعة والمناجم. وبحلول الربع الأخير من القرن السادس عشر في عام ١٥٧٥م كان تعداد الأرقاء الأفارقة في المستعمرات الإسبانية ٤٠ ألفًا، وأخذت السفن تعبر الأطلنطي وتفرغ حمولتها من الأرقاء. ثلاثة قرون من تجارة الرقيق عبر الأطلنطي استنزفت ٤٠ مليون إنسان ٩٠٪ منهم شباب، وهذا الاستنزاف سلب إفريقيا مستقبلها[3].

لم تكن هناك سلعة مربحة في غرب إفريقيا طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر مثلما كانت سلعة الرقيق، فلا الذهب ولا العاج ولا البهارات استطاعت أرباحها أن تلحق بأرباح الرقيق، وكانت شدة الطلب من عوامل رفع سعر الرأس من الرقيق بسبب المنافسة الحامية بين التجار الأوروبيين، وكانت الشركات التجارية تمثل القوى الأوروبية في غرب إفريقيا، لذلك كان يتم في بعض الأحيان تعاون بين هذه الشركات لإنشاء

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني ـ المرجع السابق ص ١٩٥.
(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني ـ المرجع السابق ص ٤٤.
(٣) علاقات الرق في المجتمع السوداني ـ المرجع السابق ص ٤٥

الحصون والمخازن وتنظيم التجارة لمسافات بعيدة عن الساحل، وكانت هذه الشركات وسيلة وأداة لتنفيذ سياسات الدول الأوروبية. ومثل هذا التنظيم في الاسترقاق لم يكن معروفاً لدى العرب في إفريقيا، فلم تكن هناك شركات وراءها حكومات.

تفاقم اصطياد البشر لاسترقاقهم تفاقماً خطيراً بسبب الطلب المتزايد من المستعمرات الأوروبية. وعلى الجانب الإفريقي مارس ملوك وشيوخ القبائل العدوان حتى على أبناء قبائلهم أحياناً بهدف مقايضتهم بالسلع الأوروبية، وكثيراً ما كانوا يشعلون النار في القرى ليلاً لاصطياد سكانها وهم يحاولون الفرار والنجدة. كان الملك أو شيخ القبيلة يحدد المنطقة التي سوف يتم الهجوم عليها بغتة للقيام بعمليات السطو على الرقيق، فيتم جمع الجنود دون أن يعرفوا السر وراء ذلك، وكان الجيش يسير الليل بطوله وأحياناً أياماً عديدة دون أن يعلم الغرض من المسير، وكان السير محسوباً، بحيث يتم الوصول إلى القرية المقرر تدميرها عند الفجر أو غروب الشمس، حيث يكون فيه الرجال يغطون في سبات والنساء يبدأن دق الذرة، وهنا يدخل الجيش القرية. أما سكانها الذين أخذوا على حين غفلة وقد أصابهم الفزع فلا يكون لديهم من الوقت ما يكفي حتى ليعرف بعضهم بعضاً، فمن يبدي مقاومة يقتل، والباقون يوضعون في السلاسل حيث يتقاسمهم الملك وأتباعه[1]

***

(1) السياسة والحكم في أفريقيا الجزء الأول المرجع السابق ص ٥٤

ثانياً: حظر الرق

لا ينس التاريخ ما قام به الإنجليز فى تجارة الرقيق منذ القرن السادس عشر، كانت الشركات البريطانية تعمل أولاً: فى تجارة الذهب ثم اتجهت إلى تجارة الرقيق لأنها تدر أرباحًا طائلة، وبدءوا يصدرون الرقيق إلى مستعمراتهم ومستعمرات الدول الأخرى فى الأمريكتين، وكانت وسائل بريطانيا فى هذه التجارة هى القيود والسلاسل الحديدية والأسلحة النارية وغيرها لاصطياد الجنس البشرى وجعلت من إفريقيا مسرحًا لصيدها ومن مستعمراتها سوقًا لها، فقد اندفعت إلى حيث يسكن السود كالذئب إلى حظيرة الغنم وأشعلت فى القارة النيران حتى تتمكن من الإمساك بأهلها. مارست الوحشية والقسوة التى يصعب حصرها مثال ذلك أن إحدى السفن البريطانية (زونج) أبحرت عام ١٥٨١م وهى محملة بكامل حمولتها من الرقيق، وعندما اكتشفت أن مياه الشرب غير كافية للعدد الذى تحمله السفينة وخوفًا من هلاك كل حمولتها فقد ألقى ١٣٢ عبدًا فى عرض البحر، وأيدت المحاكم الأمريكية ذلك وقررت «أنه لا تنطبق عليهم أى جريمة من جرائم القتل»[١].

وابتداء من سنة ١٦٦٠م أخذت المستعمرات الإنجليزية فى شمال أمريكا فى وضع قوانين ولوائح تنظيم التعامل مع الرقيق، فأصدرت ولاية فرجينيا تشريعًا يجعل الأطفال من أم من الرقيق تجعله رقا بصرف النظر عن وضع الأب، ثم صدر تشريع آخر سنة ١٦٦٧م يبقى الرقيق فى حالة عبودية مدى الحياة مما يعنى أن الاسترقاق أصبح مؤسسة معترف بها تحكمها قوانين تصدرها الهيئات التشريعية، هذه التشريعات حرمت الإفريقى ليس من حريته فحسب. بل من آدميته وإنسانيته فهو يعامل كمنقول ليس له أى حقوق وأى إشارة احتجاج يرد عليها بعنف قد يصل إلى حد القتل، وإذا قتل السيد رقيقه للتغلب على عناده. لا تعتبر هذه جريمة قتل لأن الإنسان لا يدمر ممتلكاته قصداً، وصدر قانون بهذا سمى «بقانون الإصلاح Correction Law»[٢].

---

(١) المؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» نوفمبر ٢٠٠٦م، مطبوعات جامعة إفريقيا العالمية الكتاب الرابع بحث تجارة الرقيق وأثرها على العقل الإفريقى ـ الدكتور جلال السيد الحفناوى ـ وعبد الله عبد الرازق إبراهيم ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٢) المرجع السابق المؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» الكتاب الحادى عشر بحث تجارة الرقيق عبر الأطلنطى د. ميمونه ميرغنى حمزة ص ١٦٣.

وقد ظلت هذه القوانين سارية حتى سنة ١٨٠٧م حين أصدر البرلمان البريطاني مرسومًا بحرم تجارة الرق ولم تكن هذا نابعًا من الضمير الإنساني، وإنما أقدمت بريطانيا على هذا الإجراء لأسباب تجارية صرفة فلم يكن من المستطاع البدء في أي نشاط تجاري بين أوروبا وأفريقيا قبل القضاء على تجارة الرق ليفسح المجال للتجارة العادية. وتحدث بريطانيا من عملية محاربة الرق وسيلة لتفتيش سفن الدول الأخرى وفرض زعامتها على البحار، وتحت ستار محاربة الرق استطاع الإنجليز التوغل في الأنهار الإفريقية وعقدوا المعاهدات مع الزعماء والرؤساء المحليين وفرضوا حمايتهم وتدخلوا في الأقطار الإفريقية بحجة ضمان تنفيذ قوانين إلغاء الرق والنخاسية.

ونص المرسوم البريطاني الذي صدر في ٢٥ مارس سنة ١٨٠٧م على: تحريم تجارة الرقيق ومنع السفن البريطانية من نقل الرقيق، ومعاقبة السفن التي لا تتقيد بالمرسوم بمصادرة أو الغرامة ١٠٠ جنيه إسترليني عن كل رأس رقيق، ومصادرة الرقيق وإلحاقه بممتلكات التاج بتجنيده في الجيش أو الأسطول دون حق في معاش بعد الخدمة.

* حوافز لسفن الأسطول البريطاني لمراقبة وضبط السفن البريطانية التي لا تتقيد بالمرسوم، وذلك بمنح ١٣ جنيهًا إسترلينيًا على كل رأس من الذكور و١٠ جنيهات على كل رأس من الإناث و٣ جنيهات على كل طفل، وأصبح الحظر أحد مصادر تمويل الأسطول.

* إلزام ملاك الرقيق تسجيل كل أرقائهم من ١٦ مارس ١٨٠٧م للرقابة على البيع[1].

وقد هاجم اللورد البريطاني «دارموت ـ Darmot» الذين دعوا لوضع حد لتجارة الرق بقوله: «إننا لا نسمح بأي حال من الأحوال بعرقلة هذا النشاط التجاري الذي ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا». وكان صارمًا في كلامه فإن ليفربول في إنجلترا نبتت كما نبتت البشونة في البرتغال على عظام الرقيق الإفريقي ودمائه.

في أغسطس عام ١٨٨٣م أصدر البرلمان البريطاني مرسوم عتق الرق، ونص المرسوم على عتق الرقيق وتعويض ملاكه، ويكون العتق متدرجًا؛ لأن الرقيق عند

(١) ملامح الرق في المجتمع السوداني ـ المرجع السابق ص ٩٤.

مؤهل للحرية، الرقيق المعتق يبقى بلا أجر لدى مالكه لمدة ١٢ سنة للعاملين فى الحقول، و٧ سنوات لخدمة المنازل، يخصم جزء من الأجر لتعويض المالك، الرقيق المعتق يعمل ثلاثة أرباع يوم العمل لدى مالكه بأجر، وربع اليوم بغير أجر وأينما شاء، الأطفال تحت سن السادسة أحرار. يبدأ سريان المرسوم فى أغسطس ١٨٣٤م.

حدث إلغاء تجارة الرق جنباً إلى جنب مع صعود الاستعمار الإمبريالى، ولم تكن أوروبا مهتمة بالمساواة فى الحقوق، كانت تريد السيادة والسيطرة فقط، وهذا هو السبب العميق لإلغاء تجارة العبيد فى السياسة الأوروبية، أنهم أى الأوروبيين قالوا إنه بدلاً من أن نستورد العبيد فلنحتل أرضهم ونبقيهم فيها يعملون ويستخرجون ثرواتها لصالحنا. وفى الوقت نفسه كانت أمريكا قد استقلت عن أوروبا فلم يعد للأوروبيين مصلحة فى أن يصطادوا العبيد من إفريقيا ويصدروهم إلى أمريكا. بل صارت مصلحتهم فى استبقاء الإفريقيين فى إفريقيا واستعبادهم فيها واستخراج ثروات القارة وتصديرها لأوروبا.

لقد ألغوا العبودية عن البشر؛ لأنهم قرروا استعباد إفريقيا كلها كقارة وأرض، ولم تمنع قوانين تحريم الرق ثم إلغائه أوروبا من أن تكف عن الرق والاسترقاق، حتى فى القرن العشرين، بل وفى النصف الثانى من القرن العشرين أخذ الاسترقاق شكلاً آخر وهو السخرة الوجه الآخر للرق، فكان أصحاب الأعمال البيض فى المستعمرات الإفريقية إذا أرادوا الحصول على أيد عاملة تقدموا بطلبهم إلى الحكومة الاستعمارية وترسل الحكومة الطلبات بعد الموافقة عليها إلى المديرين المحليين ويطلب من الزعماء والرؤساء المحليين تجنيد العدد المطلوب، وكان الرؤساء، أو الزعماء، الذين يفشلون فى إحضار العدد المطلوب يجلدون بلا شفقة، وكان على عمال السخرة إطعام أنفسهم وأن يحضروا أدواتهم معهم، وإذا رفض أحد منهم العمل يسجن ويجلد، وتجرى عملية الجلد بضرب الضحية على راحة يديه ونظراً لقوة الضربة فإن الإفريقى القوى كان يتحمل أربع أو خمس ضربات ثم ينهار بعدها.

آثار الإلغاء

إن إلغاء تجارة الرق كان ذا دلالة كبيرة بالنسبة للإفريقيين والأوروبيين، فقد

عادت التجارة التي كانت قائمة على مدى ثلاثة قرون، وقوضت نظم الحكم والعادات الاجتماعية وفتحت الطريق للتغلغل الأوروبي وبدأ عصر الاستعمار المباشر لإفريقيا.

ولكن كل ذلك جرى في عملية متطاولة ومتنامية على مدى العديد من السنين. إن المشرعين البريطانيين بضربة واحدة أعلنوا إنهاء التجارة في سنة ١٨٠٧م، ولكن ذلك كان مجرد بداية، وحتى لو كان البريطانيون لم يعودوا مهتمين بالعبيد فقد كان الآخرون ذوي وضع مختلف، وهؤلاء الآخرون التجار والإفريقيون أنفسهم صاروا يجمعون العبيد كما يشاءون وبالأعداد الكبيرة التي يطلبونها، ومضى سبعون أو ثمانون سنة بعد قانون الإلغاء الذي أصدره البريطانيون وما زال تجار العبيد يتمكنون من العمل بالتخفي في موانئ إفريقيا الغربية ويتحدون مخاطر أن يقعوا في أيدي البحرية البريطانية وهم في طريقهم إلى الأمريكتين. وخلال هذه العقود من السنين من القرن التاسع عشر تدهورت المساواة القديمة من الأوروبيين والإفريقيين ببطء أولاً ثم بسرعة متنامية، حتى صار لأوروبا اليد العليا بشكل حاسم.

إن مائتين من سنوات تجارة العبيد أنتجت مجتمعاً متلائماً مع هذه التجارة فكان إلغاؤها مما أنتج أزمات اجتماعية في كل هذه الدول. ونتج عن ذلك ظواهر من عدم الأمن ومن الاضطراب ومن الغموض استخلص منه الأوروبيون أن الإفريقيين غير قادرين على حكم أنفسهم في سلام، وأنتج هذا الأمر من سوء الفهم ما كان له نتائج عميقة، ورفعت أوروبا أعلام الحضارة تبرر بها حكمها للبلاد.

إن المشكل الحقيقي أن الإفريقيين لم يتركوا ليحكموا أنفسهم، فقد استدرجوا إلى المشاركة في الاستغلال، كما أن الهوة بين أوروبا وإفريقيا زادت اتساعاً، وقد تطورت الرأسمالية التجارية الفرنسية والبريطانية إلى أن صارت رأسمالية صناعية، ثم تطورت إلى مستوى الإمبريالية. وهذا جزء من قصة أخرى، لقد كان ذلك تكراراً لازدواجية قديمة في الدوافع حكمت علاقات البرتغال بالكونغو في عهد ملك أفونسو، وهذه الازدواجية هي المسيحية والربح. إن الملك ليوبولد ملك البلجيك قتحم الكونغو تحت شعار إنه يخوض حملة صليبية جديدة بعصر التقدم لربط الطموحات عبر القارة، ولكن كل أفعال البلجيك الأول كانت الإعلان عن أن الأرض كلها وناتج الأرض كله لهم وهم يملكونه، وفي هذا الوقت كانت شعوب حوض الكونغو كلها كانت لا تدرك

النتائج المخيفة التى ترتبت على ذلك، وظهر بعد ذلك مفهوم إفريقيا المتوحشة الذى يبرر الاستعمار كما برز من قبل تجارة الرق الذى أطلقته طبقات البرجوازية الأوروبية وسعيهم للسيطرة[1].

ولكن الأمر بين الإفريقيين فى إفريقيا كان مختلفًا، ومع الانتعاش الذى سببته المفاجأة البريطانية لمعارضة تجارة الرقيق فإن الرؤساء الإفريقيين وحكام إفريقيا حاولوا فى البداية إثناء شريكهم البريطانى عن هذه الخطوة، وعندما فشلوا واجهوا مشاكل جمة فى بلادهم؛ لأن كل شبكات التجارة التى كانوا يعتمدون عليها كانت تتعلق ببيع الرقيق.

ومع مضى الوقت ومع إدراكهم أن القرار كان نهائيًا بدءوا يتجهون إلى أشكال أخرى من التجارة ويمارسون أنواعًا من التجارة المشروعة بنجاح سريع، وساعدهم على ذلك الطلب الجديد على الصابون الذى يصنع من زيت النخيل وزيت التشحيم فكان ثمة احتياج ملح للشحوم المستخرجة من النباتات لسداد النقص الناجم عن عدم كفاية الشحم الحيوانى، وهذه المادة وجدت فى زيت النخيل الذى كان مزروعًا من مدة طويلة فى دلتا النيجر، وبدأ عدد من تجار ليفربول يطلبون زيت النخيل خلال سنوات قليلة من انتهاء تجارة الرقيق. وفى سنة ١٨٣٢م فإن أحد تجار الرقيق القدامى فى ليفربول صار يستورد نحو أربعة آلاف طن من زيوت النخيل فى العام الواحد، وبعد عامين من ذلك صار إجمالى تصدير زيت النخيل من دلتا النيجر يبلغ ثمنه نصف مليون جنيه إسترلينى وكلها كانت زيوتًا ينتجها حكام الدلتا وما شابههم.

وفى هذا السياق تبدو قصة الملك «چاچا أبوبو - Jaja Obobo» فى نيچيريا تثير الاهتمام، ولا يزال شعب الأيجبو ينظر إليه باعتباره أعظم رجل أنتجته قبيلته فى القرن التاسع عشر، وهم فى ذلك على حق.

عاش الملك چاچا فى هذه الحقبة التاريخية فى الدلتا عندما حل الطلب على الزيوت محل الطلب على العبيد بشكل واسع، وعندما بدأ تغلغل الاستعمار الأوروبى يقوى. ولد چاچا فى العبودية المحلية، وفى سنة ١٨٦٣م كان چاچا فى الثانية والأربعين من

(١) المرجع السابق The African, Slave Trade, P. 253-255

عمره تحرر مجحفًا، تولى الحكم بعد أن توفى سلفه «الالى - Alali» عن دين كبير يتحدور ما بين ١٠ و١٥ ألف جنيه إسترليني للتجار الأوروبيين وخلال عامين استطاع جاجا أن يؤدى الدين كله.

إن نجاح أناس مثل جاجا بالسرعة والمهارة الذين حولوا أسواق الرقيق إلى أسواق لزيوت النخيل يمكن أن يذكر في مواجهة التفكك الاجتماعي الذي كان مرتبطًا بشكل مباشر مع هذا الأمر. إن طاقات كبيرة تبددت وأناسًا موهوبين أجبروا على العمل في إطار الإمكانات التي كانت تعمل بقوة ضد فرص التوسع البناء، ومع زيادة الضغوط الأوروبية اهتز المجتمع من جذوره وانتشر فيه الشعور القاتل بعدم الأمان[1].

* * *

إن التجارة تغيرت طبيعتها مع ظهور الإمبريالية التي مارست نفوذها بإحكام السيطرة السياسية على البلاد الإفريقية بعد فتحها، ويمكن للمرء أن يترسم خطى ثلاث لهذه العملية:

أولاً: ظهر التدخل البحري لمنع تجارة الرقيق الإفريقية ولحماية مصالح التجار الأوروبيين وقد صارت أكثر طموحًا واشتباكًا في الصراعات الإفريقية.

ثانيًا: استتبع ذلك إنشاء القنصليات سلطات واسعة للتدخل السياسي في إفريقيا.

ثالثًا: مع الاحتياج المتنامي للإيرادات المحلية ظهر الإعلان الخاص بالحق في الحكم.

إن بريطانيا عندما منعت تجارة الرقيق وصدرت تشريعاتها في هذا الصدد عام ١٨٠٧م وحركت أسطولها لمنع هذه التجارة ولضبط تهريب العبيد إلى أمريكا، كل ذلك كان يرجع لعاملين **أولهما**: أن الرأسمالية في إنجلترا وفي أوروبا كانت قد تحولت من رأسمالية تجارية إلى رأسمالية صناعة وصارت لا تعتمد على التجارة بقدر ما تعتمد على الصناعة وما يلزمها من قوة عاملة، وتحولت إلى النظام الإمبريالي الذي يهدف إلى احتلال البلاد الإفريقية وحكمها واستخراج ثرواتها لصالحه، وكل هذا يحتاج إلى الأيدي العاملة داخل إفريقيا. فعمل على الاحتفاظ بثروات إفريقيا داخلها والأيدي العاملة لشعبها ليعمل في المزارع الإفريقية وفي المناجم الإفريقية التي تديرها الإمبريالية

(١) المرجع السابق The African Slave Trade, P. 262

الإنجليزية والأوروبية عامة، وثانيهما: أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد استقلت عن بريطانيا بحرب الاستقلال وأعلنت استقلالها عن الحكم الإنجليزى ومن ثم لم يعد لبريطانيا مصلحة فى تصدير العبيد إلى أمريكا؛ لأنها لن تستفيد من عملهم هناك، وليس صدفة أن يأتى القرار البريطانى بمنع تجارة العبيد بعد استقلال الولايات المتحدة بنحو ثلاثين سنة.

●●●

ثالثاً: الممارسات الاستعمارية للرق

إن الإدارات الاستعمارية كانت تخشى أن يؤدي التدخل الجذري والسريع مع العبودية إلى نتائج كارثية بالنسبة للاقتصاد الذي يعتمد على العمل العبودي، كما كانت تخشى أيضاً من أن هذا التدخل السريع قد يستفز رد فعل عسكرياً من القيادات التقليدية التي كانت تمثل الطغمات المتحالفة مع الأوروبيين وكان التعامل معها حيوياً جداً لتحقيق المصالح الأوروبية وخصوصاً تعاقب السياسات المتبعة والاعتماد على الحكم غير المباشر لبلاد إفريقيا. لذلك كان قمع تجار الرقيق كان له الأولوية لدى الرأي العام في البلاد المستعمرة قد اتبع أسلوباً نسبياً ومتقطعاً وصار قمع العبودية أمراً يسيراً بعملية متطاولة المدى. شواهد ذلك:

شمال نيجيريا[1]

سيطر البريطانيون على الكتلة الأساسية من الأراضي الشاسعة التي عرفت بخلافة سوكوتو، وكان سير فردريك «لوجارد ـ Lugard» الذي صار لورداً بعد ذلك هو المندوب السامي البريطاني الأول في الإقليم الذي صار من بعد شمال نيجيريا. وفي سنة ١٩٠٦م أصدر هذا الحاكم قراراً بالتعاون والاتفاق مع سلطة سوكوتو مضمونه أن الإلغاء المبتسر، أي قبل الأوان للشكل العام لعقد العمل قبل إيجاد نظام أفضل يحل محله لا يكون فقط خطأً إدارياً ولكنه سيكون أيضاً ظلماً للسادة ما دام أن العبودية في الداخل هي مؤسسة يقرها قانون الإسلام. وإن نظام العبيد هو شكل آخر من أشكال الملكية عند السكان وإن إلغاءه لن يكون معناه أقل من المصادرة الجماعية

إن السياسة التي اتبعت تحت نفوذ هذا المندوب السامي كانت تمثل التعاقد على هذا النظام، فقمع تجارة الرقيق مع إنهاء الإغارات كان طريقاً لاستنفاد مؤسسة العبودية مصدراً أساسياً لازدهارها، وثمة طريق آخر وهو إصدار قانون بتحرير كل الأطفال الذين ولدوا من آباء عبيد بعد نهاية مارس ١٩٠١م وهو ما جرد مؤسسة العبودية من المورد الطبيعي للإسلام «المرجو Murgau»، وعن طريقه يمكن للعبيد أن يشتروا أنفسهم

(١) المرجع السابق Islam s Black Slaves P. 178-180

وحرياتهم بما يكسبونه من عملهم. وقد اكتسب عشرات من الآلاف حريتهم بهذه الطريقة وهي طريقة لا تمثل انتهاكًا لمبادئ الإسلام ولا يستغربها السادة الملاك الذين عوضوا فعلاً عن فقدهم لملكيتهم للعبيد. وأكثر من ذلك وفي السنوات الأولى من الغزو البريطاني فإن كثيراً من العبيد يبلغ عددهم نحو مائة ألف وأكثر قد فروا من سادتهم، وكانوا أحيانًا يفرون بجماعات كبيرة.

أدى ذلك لدى سادة كثيرين إلى تبنى هذا الوضع الجديد بدلاً من مقاومته. فإن تحرير العبيد مقابل ثمن معين كان مفضلاً عن أن يحرروا أنفسهم بالفرار بدون مقابل، وكان الأكثر تفضيلاً هو رغبة العبيد أن يقبلوا هذه الأوضاع الجديدة. إن متطلبات العمل قد قلت من خمسة أيام أو ستة في الأسبوع إلى ثلاثة أو أربعة، وإن حوافز تكثيف العمل اتخذت شكل المنح والعطايا من مأكل أو ملابس أو أدخنة أو منح في المناسبات والأعياد في مزارع الحكام الأرستقراطيين وكبار التجار. وأن عدداً من محظيات عدن إلى ديارهن الأولى. وفي هذه الأحوال فإن الموظفين الاستعماريين وجدوا أنهم من الضروري أن يتدخلوا، وفي حين أنه لا يوجد ما يميز بين المحظية والزوجة فقد قالوا إن هؤلاء النسوة ليس لهن الحق في هجران أزواجهن.

إن أحد العناصر الأخرى لمقاومة مؤسسة العبودية كان من خلال السياسات الضريبية التي أدخلها الحكم البريطاني هناك، كان أساسه هو زيادة إيرادات الحكومة بشكل مباشر، ودعم النمو الاقتصادي للمصادر الضريبية المتزايدة، وكان نظامًا مركبًا ومن خلال عدة أنواع من الضريبة. كانت هناك ضريبة نسبية على المحصولات وضريبة على حيازة الأرض وعلى المنازل، وهناك ضريبة أخرى على العبيد. ومع إعادة تشكيل الاقتصاد فإن العبودية في شمال نيجيريا بقيت متزايدة في شكل خادمات المنازل ونظام المحظيات.

إن المستعمرين البريطانيين استولوا على كثير من الأراضي وأغروا العبيد بأن يعملوا فيها بالأجر ليدفعوا من هذا الأجر ثمن تحررهم من ملاكهم، وفرضوا الضرائب على العبيد يدفعها ملاكهم فصار بذلك محفزاً للملاك أن يتخلصوا من العبيد أو أن يقبلوا أن يشتري العبيد أنفسهم بالعمل في مزارع البريطانيين، وما لبث أن انتقلت العمالة بذلك من مزارع الملاك الأرستقراطيين المسلمين إلى مزارع البريطانيين.

السودان الفرنسي(١)

في عام ١٨٨٤م ألغت الجمعية الوطنية في فرنسا العبودية في كل مستعمراتها، ولكن الفتوحات الواسعة في إفريقيا أدت إلى أن يكون تطبيق هذا القرار ضعيفًا للغاية، ففي السودان الفرنسي في غرب إفريقيا أقر الجيش هناك نظام العبودية، وذلك بتجنيد العبيد على طول نهر النيجر الأوسط وتحويله مجموعات عسكرية تدفع مقابلهم لسادتهم، كما أن الإدارة الاستعمارية وطنت العبيد الهاربين مع من لا بيوت لهم من النسوة والأطفال فيما يسمى القرى المحررة (قرى الحرية) وهؤلاء الناس عوملوا في الأساس باعتبارهم مصدرًا للعمل القهري للتجنيد العسكري، وهو نقل البضائع عن طرق للإمدادات العسكرية والعمل في إنشاء السكة الحديد إلى باماكو، ولم يكن يثير الدهشة أن الفلاحين صاروا يسمون «عبيد البيض».

إن الغزو الفرنسي للأقاليم الواسعة كان مصحوبًا في الواقع بزيادة ملحوظة في العبودية، وكان مرتبطًا بالتجارة. وإن الاقتصاديات المعتمدة على العبيد وخاصة في «ماراكا - Maraka» وهي منطقة في وسط النيجر استجابت لتطور الأسواق الاستعمارية في باماكو لا بشراء المزيد من العبيد فقط ولكن بزيادة القيمة الفائضة التي يستخرجونها ممن يمتلكون من العبيد بزيادة عدد ساعات العمل في اليوم وبتقليل ما يصرف لهم من طعام وبغض النظر عن عادات العمل التي تحفظ للعامل صحته وقوته.

وتحت ضغط الرأي العام الفرنسي الذي ظهر بسبب ما تراءى إليه من وضع العبيد في المستعمرات الفرنسية في إفريقيا عينت وزارة المستعمرات حاكمًا مدنيًا للسودان الفرنسي. وفي سنة ١٨٩٤م أصدرت الإدارة الجديدة قرارات ضد قوافل العبيد وأسواق العبيد مع فرض غرامة عن كل عبد يؤتى به إلى الأراضي الفرنسية وأغلقت هذه القرارات في الأسواق المركزية.

وفي الوقت ذاته ومع تقدم القوات الفرنسية في غرب إفريقيا وفي إفريقيا الاستوائية فقد انخفض الوارد من العبيد الجدد الذين تمخض عنهم الحروب الأهلية وقد نقصت العمالة ولجأ العبيد إلى الإضرابات لمقاومتهم لأوضاعهم، مما زاد من الضغط على العمل. ومن هذه الأحداث فإن الحاكم العام الفرنسي لغرب إفريقيا شرع

(١) مرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 181-183

فى إصدار نظام قانونى فى سنة ١٩٠٣م يعلن أن العبودية فى هذه المستعمرات لم تعد تعد وضعاً مشروعاً وأنه ليس من حق السادة ملاك العبيد فى هذه المستعمرات ولا من حق المحاكم الأهلية أو العسكرية هناك أن تعيد العبيد الهاربين إلى ملاكهم

وكانت أعداداً كبيرة من العبيد قد بدأت تنكر سلطة أسيادهم وتبعد عن مواطنهم ليسكنوا فى أماكن بعيدة. وفى مايو سنة ١٩٠٥م حدثت مواجهات مسلحة بين العبيد المصممين على ترك سادتهم وبين السادة المصممين على بقائهم، وقد أرسلت كتيبة عسكرية للمساعدة فى المصالحة والوصول إلى تنازلات متبادلة، ولكن جهود المصالحة فشلت وأصدر الحاكم العام فى ديسمبر سنة ١٩٠٥م قراراً بإنهاء تجارة العبيد. وفى إبريل سنة ١٩٠٦م حدث نزوح واسع للعبيد من «بانمبا ـ Banamba»، وبتأثير ما حدث فى بانمبا فإن حركات الهجرة والخروج زادت فى أماكن عديدة عبر المستعمرات. وفيما بين سنة ١٩٠٥ ـ ١٩١٣م زاد السكان فى «بوجونى ـ Bougauni» من ٩٥,٥ ألف إلى ١٦٢,٢ ألف، كما زاد فى «واهيجوا ـ Ouahiguwa» من ٩٥,٥ ألف إلى ٣١٠ آلاف، وفى «سيكاسو ـ Sicasso» من ١٦٤,٤ إلى ٢٢٣,٧ ألف وفى «كورى ـ Koura» من ٢٢٤,٢ إلى ٣٢٠ ألفاً. والخلاصة أن العبيد حرروا أنفسهم فى حين كانت السلطات الاستعمارية تتذبذب بين إلغاء العبودية وبين توجس الخطر من نتائج ذلك. وعلى كل حال لم يعد كل العبيد إلى المناطق الأصلية لهم، ومن عادوا لم يرحب بهم فى قراهم التى تعاون رؤساؤها مع الغزاة، والتى كانت عائلاتهم قد هجرتهم. وأن البعض ممن كانوا ولدوا فى العبودية بقوا بعد تحررهم مع سادتهم فى مزارعهم وبعد أن تفاوضوا معهم حول شروط جديدة للخدمة وظروف أحسن للعمل وطعام أكثر

ومن حيث النتائج الاجتماعية فإن انتهاء العبودية كان له نتائج متعددة، فإن ملاك مراكز الذين فقدوا عبيدهم قد حافظوا على إنتاجهم الزراعى إما بأن قاموا بالعمل بأنفسهم فى أرضهم مع نسائهم وأطفالهم أو باستخدام العمل المأجور، وأن بعض المناطق وخاصة عند حواف الصحارى فقدت سكانها، وأن آخرين وخاصة فى وادى النيجر الأوسط صاروا أكثر رخاء لارتباطهم بالأسواق السلعية الاستعمارية. وقد استطاع عبيد سابقون أن يكسبوا وأن يدخروا مالاً كافياً ليشتروا مزارع خاصة بهم أو أن يتحولوا إلى أعمال أخرى مثل النقل والتجارة وصناعة الملابس. وعندما لم يعد هناك

عبيد فقد اختفى الاستثمار في هذا المجال وانتقل رأس المال إلى قطاعات أخرى مثل التجارة في السلع وتربية المواشي.

موريتانيا[1]

اتبعت السياسة الفرنسية في موريتانيا طريقًا مميزًا من البداية واستمرت في ذات الاتجاه لمدة طويلة بعد غزو الداخل بين عامي ١٩٠٥ ـ ١٩١٠م، قالت الإدارة الاستعمارية إن طبيعة العبودية ونظامها هو من السمات الخاصة بموريتانيا والملصيقة بها وإن تحرير العبيد سيكون تدخلاً ثوريًا مما ينتج سخطًا سياسيًا وعدم استقرار اجتماعي.

وإن القبائل المالكة للعبيد المعروفة باسم «المور ـ Moors» تشمل البدو والرعاة والمزارعين المستوطنين والتجار ورجال الحرب والمتدينين، وهم يلتزمون ويرتبطون تمامًا بعاداتهم وقيمهم وعقائدهم وأملاكهم، وكان «الأدرار ـ Adrar» في المنطقة الداخلية التي خضعت مقاومة عنيفة وممتدة لمدد طويلة جعلته من الواضح في مفاوضاتها للتسليم أن تستبقي ملكيتها للعبيد، وكانت موافقة فرنسا على ذلك كعذر لإستراتيجية براجماتية، وأن قبائل الأدرار كانت لهم علاقات تجارية وعقائدية وعرفية وثيقة مع قبائل الشمال في مراكش والصحراء الإسبانية ولم تكن الحدود الجغرافية واضحة وكانت فرنسا تخشى أن يتكون حلف من الأدرار والشمال ضدها.

إن الهيكل الاجتماعي لموريتانيا أكثر تركيبًا وتعقيدًا من أن يكون مجرد تقسيم بين سادة وعبيد، هناك يوجد مكون مهم بشكل خاص وهو «الهراتين ـ Haratin» أو العبيد المحررين الذين لهم الحق شرعًا في أن يمتلكوا ولديهم القدرة على أن يكون لهم أملاك ولهم الحق أن يتزوجوا بإرادتهم، ومع ذلك فهم ليسوا أكفاء متساوين من الناحية الاجتماعية مع سادتهم السابقين.

إن الفرد من الهراتين مدين لمالكه السابق دينا مستمرًا في شكل جزية تتمثل في أداء نقدي سنوي أو في تقديم مقابل عيني، وهذا الالتزام ينتقل من جيل إلى جيل انتسابه

(١) مرجع سابق Islam's Black Slaves, P. 183-186

فى سلسلة لا تنتهى، ومن ثم فإن هناك مكافأة دنيوية وثوابًا أخرويًا للملاك الذين يفكون رقاب عبيدهم.

وبالنسبة للجارية الأنثى فإنها تأمل فى الهروب من وضعها بالزواج من أحد أفراد الشعب من الطبقات الفقيرة وخاصة من السود مثل الجنود فى الجيش الفرنسى الذين يجند أغلبهم من خارج موريتانيا ولكنهم يقطنون فى معسكرات فى مدن موريتانيا. إن الإدارة الفرنسية حتى لا تغضب ملاك الجوارى أصدرت تعليمات لا تشجع على زواج الجوارى بالجنود السود الفرنسيين فلا تتزوج جاريته إلا بعد أن تتحرر، وأن يدفع مهر عنها ولا يسمح لها بأن تتبع زوجها خارج البلاد، وإذا ترك هو البلاد فإن المهر الذى دفعه والأطفال الذين أنجبتهم يجب أن يبقوا مع الزوجة.

وفى التطبيق فإن عدم رغبة السادة فى تحرير الجوارى يعتبر تجاهلاً لما تحدث عنه القرآن الكريم من تحريرهن. وكثيراً ما يحدث أن السيد يقبل المهر ويصرح بزواج جاريته ثم يرفض تحريرها، وعندما صار الحق فى الأطفال محل النزاع فإن العادات العرفية والمحاكم الإسلامية السائدة تبقى الأطفال مع آبائهم، وتجد الجارية التى نشدت الحرية من خلال الزواج - تجد نفسها فقدت حريتها وحرية أطفالها.

إن توسع سوق العمل المأجور وسوق السلع قد أمد الهراتين بفرص اقتصادية جديدة ومنها تراكم مالى يسمح لهم بامتلاك العبيد ونتج عن ذلك أن العبيد المحررين بدلاً من أن يدافعوا عن العبيد غير المحررين، بدلاً من ذلك انضموا إلى السادة ملاك العبيد التقليديين من النبلاء وارتبطوا بهم أكثر مما ارتبطوا بإخوانهم القدامى غير المحررين.

وبعد أن ضمنت السياسة الفرنسية أن تكيف الأوضاع العبودية كثمن للسلام السياسى طبقت مبدأها بعد ذلك فى تقرير عدم شرعية تجارة العبيد مع تعريف مرن لما يمكن أن تتحدد به التجارة. إن بعض العبيد الذكور فروا من سادتهم ينشدون العمل المأجور ويستمتعون بالحرية عبر الحدود فى الجنوب وقد وجدوا أنه حتى عندما يوجد العمل المأجور فإن ظروف العمل تكون قاسية وليس للعامل المأجور من الحرية إلا اسمها. وبالنسبة للجوارى فمنهن من رحل، وبعض قادة المراكشيين Moors احتج لدى الإدارة الفرنسية لأن أعداداً كبيرة منهم ذهبت إلى آتار Atar عاصمة أدرار وطلبوا

اتخاذ إجراءات ضدهم. وقد وعدت الإدارة الفرنسية باتخاذ إجراءات ما ولكن لم يكن لها تأثير واقعي بدليل أن الاحتجاجات استمرت عشرين سنة تالية.

إن استعباش العبودية لا يرجع فقط إلى تشديد الرقابة التي يمارسها السادة على عبيدهم، بل قوة التقاليد والإحساس بالواجب كان يعتبر عنصراً في استمرار العبودية وانتعاشها، وإن الموظفين الاستعماريين والمحاكم القائمة كانت ترجح حقوق السادة على العبيد، وفضلاً عن ذلك فإن العبيد لم يكونوا يرغبون في أن يفقدوا ضمان المعيشة التي يقدمها لهم السادة وذلك من أجل حرية قد تقودهم إلى ظروف قاسية جداً، وإن فترات من الركود الاقتصادي جعلت الهرب إلى الحرية أسهل كما جعلته أيضاً أصعب.

وبين أعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣م حل جفاف شديد في أدرار، وترك العبيد من بدو المور Moors منطقة بحثاً عن المرعى وتركوا عبيدهم وراءهم ولجأ العبيد إلى المدن والتحقتهم جماهير السكان العاطلين في المدن. وبالنسبة للجواري ـ وكن غير قادرات على أن يجدن عملاً منزلياً ـ لم يجدن وسيلة للحياة إلا الأعمال الهابطة ومنها الدعارة، وفي الجنوب حيث إقليم «ترارزا ـ Trarza» الذي يعتمد في رخائه على الأسواق العابرة للحدود عند السنغال أصيبت كذلك بركود اقتصادي شديد. وفي هذه الأثناء وجدت تجارة الرقيق؛ لأن بعضاً من الملاك باعوا عبيدهم إلى تجار الأدرار، وهؤلاء التجار إما استبقوا ما اشتروه أو باعوهم إلى تجار آخرين.

ولما جاءت الحرب العالمية الثانية (من ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) ضربت بعنف الأسواق في كل من الشمال والجنوب بشكل حاد ووسط هذا البؤس فإن الهراتين والعبيد الذين لم يستطع سوق العمالة البدوية أن يستوعبهم فقد تحولوا إلى لصوص ومشردين، ومرة أخرى كما حدث في أزمة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣م انتعشت تجارة الرقيق وخاصة ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧م ولجأت الناس إلى الدعارة.

إن الأوقات الصعبة تشكل فرصاً يمكن للبعض أن يستغلها فإن قبيلاً من الهراتين شروا ماشية ونخيلاً وممتلكات أخرى من ملاك الأراضي الذين اضطروا إلى بيع ما يمتلكونه تحت وطأة الدين أو لإطعام أسرهم وبعضهم استثمر جزءاً من أمواله في شراء العبيد. إن شخصية مثل حمودي في أتار Atar قد أرسى أسس ثروته كتاجر للحوم

وللجلود واستطاع أن يسيطر على أغلب الملكيات عند انتهاء الحرب، وقد اشترى عبيداً للعمل في أرضه واشترى محظيات من الجواري وتزوج بإحداهن وعندما توفي سنة ١٩٦١م كان لديه ١٣ طفلاً ومائتان من العبيد.

الصومال[1]

في سنة ١٨٩٢م تخلى سلطان زنجبار عن ساحل «بنادير Benadir» في جنوب الصومال لسيطرة المصالح التجارية الإيطالية، وكانت السلطة سنة ١٨٧٣م قد أصدرت قرارات متتابعة ضد تجارة العبيد وضد العبودية في ذاتها على طول ساحل الصومال ومع ذلك فإن أثر هذه القرارات كان ضئيلاً حتى أنه سنة ١٩٠٣م فإن شركة بنادير الإيطالية تعاونت بشكل صريح مع تجار العبيد المحليين، وإن إحصاءً جرى وأظهر أن نحو ثلث سكان مقديشيو البالغين ٦٧٠٠ ساكن ثلثهم كان من العبيد، وثمة عدة آلاف في مدن أخرى كانوا يعملون في صناعات النسيج وزيوت السمسم وأغلبهم كانوا مملوكين لتجار عرب وصوماليين. وفي سنة ١٩٠٦م عندما صار للحكومة الإيطالية سيطرة مباشرة، فإن حاكمها الأول قدر إجمالي سكان العبيد في المستعمرة ما بين ٢٥ ألفاً و٣٠ ألفاً، وقد خضعت الحكومة لضغوط الرأي العام الإيطالي الذي كان ساخطاً على ارتباطات شركة بنادير بتجارة العبيد فأصدرت الحكومة سلسلة من القرارات فيما بين سنة ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤م تحرم فيها تجارة الرقيق وتقرر التحرير المباشر لكل العبيد الذين ولدوا قبل ١٨٩٠م وفي المدن حيث قدمت الإدارة الإيطالية أرصدة تعوض بها السادة لتساعد على تقبلهم لقراراتها، فإن العبيد المحررين تحولوا إلى خدم سارل لدى ملاكهم السابقين واعتبروا عمالة منخفضة الأجر يعملون كناسين وبوابين أو أصبحوا مشردين ومحرومين. وبعيداً عن الساحل في المناطق الزراعية على طول الأنهار فإن أتباع هذه السياسة الرسمية واجه معوقات ومشاكل.

إن السلطات الاستعمارية في مواجهتها للمشاكل التي نتجت عن إلغاء العبودية في المدن لم تكن عازمة على التوسع في هذه السياسة في مناطق أخرى. ولكن العبيد في الداخل كان لديهم تفكيرهم الخاص وإن ما عرف عما حدث في الساحل زادت به

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves. P. 187-189

سمة الهاربين من العبودية بدءاً من عبيد المزارع وعلى مدى نهر شابلي Shabel e، ولكنها انتشرت سريعًا بعد ذلك. وقد أجاب السادة الملاك على ذلك بممارسة رقابة شديدة وتوقيع عقوبات قاسية على من يقبض عليه وهو يحاول الفرار. ولكن الحاصل أن زادت فرصة في الفرار بدلاً من أن تقل وخاصة في مناطق التركز الواسع للعبيد المستوردين ولمن يحيون في ظروف أسوأ.

وإن السلطات الإيطالية زاد إحساسها بالخطر وبدأت توسع من سيطرتها على المناطق الداخلية، تحاول الوصول إلى حلول وسط مع العشائر الصومالية مالكة العبيد وكانت آثار حذرها تهريب السادة وحركات التمرد التي أتت عبر الحدود مع الصومال البريطاني، حيث كانت حركة الدراويش للمقاومة المسلحة تواجه الحكم الاستعماري. وطبقًا لذلك فإن الإيطاليين اتخذوا موقفًا متصالحًا مع ملاك العبيد في الداخل، وإن المحاكم القضائية استحثت العبيد للوصول إلى اتفاق مع سادتهم ثمنًا لحريتهم. وهذه السياسة، أقنعت العديد بالبقاء مع سادتهم باعتبارهم عمالاً أكثر من اعتبارهم عبيداً. وهناك أيضًا من اكتسب حريته بطرق مختلفة وبعضهم استوطن إحدى القرى التي يسكنها المزارعون وعملوا بالأجر في أراضي العشائر الكبيرة الصومالية وبعضهم من العبيد المحررين اشتغلوا في المزارع المملوكة لهم في وادي شبيلي

ومثل هؤلاء العمال المزارعين كانوا في خط المواجهة في السخرة للعمل في مشروعات الحكومة، ومن المفهوم أن كثيراً من العبيد المحررين ذهبوا ليستوطنوا في القرى البعيدة التي أنشئت وشقت في القرن التاسع عشر، وكان ذلك في الأساس في مناطق الأحراش والغابات في جوشا Gosha على نهر جوبا الأدنى، حيث كان هناك نحو ٦٠ قرية بإجمالي سكانها يتراوح بين ٢٠ و٣٠ ألفًا، وكانت هناك قرى أخرى قرب أفوى Avai وكل منهم استقل بإنتاجه الزراعي إنتاجًا رعويًا وحرفيًا بالقرب من العشائر الكبيرة الصومالية.

وأخيراً هناك المستوطنات الدينية المرتبطة بواحدة أو بأخرى من الطرق الإسلامية الأساسية، وأقدم هذه المستوطنات أنشئ في القرن التاسع عشر بواسطة طريقة الشيوخ (طريقة صوفية) ونمت عدداً وحجمًا وخاصة في أوائل القرن العشرين، وكما يقول

أحد المؤلفين فإنهم جذبوا الأفراد بغير عشائرهم، وبعض المجموعات انفصلت عن عشائرها، كما جذبوا عبيداً بغير سادتهم وأجراء بغير أرباب عملهم، والمهاجرين من الجفاف أو الحروب أو الكوارث، وإن الحكومة الاستعمارية عاملتهم وفقًا لاعتبارات خاصة، وذلك لتفصل بينهم وبين العشائر المالكة للعبيد والتي تكون معادية للإيطاليين، ولتفصل بينهم أيضًا وبين حركة الدراويش الآتية من وراء الحدود. وقد أعطت معاشات لمشايخها ووقفت إلى جانبهم ضد خصومهم حول الحقوق في امتلاك الأراضي وحول إيواء اللاجئين منهم وحول إعفائهم من الأعمال الجبرية.

إن المستوطنات الدينية احتوت من المزارعين ما بين ١٥ إلى ٣٠ ألف مزارع، في حين أن نحو ٢٠ ألفًا آخرين عاشوا في قرى أنشئت على طول نهر جوبا بواسطة العبيد الفارين. إن هؤلاء يقدرون تقريبًا بنحو ثلث إجمالي السكان الزراعيين والآخرون يشكلون عمالاً رواعيين أو عمالاً موسميين، ونتج عن ذلك أن المستعمرين الإيطاليين والشركات ذات الامتيازات وجدت صعوبات متزايدة في جلب العمالة المناسبة لمشروعاتهم الزراعية. ثم في سنة ١٩٢٢م عندما سيطر الفاشيون على السلطة، في إيطاليا طرحوا حلهم الخاص بمشاكل العمالة.

إن النظام الجديد في إيطاليا أدخل ضريبة الأكواخ السنوية وقد صممت هذه الضريبة لنقل العديد من الصوماليين إلى العمل المأجور باعتباره الوسيلة الوحيدة لأدائها. وقد اتسع نطاق العمل بهذه الطريقة وزادت السيطرة الاقتصادية ليس فقط في عموم المستعمرة ولكن أيضًا في المناطق القريبة مثل أثيوبيا. وإن الشركات الإيطالية الممنوحة امتيازات للزراعة زادت من أربع شركات سنة ١٩٠٢م إلى ١١٩ شركة سنة ١٩٠٣م. وبعد عدة عقود فإن كبار السن من الصوماليين يتذكرون أشكالاً مختلفة من التجنيد والعمل القسري منها نوع يسمى عقود العمل الزراعي لأربع سنوات قابلة للتجديد وأخرى تتعلق بالأعمال الخاصة بالمشروعات الحكومية والأعمال العامة كشق القنوات وغير ذلك، وحتى التكايا الدينية التي كانت معفاة من العمل الإجباري فقدت هذه الميزة وهو تغيير في السياسة نتج عن قيام انتفاضتين قادهما رجال الدين الصوماليون في عامي ١٩٢٤ - ١٩٢٥م.

أنهت هزيمة القوات الإيطالية عبر منطقة القرن الإفريقي في عام ١٩٤١م خلال الحرب العالمية الثانية أنهت الحكم الفاشي على الصومال، وحل محله وصاية الأمم المتحدة حتى ظهر الصومال المستقل سنة ١٩٦٠م. وبقيت أوضاع العمالة في مرحلة ما بعد الاستعمار كما هي أوضاعًا اجتماعية متدنية.

زنجبار وساحل كينيا[1]

على طول ساحل كينيا وفي جزيرتي زنجبار وبمبا Pemba كانت سلطنة زنجبار ذات اقتصاد زراعي يعتمد على العمل العبودي، وفي سنة ١٨٩٠م عندما أعلنت الحكومة البريطانية حمايتها على السلطنة كان عليها أن تتعامل مباشرة مع التحدي الخاص بالعبودية، إنها طبعًا لم تتعامل بعدم اهتمام، وهي في عام ١٨٩٧م أعطت العبيد في الجزر الحق في أن يطلبوا حريتهم واستثنت من ذلك المحظيات اللائي بقين جواري حتى ١٩٠٩م.

كان الهدف الأول للسياسة البريطانية في الجزر هو استبقاء القدرة الإنتاجية وهي في الأساس كانت تصدير القرنفل الذي كان يعتمد على قوة العمل المناسبة. وقد كان لإلغاء العبودية تأثيره السلبي، فإن العبيد المحررين خضعوا للضرائب وللعمل القسري وقد كانوا يحتاجون لحيازة وسائل العيش وكان عليهم أن يؤدوا للملاك أجرة الأرض التي يعملون فيها نقدًا أو بالإنتاج أو بالعمل.

إن بعض العبيد ذهبوا إلى المحكمة يطالبون بحريتهم ثم عدلوا عن دعواهم عندما عرفوا أنهم سيتركون منازلهم أو الأراضي التي يزرعونها إذا لم يدفعوا الأجرة. وعلى أي حال فإن أعدادًا أخرى طالبت بالتحرر وحصلت على الحرية في حين أن آخرين حرروا أنفسهم بغير حاجة إلى المحاكم أو بالحصول على شهادة رسمية، وقد اشتغلوا في المزارع أو في العمل الموسمي في الموانئ أو في خدمة المنازل أو هاجروا إلى كينيا أو توظفوا في مد خطوط السكك الحديدية.

وقد أدى العجز في العمالة إلى أن يجبر المزارعون أوضاعًا جديدة فبدل أيام العمل خمسة في الأسبوع صارت ثلاثة أيام عمل في الأسبوع، وهؤلاء العمال الذين تحو

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 190-191

عبيداً منحوا أجوراً عن عملهم خلال أيام العطلات الأسبوعية عن أيام العمل الحرة، والعبيد السابقون كانوا يؤجرون بالقطعة وكانوا يمارسون ضغوطهم بالمساومة على الأجور في الفترات الحرجة لنضج المحصول. وكان الموظفون الاستعماريون يلومون الزراع على الأنظمة غير المناسبة التي يتبعونها وأدخلوا نظاماً تعاقدياً مناسباً يتضمن جزاءات وعقوبات ولكن جدواه كانت قليلة.

كانت المزارع تحتاج إلى عمال قادرين؛ لأن التقاط القرنفل تتطلب مهارة ورشاقة وإلا تعرضت الأشجار للدمار، ولذلك فإن العمال المأجورين كانت تكلفتهم كبيرة، فبدأ المزارعون يغيرون من نظام تعاملاتهم الإنتاجية بما يكون مناسباً، وأصبح مقبولاً لدى العمال الذين استقروا في الأرض ليزرعوا محاصيلهم الخاصة بغير أجرة أن يقبلوا نوعاً من العمل المأجور.

ذكر المعتمد البريطاني سنة ١٩١٧م أنه كانت هناك أسباب من الإحباط الاستعماري، فإن العبيد المحررين بدا أنهم غير راغبين في تبني قيم النظام الاجتماعي الذي يجرم التشرد والسكر والرقص، كما ذكر أن أرقام الجرائم كانت نسبة واحد من كل عشرين (١ : ٢٠) في مدينة زنجبار سنة ١٩٠٦م. وكان الجلد يمارس، وفي سنة ١٩١٤م قيل إنه جلد نحو ٣٦٥ شخصاً لأسباب مثل السرقة أو السكر أو الشغب أو رفض العمل وكثير منهم كانوا من العبيد.

وقد أسفر الحكم البريطاني لجزيرتي زنجبار وبمبا عن فشل اقتصادي. ويعتمد اقتصاد هاتين الجزيرتين على تصدير القرنفل التي كانت تبلغ نسبته في الصادرات في التسعينيات من القرن التاسع عشر نحو ٦٥٪ وزادت إلى ٧٠٪ في العشرينيات من القرن العشرين، وكان الاعتماد على محصول واحد ينطوي على مخاطر جمة إذا حدث وانخفضت الأسعار العالمية لهذا المحصول.

وفي بمبا[1]: وهي جزيرة زراعتها من القرنفل كبيرة، يشكل العرب نحو ١٢٪ من سكانها ولكنهم يملكون ٤٦٪ من كل شجر القرنفل، وفي زنجبار شكل العرب ٥٠٪ من سكانها في حين يملكون ٦٨٪ من كل أشجار القرنفل بالجزيرة. وقد عمل البريطانيون على إبقاء السيادة لطبقة الزراع العرب كوسيلة لاستبقاء الاستقرار الاجتماعي. وكانت

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 192- 196

مدارس الدولة الابتدائية تحتم العرب وقلة من الإفريقيين وأقل القليل بالنسبة للطبقات الدنيا، والعرب هم من يختار منهم فى وظائف الإدارة.

كانت السياسة البريطانية على طول الساحل الضيق لكينيا مختلفة عما اتبع فى جزائر زنجبار، إذ كان لساحل كينيا وضع خاص وبقى محمية رغم أن باقى كينيا صار من مستعمرات التاج البريطانى وظل الحكم البريطانى فى الشريط الساحلى يتجه أكثر فأكثر لتشجيع المستوطنين الأوروبيين واستيفاء حاجاتهم للعمل أكثر مما يحمى مصالح الملاك الزراع العرب والسواحيليين فى هذا الساحل. وعندما ألغيت العبودية هناك سنة ١٩٠٧م فإن المحاكم أصدرت تعليماتها لإعلام العبيد بأن يتركوا ملاكهم. وكثير من العبيد تركوا ملاكهم أو بقوا معهم مع الاتفاق على شروط أفضل للعمل. وبعض العبيد السابقين انجذبوا لمدينة ممبسة التى كانت تنمو سريعًا وعملوا هناك فى المواني وفى الشرطة وكخدم منازل لدى الموظفين والتجار والمستوطنين الأوروبيين. وآخرون عملوا بالأجر أو بالأعمال التجارية البسيطة، والبعض الآخر عملوا فى جمع جوز الهند أو فى الصيد أو اشتغلوا فى بعض الحرف والخدمات، وكثير منهم اشتغلوا فى جمع المحاصيل لحائزى الأرض من العرب أو من الملاك السواحيليين، وذلك بأجر نقدى أو بغيره.

ومع النهاية الرسمية للعبودية فإن الحائزين للأرض من جماعات «الجريامـ Giriama» من شعب «الميجيكندا ـ Mijiken» حولوا الأراضى على ضفتى نهر سباكى إلى منطقة ذات إنتاجية عالية جدًا. وقبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م بدأت السلطات الاستعمارية تطرد هؤلاء المستوطنين إلى مناطق أخرى وجاءت فرق عسكرية لتجبرهم على ترك هذه المنطقة وحرقت أكواخهم واستولت على ديارهم وعلى العبيد السابقين لهم، لقد ارتحل ١٥ ألف شخص من منطقة خصبة إلى أرض فى الساحل، ثم أتت المجاعات وصارت الحكومة تجد نفسها مضطرة لأن تمد هذه المنطقة بالغلال بعد أن كانت تصدر منها. ولم تكن الإدارة الاستعمارية سعيدة بذلك ووصف الحاكم البريطانى هذا الأمر بأنه خطأ كبير جدًا. وفى سنة ١٩١٧م عاد الجرياما حائزو الأرض من منطقة «الكليفى ـ Kalifi» إلى «مالندى Malindi» على طول الساحل حيث رحب بهم الملاك العرب والسواحيليون، وكذلك عادوا إلى شمال نهر سباكى Sabak.

وخلال الحرب العالمية الأولى فإن الطلب العسكرى على الحمّالين أدى إلى تجنيد مكثف للشباب السواحيلى والميجيكندا، ولم يكن غريبًا أن يثير هذا الأمر ذكريات أليمة، وكان مرور الموظفين والرؤساء على القرى بحثًا عن رجال أقوياء البنية، كان يشبه الإغارات من أجل اصطياد العبيد. وفى المناطق النائية خلف السواحل فإن قرى كاملة كانت تنزح إلى الأدغال وتفقد محاصيلها، وحتى النساء كن يعتقلن ولا يفرج عنهن إلا بعد ظهور رجالهن.

ومع انتهاء الحرب حدث نوع من الرواج فى الزراعة السواحيلية وتطورت حركة التجارة فى ممبسة، وأتت إلى هذه المناطق أعداد متزايدة بحثًا عن العمل الذى صارت أجوره طيبة. ثم حدثت الفتنة فى سنة ١٩٢٣م بين العمال النازحين من الداخل من هؤلاء وبين عمال الساحل الذين كان الكثير منهم عبيداً سابقين، وكانت الفئتان تتنافسان على الأعمال والوظائف. وخلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها فإن السلع الاستعمارية زاد عليها الطلب ولكن أرباحها كانت تؤول إلى الملاك المنتجين، وكانت زيادة الأجور تقل كثيراً عن تصاعد التضخم فى ممبسة وما جاورها، ونتج عن ذلك العديد من الإضرابات والاضطرابات الذى تصاعد معه الشعور بالعداء للحكم الاستعمارى.

لقد كان المزارعون المقيمون على الساحل الذين قبلتهم السلطات الاستعمارية كانوا قد صاروا حقيقة واقعة، وأن الضرائب الاستعمارية وسياسات الأرض جعلا من الصعب على المزارعين المقيمين هناك أن ينمو إنتاجًا متزايدًا للتصدير، ولم يكونوا قادرين على أن يركموا رأس المال اللازم لتوسيع عملياتهم أو لشراء الأراضى التى يعملون فيها، والعديد منهم كانوا يعيشون بالاقتراض بفوائد باهظة.

وفى الخمسينيات من القرن العشرين ظهرت المقاومة المسلحة للحكم الاستعمارى فى كينيا، وكانت تتصاعد مع محاولات قمع السلطات لها وهذا ما سمى بحركة ماوماو وأعلن استقلال كينيا عام ١٩٦٣م.

وقد أثبت النظام الجديد أنه لم يستطع أن يحل مشكلة الحيازات للعبيد المحررين الذين كانوا يحوزون الأرض، وأن سياستهم فى إحلال الحائزين فى أراضى الحكومة كانت نوعًا من أنواع استبدال إقطاعى بآخر.

رابعاً: عدد العبيد المقتنصين

تختلف تقديرات المؤرخين لأعداد الرقيق الذى نقله الأوروبيون فى إفريقيا إلى الأمريكات وأوروبا طوال الفترة من الثلث الأول من القرن الخامس عشر حتى إلغاء تجارة الرقيق فى أواخر القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين، قدرهم الرئيس بعدى كوامى نكروما بمائة مليون فى حين قدرهم البعض بـ ١٥ مليوناً.

وقد يرجع هذا الفارق الشاسع فى الرقم إلى أن كل إفريقى كان يصل إلى الأمريكتين يقابله ٤ أشخاص ماتوا فى مراحل مختلفة، واحد مات عند القنص وواحد مات أثناء محاولات الهرب خلال الطريق بين قريته والحصن أو الحامية التى كان يتجمع بها المقتنصون على الساحل، وواحد مات فى هذا الحصن بينما كان ينتظر قدوم السفن الأوروبية لنقلهم، وواحد أخير مات خلال الرحلة عبر الأطلنطى وحتى إذا افترضنا أن المفقودين يشكلون نسبة ٢ : ١ بالنسبة للذين يصلون إلى ساحل أمريكا، فإن أدق التقديرات تتراوح بين ٤٠ و٦٠ مليوناً وصلوا الساحل الأمريكى، وأن نحو ستين مليون فقدوا داخل القارة أو فى عمق المحيط[١].

من الصعب تحديد عدد من مورست عليهم تجارة الرقيق فالأرقام تتفاوت بشكل كبير بين مرجع وآخر، إن بازيل ديفيد سون يقدر الفقد البشرى الإجمالى لإفريقيا بسبب القنص والتجارة ونتائجها، فيقول: إذا كانت الرحلات المحظوظة تفقد نحو ١٠٪ أو أقل فإن الرحلات الأسوأ تفقد أكثر بشكل مرعب، كما أنه من الصعب أن نحصر عدد رحلات السفن؛ لأن السفن كانت تتطور لتكون قادرة على الإبحار بعطاء أقل أو بسرعة أكثر، و بوسائل صارت أكثر علمية لهذه التغيرات بسبب الأرباح المتزايدة.

وفى نصف القرن من التجارة غير المشروعة فإن ما كان يسمى بالربط المحكم قد حصد أعداداً هائلة من المقتنصين ومثال واحد لما يجلبه الربط المحكم أن بارجة إسبانية تسمى أمستد أو الصداقة شحنت ٧٣٣ مقتنصاً من ساحل إفريقيا الغربى وأفرغتهم فى هافانا (كوبا) بوسط أمريكا بعد ٥٢ يوماً وكان عددهم فقط ١٨٨، وكل الغرقى مات فى

---

(١) موسوعة لإفريقيا المجلد الثانى تاريخ إفريقيا، المرجع السابق ص ٣٨٥

الطريق. وأن الطبيب الذى فحص البارحة عند وصولها لاحظ أن قبطان السفينة كان يربط المقتنصين بقدر من الإحكام والضغط لا يسمح لأى منهم عند رحيله من إفريقيا بأكثر من ثلث متر ينام فيه ويتقلب ويتحرك، وهذه الفظائع تضاعفت خلال العقود التى مورست فيها التجارة غير الشرعية.

إذا أخذنا ذلك فى الاعتبار فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الخسائر فى شحن السفن خلال التجارة كانت حوالى ١٣٪ من كل هؤلاء الذين اقتنصوا وأخذوا من الساحل وشحنوا فى السفينة، وبافتراض أن من وصلوا أحياء كانوا حوالى ١١ مليونًا فإنه يكون من مات فى السفن من الشحن حوالى مليون ونصف المليون أو أكثر[١].

وبهذا الرقم الإجمالى التقريبى المقدر بـ ١٢.٥ مليون وضعوا على ظهر السفن يجب أن نضيف إليهم من مات فى إفريقيا بسبب هذه التجارة قبل الشحن على السفن. كم كان هؤلاء؟ لا توجد إجابات إحصائية عن هذا السؤال ولا تقريبية، وكل ما يظهر واضحًا هو أن العدد الإجمالى ممن فقدوا حياتهم قبل الشحن كنتيجة لواحد أو أكثر من وجوه صيد المقتنصين أو نقلهم فى السفن كان عددًا كبيرًا جدًا فى الأقاليم المنهوبة فى وسط أنجولا مثلاً وغيرها من الأقاليم ولا يمكن أن يقل ذلك عن عدة ملايين من البداية للنهاية، ومن المستحيل الاقتراب أكثر من ذلك. كما لا يمكن الاقتراب بشكل عام من الإحصائيات الخاصة بتجارة الرقيق فى غير الأطلنطى؛ لأن تجارة الرقيق كانت تدار فى البر من خلال الصحراء إلى شمال إفريقيا والبحر المتوسط، ونقل تجارة الرقيق الأوروبية من شرق إفريقيا إلى الجزيرة العربية والهند والصين، وفى هذا أيضًا يبقى الكثير من عدم التحدد والتضارب.

إن عددًا من الكتاب الأوروبيين يذكرون أن أوروبا يجب أن تحمل اللوم الأقل فى تجارة الرق، واقتناعهم بهذا الأمر يميل بهم إلى المساواة بين التجارة العربية الآسيوية والتجارة الأوروبية، ويصورون الأمر على أن التجارة الأولى هى الأكثر من التجارة الثانية. ولا شك أن التجارة الآسيوية كانت مخربة ومؤلمة وأنها استمرت فى الحقيقة قرونًا ولكنها كانت الأقل.

---

(١) المرجع السابق The African Slaves Trade. P. 98

إن التجارة عبر الصحراء في المقتنصين الإفريقيين الذين بيعوا رقيقًا في أراضي البحر المتوسط كانت قديمة قدم روما وقرطاج، وكانت أحيانًا تشمل مقتنصين آخرين من الشمال يبيعون رقيقًا جنوب الصحراء واستمر ذلك عدة قرون، وتأكدت خلال العصور الوسطى وبعدها لمدة طويلة. وأخيرًا في سنة ١٣٥٢م فإن الرحالة ابن بطوطة عاد من زيارته مالي جنوب الصحراء في قافلة تتجه شمالاً وتشمل ٦٠٠ من المقتنصين.

ولكن المسألة بالنسبة للتجارة العربية. ما هي الاقتصاديات التي يقوم بها المقتنصون ويسمون بها؟ هي في الأساس اقتصاديات من خلالها يستورد العبد للترف ويعملون في الخدمات العسكرية والخدمات المنزلية، وكان من النادر أن يستخدموا على نطاق واسع كمستخدمين زراعيين أو عمال مناجم، وبهذا التوظف الترفيهي كان العبيد يشكلون استخدامًا عالي الثمن لا يقدر عليه أو لا يقدر على امتلاك العبيد منهم إلا الغني، وحتى امتلاك الواحد أو الاثنين كان يفوق إمكانات الكثيرين من امتلاك غير اليسير ويكون الرقيق عالي الثمن ويستخدمون في المجالات التي تحقق بها الثقة والألفة فقد كانوا منتعشين كأفراد حتى بالنسبة للخصيان الذين كانوا يخضعون في البداية لمعاملة مؤلمة ومهينة. واقتصاديات هذه المجتمعات يمكن أن تستخدم عدة مئات الألوف ومضاعفاتهم من الرقيق، ولكنها حتمًا لا تستطيع أن يستخدم الملايين منهم.

***

في نهاية القرن السادس عشر كانت إفريقيا تمثل ١٥٪ من تعداد سكان العالم. وفي عام ١٩٥٠م كان يسكنها أقل من ٧٪ أي أن نسبتها إلى سكان العالم انخفضت إلى النصف خلال ثلاثة قرون. وفي عام ٢٠٠٠م بلغ عدد سكانها ٦٤٠ مليونًا أي أكثر بقليل من ١٠٪ فقد استعادت إفريقيا بعض ما فقدته من وزن نسبي بسبب تجارة الرقيق عبر المحيط.

وحوالي سنة ١٦٠٠م كان سكان إفريقيا يقلون قليلاً عن سكان الصين ولكن الأعداد كانت متقاربة. وفي عام ١٩٥٠م كان عدد سكان إفريقيا حوالي ثلث عدد سكان الصين. وفي مطلع القرن الواحد والعشرين بلغ عدد سكان إفريقيا نصف سكان الصين، (ويتنبأ خبراء السكان بأن عدد سكان إفريقيا سيساوي عدد سكان الصين بحلول عام ٢٠٢٥م)[1].

ملحوظة يرجع عدم زيادة الصين إلى سياسة تحديد النسل التي تتبعها الصين.

(١) برنامج الإنمائي للأمم المتحدة مستقبل إفريقيا، مركز البحوث العربية والإفريقية ص ٢٨

خامسا: خلاصة أربعة قرون من تجارة الرق

لا يوجد تلخيص لخلاصة أربعة قرون من تجارة الرق أفضل مما كتبه بازيل ديفيد سون في كتابه «African Slave Trade» إنني هنا أعرض كلامه المفعم بالصدق والحب لقارة أحبها هذا المؤرخ العظيم وأحب أهلها وأوقف علمه وجهده وعطاءه ليكتشف جانب المضيء من ماضي إفريقيا القديم الذي خبأه المستعمرون تحت بساط التاريخ وأسدلوا عليه ستار النسيان ووصموه بالدونية والبربرية والوحشية والهمجية والتخلف، حتى قدر أن يأتي هذا الصوت الشريف من بني جلدتهم ليكشف أكاذيبهم عن شعوب هذه القارة المظلومة[1].

نهاية وبداية

يقول ديفيد سون، مع الغزو الاستعماري دخلت العلاقات الأوروبية الإفريقية مرحلة حاسمة جديدة وكانت الأفعال وردود الأفعال تحدث بسرعة متزايدة. إن الإعلانات الأولى للقومية الحديثة سمعت في غرب إفريقيا بعد أقل من عشرين سنة من الغزو الأوروبي. وإن المرحلة الأساسية للاستعمار في غرب إفريقيا استمرت أكثر قليلاً من نصف القرن.

وكانت هذه السنوات الاستعمارية مذلة وقاسية ومبددة، لكنها كانت قليلة نسبيًا فهي أقل من ثلث المرحلة التي سادت فيها تجارة الرقيق، وكانت تستغرق أقل من ثلاثة أجيال، وقد قادت إلى نقطة متامية ووعي متزايد بمجتمع جديد وإلى صحوة سياسية وإلى بعث للثقافة الإفريقية والشعور بالثقة الاجتماعية.

إنني أفكر في مرحلة ما قبل الاستعمار باعتبارها سنوات المحنة لأنه في هذه السنوات وعلى مدى قرون طويلة عانت إفريقيا بشكل مستمر وقاس من علاقاتها مع أوروبا. وكانت سنوات المحنة هي سنوات العزلة والشلل أيا كانت التجارة التي مورست فيها سواء كانت تجارة العبيد أو غيرها.

كم عانت إفريقيا من تفريغها من السكان؟ إن العبودية أدت المناطق الساحلية وبعيدة عن الساحل، كما أدت غيرها وهو صحيح بالنسبة للكونغو وبالنسبة للساحل

(١) ما يلي هو ملخص من كتاب بازيل ديفيد سون «African Slave Trade» المرجع السابق ص ٢٨٥ - ٢٩٦.

لشرقى وصلت منه لشرق خليج غينيا، وهو صحيح أيضاً لعرها، وبشكل عام إذا أخذنا في الاعتبار أن من وصل حياً إلى السواحل الأمريكية يصل إلى نحو ١٢ مليوناً وأضفنا مليونين لمن فقدوا عند عبور المحيط وأضفنا نصف هذا العدد الإجمالي أي نحو ستة ملايين من فقدوا قبل الإبحار (وهذا الرقم الأخير هو مجرد ظن لأنه لا توجد إحصائيات) فنحن بهذا نصل إلى أن العدد الإجمالي يبلغ ٢١ مليوناً من التجارة عبر الأطلنطي فقط، إنه عدد ضخم لا شك ولكنه يتوزع على مدة طويلة، وإذا نظرنا إلى العدد المفقود قبل ١٦٥٠م أي قبل أن تتوسع تجارة العبيد وأضفنا الفاقد البالغ ٢١ مليوناً في حدود القرنين اللذين تميزا بالتوسع في الاسترقاق (١٦٥٠ - ١٨٥٠م) يكون قد وصل إلى إجمالي يقدر بنحو عشرة ملايين عن كل قرن من هذين القرنين، فإن ذلك يشير إلى فقدان معجز لهؤلاء الناس الذين قامت التجارة بقسوة صيدهم.

لقد كان هناك فقدان مستمر للناس وأدى هذا إلى إضعاف المجتمعات، إن السكان في هذه الأيام الحالية قد زادوا وفي غرب إفريقيا هناك زيادة كبيرة في المنطقة الساحلية أكثر من ٥٠ نسمة في الميل المربع الواحد في بعض المناطق، كما أن هناك كثافة لا بأس بها عند حدود الغابات ولكن في المناطق التي تقع ما بين حدود الغابات بين أراضي السافانا تقل الكثافة إلى نحو ١٠ في الميل المربع وأحياناً ما تصل إلى شخص أو اثنين فقط.

إن التربة وغيرها من العناصر الطبيعية تفسر هذا التباين ولكن إذا كان من الصواب أن عدداً كبيراً من عبيد غرب إفريقيا أخذوا من المنطقة المتوسطة؛ حيث لم تكن هناك دول كبيرة تحميهم فإنه يمكن القول إن هذه الندرة النسبية للسكان لها علاقة بتجارة الرقيق.

الهجرات

إن الشواهد الخاصة بالتفريغ السكانى الخطير من خلال التجارة غير مقنع وحده، وإن أعداداً كبيرة من المقتنصين كانوا يشحنون من أراضي العدد في بيجيريا لفترة طويلة جداً، ومع ذلك فإن هذه المناطق كانت من أكثر المناطق كثافة سكانية في إفريقيا يعلق أحد الكتاب قائلاً: إننا إذا حكمنا من وثائق القرن التاسع عشر فإن الكثافة السكانية الزائدة كانت هي القاعدة في كل أقسام قبيلة أيجبو ويعلق نزيل، وهذا ما يبدو أن تكون فلا يبدو أن تجارة العبيد كان لها أثر يقلل من معدلات الولادة والحياة، وهذا

التحفظ لا يعني القول بأن تجارة العبيد ساعدت على زيادة نسبة المواليد ولكنه يعني أكثر أن نسبة المواليد في هذه المناطق المتسمة بالخصوبة قد ساعدت على تجارة العبيد بمثل ما كان يقال في الأزمنة البعيدة إن زيادة الكثافة السكانية في جنوب نيجيريا جعلها تتحرك وجعل حركات الهجرة تزيد بما ساعد على تعمير وسط إفريقيا وجنوبها.

إن الإنسان يتعين عليه أن يمعن النظر في التأثير السياسي لهذا النظام الاستعماري لتجارة العبيد وهو نظام حتى لو اعتبر نمواً تلقائياً للضرورات الاجتماعية فإنه كان سياسياً وأخلاقياً مشوهاً، وسواء كانت تجارة الرقيق التي أسست بها أوروبا الغربية جزءاً كبيراً من رخائها كان انحرافاً حقيقياً أو أنه كان مجرد خلاصة لطبيعة التقدم اللا إنساني في هذا العصر، كما لاحظ كارل ماركس بالنسبة لعمل الأطفال في المصانع والاسترقاق في الورش. فإن هناك مآسي كثيرة دلت عليها تجارة العبيد سواء كان ثمة تفريغ سكاني أو لم يكن.

والحقيقة إن كثيراً من المؤرخين يعتبرون عملية الاسترقاق وتجارة العبيد قد أفقدت إفريقيا قسماً كبيراً من ثرواتها من الأيدي العاملة الإفريقية ويعتبرون هذا الأمر سبباً أساسياً للتدهور الحضاري والتنموي لإفريقيا خلال هذه القرون، وأن تفريغها من السكان هو المسئول عن التخلف الحادث من بعد.

الشاهد الاقتصادي

إن الشاهد الاقتصادي هو أكثر قسوة ولا يمكن أن نثبت بالشكل الجازم أن العلاقات الأوروبية بين أعوام ١٤٥٩ ـ ١٨٥٠م كانت هي سبب الركود الاقتصادي في إفريقيا، أو أن هذا الركود صار أسوأ بعد أن سادت تجارة العبيد حوالي سنة ١٦٥٠م؛ لأنه حتى بعد أن انطلقت التجارة استمر الإفريقيون ينسجون المنسوجات ويصهرون المعادن ويمارسون الزراعة ويعملون بالحرف والتقنيات اليومية التي يمارسونها في حياتهم اليومية. ولكن بطاقة ضعيفة

وبالنسبة للزراعة فرغم أن كان ثمة بعض المعالم لهم باتصالهم بأوروبا؛ لأن السفن الآتية من جنوب أمريكا أدخلت محصولات جديدة نافعة صارت ذات أهمية كبيرة بالنسبة لإفريقيا.

وكان لذلك أثر طيب على الشعوب الإفريقية وزراعتها، فإنه لايكاد يكون ثمة شك في أن الدوافع الخاصة بالآثار الاقتصادية الناتجة عن الاتصال الأوروبي قد أدت إلى تدمير منتظم وحاسم للحياة الإفريقية. وبعد سنة ١٦٥٠م تقريبًا فإن الإنتاج الإفريقي من أجل التصدير صار إنتاجًا وحيد المحصول منحصراً في القوى البشرية وهذا يظهر ما يؤدي إلى اختناق المناطق الساحلية والقريبة من الساحل، وكلما اتسع الإنتاج الأوروبي من أجل التصدير وشمل الصنائع الاستهلاكية، أدى هذا بالدول البحرية في أوروبا إلى تطورها الاقتصادي.

إن أسباب هذا الاختناق كانت متنوعة، ومن الواضح أن الإفقار نتج عن تصدير الرجال والنساء أنفسهم الذين ينتجون الثروة في بلادهم. وبتصدير العبيد فإن الدول الإفريقية كانت تصدر رأسمالها الخاص بغير عائد محتمل يعود لصاحبها أو يزيد من طاقتها الاقتصادية. إن تصدير العبيد يختلف بشكل جذري في هذا الخصوص عن الهجرات الإجبارية للرجال والنساء الفقراء في القرن التاسع عشر؛ لأن الملايين الذين تركوا بريطانيا مثلاً في تلك السنين كانوا قادرين على أن يدخلوا في التيار العام للتوسع الرأسمالي، ومن ثم يفيدون بلدهم الأصلي بطرق مختلفة، ولكن العبيد الإفريقيين لم يكونوا يسهمون أية مساهمة إلا أن يزيدوا ثروات أسيادهم وهي ثروات لا يمكن أن تعود إلى إفريقيا. إن البائعين للعبيد في إفريقيا لا شك كانوا يتسلمون مقابلاً لما يبيعونه من العبيد ولكن طبيعة المقابل كانت غير منتجة. إن شروط التبادل نفسها منعت إيجاد تراكم رأسمالي يمكن أن يؤدي إلى التقدم في الاقتصاد. هذا رأس المال الذي كان يركمه الملوك والتجار الكبار كان مجرد أسلحة للحرب. ومن وجهة النظر الاقتصادية فإن تجارة الرقيق مع أوروبا لا ينظر إليها فقط باعتبارها مقدمة للاستعمار، ولكنها كانت شكلاً من أشكال الاستعمار المدمر والذاتي والتبادل بين السلع الاستهلاكية وبين المادة الخام لعمالة العبودية.

تدهور الصناعات المحلية

في مواجهة الطلب على العبيد تدهورت وانهارت الصناعات المحلية، وعندما تكون

المنتج الوحيد الممكن تسويقه هو المنتج نفسه فلا يمكن أن تنمو أو تنتعش الحرف أو الصناعات المنزلية، ناهيك عن توسعها ونموها. إن المنسوجات الأوروبية الرخيصة طردت من السوق الملابس الممتازة التي كانت تنتج في ساحل غينيا. وقد تحدث أحد المؤرخين عن ذلك سنة ١٥٠٦م ملاحظا أن البرتغاليين كانوا يشترون هذه الملابس ويحملونها معهم إلى أوروبا وكانت بنين مشهورة على وجه الخصوص بالمنسوجات. ثم ما أن حل عام ١٨٥٠م حتى كانت هذه المنسوجات قد سقطت وصارت ذات أهمية ثانوية، على الرغم من أن المنسوجات مثلاً في كانو في شمال نيجيريا ازدهرت ونمت في الوقت ذاته، ذلك لأن كانو كانت تنتج في نظام اقتصادي بعيد عن التأثر المباشر بتجارة العبيد عابرة البحار ولم تكن تجارة العبيد داخل القارة تجارة سائدة لديهم قط وقد لقيت منسوجات داهومي المصير ذاته الذي لاقته منسوجات بنين، رغم أن البعض كتب في سنة ١٧٨٩م أن داهومي تنتج ملابس قطنية طيبة وصناعتها جيدة وخاصة اللون الأزرق منها وكانوا يتحدثون عن جودة المصنوعات هذه التي تستطيع أن تنافس الواردات المتنامية لمنتجات القطن المصدرة من لانكشير في بريطانيا.

هذه الصناعات المحلية تدهورت في الوقت الذي اهتم فيه التجار والرؤساء بتجارة العبيد، وفي ذلك الوقت نفسه لم يحدث توسع حقيقي في الاقتصاد لأن التجارة الجديدة التي جلبت الثروات كانت شأنًا فرديًا يستمتع به الملوك والتجار.

وكان الملوك الذين يقومون بالتجارة لا يعنيهم كثيراً التراكم الرأسمالي وإنما يركزون همهم في جني الثروات وتمجيد أسمائهم وسمعتهم وتوسيع مناطق نفوذهم وكسب حلفاء، وكان النظام مستقراً في هذه الحدود ولكن حدودهم كانت تنحسر عن الرغبة في أية تنمية اقتصادية تؤدي إلى تغيرات تراكمية في النظام الاقتصادي

ومع نهاية تجارة العبيد تحول التجار الأقوياء في دلتا النيجر إلى إنتاج زيت النخيل يستخرجونه من مزارع واسعة، وكثير منهم كانوا يدينون بثرواتهم إلى عملية تصدير الزيوت أكثر من تجارة العبيد. والسؤال هو هل هذا الشكل الجديد للإنتاج تطور بسرعة إلى أن يصير نظامًا رأسماليًا في غرب إفريقيا؟ يحتمل أنه كان يمكنه ذلك ولكنه لم يعط الفرصة قط؛ لأنه سرعان ما أتى الغزو الاستعماري وأثبت أن أوضاع الغزو وظروفه تؤدي إلى عكس التطور الاقتصادي وإلى هدم التطور الاقتصادي أكثر مما كانت تفعل

تجارة العبيد لأنه مع الغزوات أتت السيطرة والإخضاع، وهذا الإخضاع شكل عنصراً من عناصر نهاية المساهمة الإفريقية في المشروعات التجارية الكبرى وإنهاء الإدارة الإفريقية للتجارة. وخطوة خطوة انهارت العائلات والهياكل التجارية القديمة أو حتى لصالح الاحتكارات الأوروبية الحديثة. وقد أحدثت هذه الاحتكارات العديد من المخترعات والابتكارات التي أدت إلى سحق التكنولوجيا القديمة المتخلفة، وأدخل الحكم الاستعماري نماذج جديدة للتبادل التجاري وصارت العملة النقدية تستخدم استخداماً واسعاً لأول مرة وأحدثت السوق وبدأ إنتاج الكاكاو والمحاصيل الخاصة بالفول السوداني مع استخراج المعادن من المناجم. وهذا التوسع في الإنتاج لم يكن يختلف في آثاره عن التوسع في تجارة الأطلنطي أيام تجارة العبيد؛ لأن ما كان يتطور بسبب هذه التجارة هو الاقتصاديات الأوروبية وليست الإفريقية. وإن فرص التطوير إلى نظام رأسمالي إفريقي كانت منعدمة أو أنها هبطت إلى درجة الانعدام.

هل كان ما سمي بالتنمية الأوروبية لإفريقيا قبل انتهاء المرحلة الكبرى لتجارة العبيد في غرب إفريقيا أي قبل سنة ١٨٣٠م هل كانت تنمية رأسمالية إفريقية كما أطلق الغربيون عليها، أي هل كانت للصالح الإفريقي أم لا؟

إن أية إجابة عن هذا السؤال ستكون غامضة بمراعاة التنوع الكبير جداً في الظروف المحلية على مدى فترة طويلة، ولا شك أن التجارة بأرباح كثيرة للملوك ومجموعات الحاكمة، ولكن كثيراً ما كان الملوك يوزعون هذه الثروات على الأتباع والاحتفالات وغيرها.

إن التقدم الاقتصادي الذي كان مطلوباً في تلك الأيام هو إنتاج نظام رأسمالي محلي قادر على التطور التكنولوجي السريع، وهذا يتطلب تطوير الخريطة الاقتصادية ولكن ما حدث هو العكس، وإن تجارة الأطلنطي كانت أبعد ما تكون عن أن تهيئ الظروف لقيام المشروعات في ذلك الوقت.

إن الدراسات العلمية للمؤسسات التي كانت موجودة قبل العصر الاستعماري في إفريقيا هذه الدراسات حتى الستينيات من القرن العشرين لا تزال في مراحلها الأولى.

الجانب الاجتماعي

ولكن في الجانب السياسي الاجتماعي نجد الدمار الأكبر أو يمكن أن يكون دماراً كاملاً. وهناك مراحل أربع كبرى يمكن أن نتتبعها في العلاقات السياسية كان لكل منها أثره العميق. المرحلة الأولى: في البداية كان الاتصال هو مجرد تراكم لنمط في تبادل بعضها جاء سلمياً وبعضها مما يشبه الحرب، والتجارة الأوائل لم يكونوا يصنعون أكثر من أنهم كانوا يقومون بعمليات كالسطو الليلي على إفريقيا الغربية، ولكن هذه نفسه أعطى نوعًا من الأهمية الجديدة لأراضي الساحل بالنسبة لشعوبها، وهذه الأهمية المتزايدة للساحل كان لها تأثيرها في القرن السادس عشر؛ لأن السكن في هذه الجبهة الجديدة كيفوا أنفسهم سريعاً مع الأعمال الخاصة بالدفاع عن مصالحهم الناجمة عن التجارة العابرة للبحار، وكانت هذه هي المرحلة الثانية وهي المرحلة التي توسعت فيها التجارة والتحالفات السياسية.

في القرن السابع عشر قويت علاقات المشاركة بين الأوروبيين وشعوب الساحل، لم يجر هذا سريعًا ولا هادئًا لقد تضمن صراعًا عنيفًا سعيًا لمزيد الاحتكار بين الأوروبيين لاحتكار البحر وبين الإفريقيين لاحتكار الأراضي، كما حدث أيضًا بين جماعات متحالفة بين الأوروبيين والإفريقيين. وفي هذه المرحلة الثالثة تشكل نوع من ميزان القوى حول تجارة الرقيق، قبل الأوروبيون القيود حول التجارة من السفن ومن حدود الشاطئ واستقر الإفريقيون على توزيع للقوى والحقوق حسب قوة الجماعة الساحلية الإفريقية في السيطرة على منطقتها.

كانت ثمة إمكانية واعدة لتطور هذه المناطق في هذه المرحلة. وعلى طول ساحل الذهب (ساحل غانا الحديثة) بدا لأول وهلة أن المؤسسات التقليدية التي كانت موجودة تطورت إلى نوع يشبه الأشكال الرأسمالية وظهر نوع من أصحاب المشروعات يجنون أرباحهم من وضع شبيه بالاحتكار ووجد أمراء من التجار يسعون لتشكيل نظم حديثة للإنتاج، وقد قال بعض المؤرخين إنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث للتجارة مما يشبه الثورة في المجتمعات التي يعيش فيها شعوب ساحل الذهب. ولكنها كانت ثورة فاشلة؛ لأن تجارة الصادر والوارد في هذه المنطقة كانت تشكل حجمًا أصغر مما تشكله في مناطق أخرى، لذلك كانت الشركة غير متساوية رغم أنها بقيت نوعًا من الشراكة.

كانت هناك معوقات وكانت موازين القوى تتغير فى الأرض بواسطة السحر، لقد قاتل البريطانيون الفرنسيين كما قاتل الأدراريون (Adrars) الداهوميين (Dahomeyans)، ومع ذلك لم تكن الحروب ظاهرة إلى حد يجعلها وضعاً عاماً وكثيراً ما كان يحدث السلام بين الشركاء، وقد حدث الكسر الأول الحاكم فى القرن الثامن عشر عندما فقدت شعوب الداخل صبرها بالنسبة لوسطاء الساحل فواجه الأوروبيون فى ساحل غانة قوى إفريقية بوصفه للمرة الأولى، وقامت الصراعات المهددة ونشبت الحروب وكان الإفريقيون أكثر قوة من أن يهزموا علما أعترف بحقهم فى الوجود كانوا مستعدين للدخول فى الشراكة

وفى القرن التاسع عشر مع المرحلة الرابعة تغير الميزان مرة أخرى، إن إلغاء بريطانيا وفرنسا تجارة الرقيق قد حدث جنباً إلى جنب مع صعود الاستعمار الجديد (الإمبريالية)، لم تكن أوروبا مهتمة بالمساواة فى الحقوق كانت فقط تريد السيطرة والسيادة والاستغلال الاقتصادى للقارة كلها، فلم تعد تكتفى بأسر الشعب الإفريقى وتهجيره واستعباده فقد صار طلبتها القارة الإفريقية كلها أرضاً وثروات وشعباً عاملاً فيها.

هذا هو السبب العميق لإلغاء تجارة الرقيق فى السياسة الأوروبية أنهم أى الأوروبيين قالوا إنه بدلاً من أن نستورد العبيد فلنحتل أرضهم ولنبقيهم فيها يعملون ويستخرجون ثرواتها لصالحنا. وفى الوقت نفسه كانت أمريكا قد استقلت عن أوروبا فلم يعد للأوروبيين مصلحة فى أن يصطادوا العبيد من إفريقيا ويصدروهم إلى أمريكا. ألغيت العبودية عن البشر لأنهم قرروا استعباد إفريقيا كلها كقارة وأرض

وما لبثوا أن اندمجوا فى السياسات الإفريقية والتدخل بالتحالفات وغيرها وصار من المحتم لأوروبا الصناعية أن تنتصر وتسود على إفريقيا غير الصناعية.

ويبدو من هذا العرض أن هذه العلاقات المتغيرة تظهر أن كلاً من المراحل الأربع السابق الإشارة إليها ترتبط عضوياً بالمرحلة التالية لتجارة العبيد وأزمة إلغائها والغزو الاستعمارى كل هذه كانت وجوهاً لعملية مستمرة، ومن ثم فإن الشراكة المستحبة القديمة المعتمدة على علاقات تجارة العبيد ارتبطت بموضوع الحريات وهو إلغاء الرق لأوروبا وإفريقيا وشقت الطريق للنظام الاستعمارى.

إن هذه النتيجة يسهل معرفتها من آليات تجارة العبيد فيما يتعلق بأشكال الحكم الإفريقية ومن الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية أيضًا فإن ارتباط العلاقات الأوروبية جعلت إلى أن تتقوى بالجوانب المحافظة للتنظيم السياسي الإفريقي: النظام القبلي ونظام العشائر والرؤساء فقوى الأوروبيون من سلطات الحكام التقليديين، وهذا أعطى لقادة التقليديين مصلحة إضافية في استبقاء الأوضاع على ما هي عليه وأصبحوا قوة محافظة، وأعطى هذا قوة للحكام في قمع المتمردين عليهم والثائرين ضدهم.

إن حكم الرئاسات الإفريقية كان ولا يزال حكمًا يمثل شكلاً من أشكال الحكومة النيابية وكان فعالاً، ولكنه عانى من نقص شديد فإن الحروب والإغارات المستمرة كانت لصالح أشخاص من الرؤساء القبليين ذوي النفوذ في كل من الجانبين المتحاربين.

***

إن أسباب التغيير في التطور الأوروبي ما بين القرون من الخامس عشر إلى الثامن عشر معروفة تمامًا، وهذه الأسباب ليست المقصودة هنا، إنما المقصود الآن هو إظهار كيف أن التقدم الأوروبي لم يكن له مثيل في تطور إفريقيا، ولكنه كان على حساب أية إمكانية تطور في إفريقيا؛ لأنه في هذه القصة يستطيع الإنسان أن يفهم لماذا كانت الهوة التكنولوجية بين شعوب أوروبا وإفريقية أو على الأقل بين الدول الكبرى والجماعات الأكثر تقدمًا، لماذا كانت هذه الهوة تتسع عبر هذه الحقبة الطويلة أي عبر سنوات تجارة الرقيق من الاختلاف الضيق إلى الاختلاف الواسع، ولماذا أتى بعد ذلك الغزو الاستعماري، ولماذا صار من الممكن للأوروبيين أن ينظروا إلى الإفريقيين باعتبارهم بدائيين وأنهم غير ذوي ثقافة وأنهم غير قادرين على أي إنجاز حضاري ينتمي إليهم؟ هذه المقولات العنصرية فقدت كثيرًا من آثارها السامة خلال السنوات الماضية من البحث الإفريقي، ولكنها تظل في الذاكرة في أنها كانت أداة ثقافة رئيسية لتسويغ الهيمنة الاستعمارية.

وعلى مدى القرون الأربعة فإن ميزان الكسب كان ذا طريق واحد وبمعنى آخر كان ذا كفة واحدة للأوروبيين ولم يكن هناك أي نوع من التزاوج الخلاق بين الثقافات أو الأفكار ولا أي نوع من المشاركة في الثروة والإنجاز.

وبالنسبة لأوروبا كانت التجارة مع إفريقيا دائمًا مربحة وهذا الربح ساعد أوروبا على تطوير أشكال منتجة للمجتمع وللحكم، ولكن بالنسبة للمجتمعات الإفريقية كان

غير قادر على أن يتحمل تغيرات اجتماعية واقتصادية مطلوبة على نحو كان يبقى بهذه المجتمعات في أوضاع سياسية واقتصادية من اليأس والإحباط. إن كل العلاقات يمكن النظر إليها باعتبارها مظهراً آخر من مظاهر التدفق غير العادي للتراكم الرأسمالي خلال الثورة الصناعية في أوروبا.

إن هذه العلاقة أنتجت شيئاً آخر سيئاً لقد أصبح لدى الأوروبيين شعوراً مغروراً بالسمو العرقي، مما ساعد على تسريع الغزو الاستعماري ولا يزال يحز كالسوس في أعصابنا. لقد ذهبوا إلى الاعتقاد بأن تجارة العبيد ليست من صنائعهم ولكنها نتاج طبيعي لعدم الاهتمام الإفريقي بالحياة الإنسانية. وفي سنة ١٨٣٢م وافقت الحكومة البريطانية على أن ترسل حملة للنيجر مصحوبة بوكلاء ليوقعوا معاهدات مع الرؤساء المحليين لإنهاء هذه التجارة البشعة وليفهموهم بمزايا هذا الأمر بدلاً من الحروب والاعتداءات المتجددة. ولم يهتم هؤلاء الوكلاء المنافقون بأن يعرفوا أن هذه التجارة كانت تستحثها أوروبا وتصر عليها قروناً عديدة. إن أوروبا وليست إفريقيا هي من زكت تجارة العبيد عبر البحار، ولكن أوروبا بمشاعرها الاستعمارية المتباهية لم تستطع أن تعترف بهذا التشوه وهو تجارة العبيد.

وبالنسبة للإفريقيين فإن المعنويات الخاصة بسنوات تجارة العبيد مالت إلى أن تنتج لديهم شعوراً نقيضاً، لقد حملت الإفريقيين شعوراً من النقص وحملتهم الإحساس بالذنب وبالخجل. لقد قال أحد الأوروبيين. نحن الأوروبيين أخطأنا بأن استعبدنا الإفريقيين ولكننا أوقفنا هذه التجارة بينما الإفريقيون لم يقصروا فقط عليهم بل استعبدوا بعضهم البعض فهل يستطيع الإفريقي فعلاً أن يدير نفسه بنفسه. ويقال هذا الكلام بصرف النظر عن حقيقة أن الأوروبيين هم أنفسهم وفي زمانهم ومكانهم كانوا يسترقون بعضهم بعضاً، والحقيقة أن الإفريقيين لم يسترقوا قبائلهم فقط بل إنهم كانوا يصطادون شعوباً أخرى كانت تعيش في إفريقيا وبهذا المعيار لم يكونوا أقل أخلاقية من الأوروبيين.

إن كلا الأمرين الفخر والخجل أو الشعور بالسمو أو بالنقص كلها بقايا ماض تحت دفنه ولكنه لم يدفن إلا بعد أن نفهم جيداً المشروع العبودي.

بالإضافة إلى هذا التحليل الرائع لبازيل ديفدسون لأربعة قرون من السلب والنهب للبشر الإفريقي، يمكن بإيجاز شديد تلخيص الخسائر الإفريقية فيما يلي:

* أجبرت إفريقيا على تصدير أغلى ثرواتها وهى الأيدى العاملة البشرية حيث نقلت الملايين منها للعمل فى المزارع والمناجم الأمريكية، وحققوا أرباح طائلة وثروات ضخمة ليس لأوطانهم أو لأنفسهم بل لدول أوروبا وأمريكا.

* نجم عن تجار الرقيق استيراد البنادق والبارود وأدى إدخال الأسلحة النارية أى ثورة فى مجال القنص والقبض على الرقيق، وإلى انتشار الحروب والصراعات بين القبائل الإفريقية فأحدث ذلك دمارا فى الإنتاج وفتكًا بالقوى البشرية وتشتيتًا للسكان. وعندما بدأ التكالب الاستعمارى كان الانقسام والتشتت هو طابع الجماعات البشرية فى إفريقيا مما سهل على الغزاة الأوروبيين مهمتهم فى السيطرة على أرض القارة وتحقق الاستعمار الكامل.

* أدت الإغارات على الرقيق إلى تدمير وهجرة وحرق القرى، وأثر ذلك على الصناعات المحلية كالنسيج والأقمشة وحرف التعدين البرونزية والنحاسية والفخار التى ازدهرت فى الحضارات القديمة، وأدت إلى استغلال ونهب الثروات الإفريقية لصالح القوى الأوروبية وكان لهذا الاستغلال أثره الواضح بعد استقلال دول إفريقيا[1].

* دمرت ممالك إفريقية بكاملها مثل مملكة «المانيكونغو» فى حوض نهر زائير، ومملكة لواندا فى أنجولا، ومملكة الموموموتابا فى موزمبيق فى الشرق.

* أصبحت المجتمعات الإفريقية تعانى من حالة من الفوضى نتيجة الصراعات بين القبائل التى تبغى أسر أعدائها لبيعهم رقيقًا فساءت حالة الأمن. غياب الشباب أدى إلى شيخوخة المجتمعات وأصابتها بحالة من الاكتئاب نتيجة الحزن على فراق الابن أو الزوج أو الأب، فصارت تحيا دون أمل فى المستقبل.

* أدت تجارة الرقيق إلى الخلخلة السكانية الموجودة فى ساحل غرب إفريقيا، وهو ما أدى إلى فراغ سكانى حتى اليوم لا سيما فى أنجولا وموزمبيق وحوض نهر زائير[2]

---

(١) المرجع السابق - مؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» الكتاب الرابع ص ١٤٦ - ١٥٠.
(٢) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق ص ٣٨٦.

الفصل السادس «الأخير»

على من تقع مسئولية بيع الرقيق؟

- هل باع الإفريقيون ذويهم؟
- المشاركة التجارية ومقاومة الإفريقيين
- مقارنة بين الرق الأوروبي والرق العربي
- التعويضات عن العبودية

أولاً: هل باع الإفريقيون ذويهم؟

هل باع الإفريقيون ذويهم، وهل باع حكام الممالك الإفريقية شعوبهم وانغمسوا فى تجارة الرق؟ الإجابة بنعم هذا ما ترده أصوات كثيرة بالغرب ليبرروا به جريمة تجارتهم للرق الإفريقى عبر أربعة قرون، وهم يقولون لولا مساعدة الإفريقيين شعوبًا وحكامًا ما استطعنا أن نأسر كل هذا العدد من أبناء إفريقيا ولولا أننا وجدنا البائع لما كنا أصبحنا مشترين.

لا شك أن عددًا من الإفريقيين تعاونوا بفعالية مع تجار الرقيق، ولكن يتعين اليوم أن نتفهم ظروفهم ودورهم وإلا سيخضعون لظلم شديد، وقد حدث ذلك فى داهومى وبنين، ولكن بشكل عام فإن الرؤساء فى معظم المجتمعات الإفريقية التقليدية لم يكونوا هم ممن باعوا رعاياهم ولم يمارسوا هذه التجارة، وكان الفرد فى مجتمعه له حقوقه المعترف بها والمقدسة لدى القبيلة، وعلى سبيل المثال مجتمعات الأكان فى غينيا نجد أن قانونها يؤكد قداسة الجنس البشرى وقداسة الفرد وأن كل إنسان هو وريث مفترض للآخر، وهذا يعنى أن كل إنسان ينظر إليه باعتباره سيدًا فى عائلته أو فى عشيرته، ومن ثم فإن المجتمع يتبادل الاعتراف بكل من أعضائه فى هذا المجتمع واعتباره متساو مع غيره فى الحقوق كلها. إن الرئيس الأعلى له عائلته وعشيرته وورثته يردون منها، وبالمساواة فإن كل العشائر أو القبائل الأخرى يتكون منها مجلس الكبار الذى يلتزم بحكمهم الرئيس وترد سلطة الرئيس من هؤلاء من خلال نظام الأسرة، وهذ يعنى أن الأكبر لا يخلفه إلا ابن أمه أو ابن أخته من أمه، ومن ثم فإن الفرد كان له نظامان للعائلة، عائلة أبيه التى ينتمى إليها ويشد منها الحماية وعائلة أمه التى تمنح له أبواب التوارث، ومثل هذا الفرد لا يكون قنا ولا تستطيع أن تبيعه؛ لأن عائلته سطلقون على رقبة البائع إذا فعل ذلك، وأيضًا فإن هذا الشخص إن كانت لديه شكوى لدى مجلس الكبار بسبب سوء معاملة واجهته أو محاولة أحد كبار العائلة أن يحوله إلى خادم فإن شكواه هذه تكون أساسًا لدعوى لخلع الرئيس نفسه.

والآن هل يمكن للورد أوروبي أو دوق أو بارون أو ملك أن يخلع شرعًا بغير حرب أو بسبب سوء معاملته لرعاياه؟ في مجتمع الآكان كان يمكن أن يحدث ذلك، وهذا هو السبب الذي يرجع إليه عدم وجود عبيد في مجتمع الآكان. وفي الحقيقة فإن العبيد لا يأتون هناك إلا من طريق واحد وهو الحروب. إن أسرى الحروب هم الذين كانوا يعتبرون أجانب عن المجتمع، ومن ثم لا يحوزون الحقوق التي يتمتع بها أعضاء المجتمع، وهؤلاء كانوا يقسمون بين ضباط الجيش المنتصر باعتبارهم من غنائم الحرب، ولكن حتى هذا الوضع فإنهم يعاملون بقواعد منضبطة، وفي أغلب الأوقات فإن قواد الحرب يعملون نوعًا على دمج الأسرى كل في أسرته الخاصة. وبهذه الطريقة تكون حماية القواد تلقائيًا على أسراهم وهذا ما يحمي هؤلاء الأسرى من سوء المعاملة[1]. وفي الحقيقة فإنه من الممنوع تمامًا على أي شخص أنه يحاول تتبع أصول أي شخص آخر أو أسلافه أو أن يحاول أن يكشف عن شجرة عائلة شخص آخر بدون إجازة من سلطة الرئيس نفسه.

مثلاً إذا تنازع رجلان على استحقاق شيء ما فإن كلاً من هذين الطرفين المتنازعين يتخذ موقفًا من الآخر إما بإنكار نسب الآخر أو بإثبات نسبه لنفسه وهنا فقط يتاح للرؤساء أن يتابعوا ويتعقبوا نسب كل من الطرفين بالتفصيل لإثبات دعوى أيهما، ولكن في غير هذه الحالة فإن تتبع أنساب الناس والكشف عن ذلك يعتبر من الأسرار التي لا تجوز بغير ترخيص وإلا تعرض المخالف لعقوبة قاسية. والسبب في ذلك أن التحليل أو العبث بتاريخ الأسر أو العشائر يمكن أن يهدد نسيج الأمة كلها، ولنفترض مثلاً أن أحسن قائد جيش معاصر كان من سلالة أسير حرب وكان قتل عددًا من القادة قبل أن يؤسر ولكنه بعد ذلك اندمج في المجتمع الذي أسره وصار من أبطاله، فإن كشف الماضي يؤدي إلى نزاعات في هذا الشأن.

---

(١) وفي غير مجتمع الآكان، كان هناك نوع من الرقيق لا يكونون عادة ملكية فردية خاصة لسيد معين، بل يستخدمون في القوة العسكرية، باعتبارهم جنودًا في المؤسسة العسكرية ويكون شأنهم شأن ممتلكات المؤسسة، ومن هؤلاء مثلاً كافور الأخشيدي الذي كان في الحرس الخاص لأحد الأمراء في مصر، وكان كافور عبدًا نوبيًا، وبعد وفاة سيده نجح في أن يصبح حاكمًا فعليًا لمصر واعتمد في حكمه على عدد كبير من أبناء جلدته بالجيش (المؤتمر الدولي، «الإسلام في إفريقيا» المرجع السابق الكتاب الحادي عشر بحث د. ميمونة ميرغني حمزة ص ١٦٣).

إن ما أحاول أن أقوله هو أنه في مجتمع الآكان كان ما يستحقه الفرد يتساوى مع ما يستحقه الآخرون وليس أقل، وكل فرد له الحقوق ذاتها، ومن ثم فلا يباع ولا يعامل مثل القن كما حدث في النظام الإقطاعي في أوروبا.

وكان بعض الأثرياء الإفريقيين في المناطق المنتجة للذهب في أرض الآكان كانوا من الثراء، بحيث إنهم اشتروا عبيداً من البرتغاليين وأبحروا بهم من قلعة الميناء من بين بنين وجزيرة ساوكومي وبرنسيب إلى غانا.

إن الآكان باعوا بعضاً من أسرى الحرب فعلاً، ولكن هذا الذي حدث كان لإنقاذهم من الموت، إذ كان الآكان يعتقدون أنه عندما يموت رئيس أو سيد آخر فإنه يذهب ليحيا في عالم روحاني يسمى أوسامندو فكان يقتل خدمه ليكونوا في خدمته في الحياة الآخرة، ومن ثم فعندما تموت شخصية كبيرة في مجتمع الآكان فإن عدداً كبيراً من الأفراد يقتلون سراً ويدفنون مع الشخصية الكبيرة، وأحياناً ما يحتفظ بعدد من أسرى الحرب لهذا الغرض.

ولكن إذا أتى تاجر رقيق أوروبي وأذاع أنه يريد أن يشتري عبيداً وكان هناك عدد من أسرى الحرب احتفظ بهم من أجل الحياة الأخرى للمالك عندما يموت، فإن المالك يقرر ساعتها ما إذا كان يبيع فرداً أو اثنين منهم ليستبدل بهم متاعاً آخر. وبالتدريج صارت النقود نافعة بدلاً من مراعاة العادات القديمة الخاصة بالخدم الذين يذهبون مع السادة في الحياة الآخرة. وفي الحقيقة فإن بيعهم يعني بالنسبة لمالك العبيد المحافظة عليهم من الموت، وعلينا أن نعترف بأن بيع الإنسان قد يكون أحسن من قتله.

إن بيع الرقيق لذويهم يقع أكثر على عاتق الأوروبيين الذين أسهموا إسهامات فعالة وحشية في إذكاء هذه التجارة بإثارة القبائل ضد بعضهم البعض وخديعتهم. إن تاريخ الرق الإفريقي كتب بأقلام أوروبية وكان عليهم ليبرروا هذه الجريمة تصدير حماقة الرؤساء الإفريقيين وإنهم كانوا يبيعون ذويهم مقابل الخرز والمصنوعات الزجاجية والملابس والخمور وغير ذلك. وهذا كلام من قصص الفولكلور قصدوا منه أن يثبتوا لمواطنيهم الأوروبيين كيف كانوا مهرة في خديعة الأهالي الإفريقيين وكيف كانوا يزدرونهم.

إن تاجر العبيد الأوروبي كان يطلب مثلاً ٢٠٠ فرد فيقول له العميل الإفريقي إنه محتاج إلى تجنيد ٥٠ من المرتزقة المدربين ولكل منهم بندقية وذخيرة وأطواق للرقاب والأرجل وسلاسل للأيدي والأذرع، وكان تاجر العبيد يقدم له كل شيء من أطواق وأفران الحديد التي تصنع خصيصاً في أوروبا وترسل إلى إفريقيا، ويذهب هو ويجلس في سفينته يستقبل العبيد المأسورين ويضعهم في ظروف قاسية جداً وبعد أيام يأتي له العميل الإفريقي بمائتي عبد ويدفع له التاجر الأوروبي العمولة المتفق عليها. ويضع العبيد في سفن أعدت خصيصاً للرقيق وتبحر السفينة إلى الكاريبي أو إلى أي من الأمريكات، حيث يبيع كل عبد بما يوازي ٣٠ ضعفاً من المبلغ الذي اشتراه به من إفريقيا ويكون سعيداً.

وهؤلاء الذين اشتروا العبيد منه كانوا يستخدمونهم بأقصى ما يمكن من معاملة لينتجوا لهم السكر والقطن والدخان والشاي ويستخرجوا الفضة والنحاس والذهب والقصدير وهم أيضاً سعداء. إنهم يبيعون هذه المنتجات في أوروبا ويحصلون على أرباح ضخمة، وبهذه الأرباح ينشئون المصانع والورش التي تنتج المنسوجات والكحول والمصنوعات الزجاجية وغير ذلك مما يباع بأسعار غالية في إفريقيا، ومن أرباحهم في إفريقيا يشترون مزيداً من العبيد وهكذا.

* * *

في هذه الفترة كانت إفريقيا مقسمة، وكان على كل قبيلة أن تحمي نفسها من إغارات جيرانها؛ فإن أهم شيء هو استيراد البنادق من أوروبا، وكان الخوف دائماً وقائماً من أن يحصل الجار على البنادق ويعتدي على جاره واقترب تجار العبيد الأوروبيون من الأفارقة وعلموهم الاحتياج إلى البنادق بإلحاح؛ لأن من يملكها يدافع عن نفسه ضد القبيلة (العدو) أو يسيطر بها عليها. كان التاجر من هؤلاء يذهب إلى العشيرة أو القبيلة (أ) فيقول لهم إن العشيرة (ب) تطلب بنادق وأسلحة لخمسة آلاف رجل ولكنه يفضل أن يبيع هذا السلاح للعشيرة (أ)، فما الذي تتصور أن تفعله العشيرة (أ) طبعاً ستقول له أعطنا البنادق لندافع عن أنفسنا من العشيرة (ب)، فيقول لهم التاجر الأوروبي إنها تتكلف كثيراً من النقود فيقول له رئيس العشيرة (أ) ليس لدينا ذهب كثير الآن فيقول له التاجر الأوروبي لا تقلق فقط أعطني أسرى الحروب الذين

لديك. وفي أحيان كثيرة كان يذهب التاجر الأوروبي نفسه إلى القبيلة (ب) لتشترى منه السلاح بالطريقة نفسها وتتقاتل القبيلتان والتاجر نفسه يمد كلاً منهما بالسلاح. وجرى ذلك القتل والعدوان والهجوم والخطف في إفريقيا كل يوم وكل أسبوع وكل شهر وكل سنة لأكثر من ٤٠٠ عام[1].

وفي الوقت ذاته كانت لإفريقيا تجارة محترمة مع العرب وآسيا عبر البحر الأبيض والساحل الشرقي الإفريقي، ولو كانت إفريقيا تركت وحدها لصارت قوية اقتصادياً مثل باقي العالم، ولكن تجارة الرقيق دمرت نظماً اجتماعية وممالك مشيدة. وإن قصصاً مثل شراء المرايا الزجاجية هي قصص للفولكلور فقط؛ فالحقائق المخيفة في كتب التاريخ أن الغرب أمد الشعوب الإفريقية بالبنادق ليتقاتلوا ويأخذوا هم العبيد، ولا يزال يمدهم بالسلاح ليتقاتلوا ليأخذ منهم ما تبقى من ثروات القارة.

لا بد أن يعترف الغرب بدوره الكبير في تجارة الرقيق ويعوض الأفارقة عن هذه الجريمة البشعة التي لا مثيل لها في التاريخ البشري تعويضاً عن النفس التي أزهقت أو دمرت وعن الأضرار المعنوية التي لم تصب العبيد وحدهم، وإنما أصابت أبناءهم وذريتهم من بعدهم.

---

(١) مجلة نيو أفريكان New African عدد مارس ٢٠٠٥م ـ ص ٥٠

ثانيا: المشاركة التجارية ومقاومة الإفريقيين

حقيقة أن الملوك والمؤسسات الحاكمة فى إفريقيا فشلت فى حماية رعاياهم من الأسر، ولم يستطيعوا تفادى التفكك والدمار الاجتماعى الذى أحدثته تجارة العبيد عبر البحار. ويبدو أنه لم تكن فرص النجاح مطروحة أمامهم قط كما لم يكن أمامهم حتى فى أن يستطيعوا الاستغناء عن التجارة الأوروبية بجملتها ولا أن يقاوموا المطالب الأوروبية. وقد حاول وكافح بعض الحكام الإفريقيين إلغاء تصدير العبيد ولكن هذه المحاولات كانت دائماً غير مجدية.

لم يكن أفونسو الأول ملك الكونغو هو الحاكم الوحيد الذى حاول أن يريح نير العبودية، يذكر تقرير سويدى أن ملكاً إفريقياً فى السنغال أصدر قانوناً يمنع فيه مرور العبيد عبر أراضيه، ولكن هذا الإجراء لم يأت بنتيجة لأن الزوارق الفرنسية كانت تذهب إلى ساحل آخر عند نهر السنغال، وقد طلب الفرنسيون من الملك العدول عن هذا القرار لتسهيل مهامهم فى نقل العبيد وقدموا إليه الهدايا ولكن الملك رفض هداياهم وقال إن أموال الشركة كلها (شركة السنغال الفرنسية) لن تحيده عن قراره، ولم يجد الفرنسيون أمامهم إلا الالتفاف بعيداً عن أرض السنغال.

ولنأخذ داهومى مثلاً هذه الدولة الدموية التى كانت نتاج العلاقات الإفريقية الأوروبية التى قامت على أساس علاقات التبادل للعبيد بالبنادق واشتركت مشاركة فعالة فى اصطياد العبيد والاتجار بهم، حاولت فى بداياتها أن تحمى رعاياها وتدرأ عنهم قناصهم بغزو جيرانها وأسر أهليهم ومبادلتهم بالبنادق ووجدت فى ذلك الحل لإخضاع جيرانها الأعداء وحماية شعبها. وهى وإن أنقذت رعاياها فقد كان ذلك على حساب الإفريقيين الآخرين وأسهمت بذلك فى نمو التجارة الإجمالية للعبيد.

وفى عام ١٧٢٧م عند غزو الأوروبيين لساحل العبيد (ساحل غينيا) أسر ملك داهومى ضابطاً إنجليزياً وحاول عن طريقه أن يقلل من أثر تجارة العبيد التى كان يعانى شعبه منها معاناة مجحفة، فعامله بكرمه وسمح له بأن يعود إلى إنجلترا وأعطاه ٣٢٠ قطعة من الذهب و٨٠ عبداً، وطلب منه أن ينقل إلى سادته أن الأهالى مستعدون أن يبيعوا أنفسهم له بشرط ألا يحملهم بعيداً عن بلادهم. ولكن هذا الاقتراح لم يجد

استجابة في لندن لأن المستثمرين هناك لم يكن لهم مصلحة في أن يشتروا العبيد ليستخدموهم في غرب إفريقيا

ولكن أرقام التجارة في ذلك الوقت شاهدت انحساصًا عندما استطاعت مملكة داهومي أن تسيطر على مراكز التصدير الفعلية في ساحل العبيد. وعندما امتدت داهومي إلى الساحل وصارت على اتصال بالتجار الأوروبيين كان التصدير السنوي منها يبلغ نحو عشرين ألف مقتنص في السنة، فانخفض بعد ذلك بشكل حاد ولم يعد كما كان عليه من قبل حتى أن الحاكم البريطاني كتب يقول إن أكبر عدد صار يرسل من داهومي مع ممالك صغيرة أخرى لا يتجاوز ٥٥٠٠ عبد، في هذا الوقت كان تسليم العبيد الإجمالي من إفريقيا بدأ في التناقص لذلك لم يعد ساحل العبيد يستحق اسمه هذا[١].

ظهرت دولة الفون مثل جارتها العدو اللدود داهومي في القرن السابع عشر، وحرص شعبها على إقامة دفاع ذاتي لنفسه ضد هجمات تجار العبيد وضد جيرانه الشرقيين، ولا شك أنهم كانوا مهتمين أكثر بالدفاع عن أنفسهم في مواجهة الهجمات التي تأتي من الشاطئ، وكلما كان ملكها يجد عجزاً في تقديم العبيد لتجار الساحل المستبدين كان يسير جيشاً للحصول عليهم من جيرانه في داهومي بالذات التي كانت تدافع عن نفسها بكفاءة بقدر ما كانت تستطيع أن تحصل على الأسلحة النارية والذخائر، ولم يكن ذلك إلا بتبادل السلاح بالعبيد، ومن ثم فإن قوة داهومي لمقاومة الفون ـ التي كانت نفسها خاضعة لذات الضغوط ـ كانت تعتمد على تسليم العبيد للساحل، ولم يكن ثمة بديل لذلك إلا باسترقاق الآخرين لشراء الأسلحة النارية أو أن يحاصروا هم أنفسهم بأن يسترقوا، هذه في الحقيقة كانت الآلية الداخلية للعلاقة الإفريقية الأوروبية بالنسبة للعبيد. وقد دُفعت داهومي كما دفعت غيرها من الدول إلى الانغماس بشكل كامل في موضوع العبودية. لم تكن ثمة دولة بمفردها تستطيع أن تعيش بأمان أو حتى تتمكن من أن تقف بعيداً عن هذا الاتصال وهذه العلاقة التجارية بين العبيد والبنادق، وأن داهومي رغم اعتراضها المبدئي في البداية انجذبت إلى هذه السلسلة المدمرة لتجارة العبيد والتي ترتبط في حلقة مفرغة بين السبب والنتيجة.

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade, P. 241

كن أمر الفون بتوقف على رغبات ومتطلبات مدن الساحل، وأصبحت الفون هي خصم يقوى لشطاء الساحل الذين كانوا يدركون قوتها فكانوا يشجعونها ويدافعون عنها ويعرفونها بالسلاح. وو جدت داهومي أن اغتصاب الفون لها والعدوان عليها أصبح لا يحتمل خاصة وقد رفض الفون أن يسمحوا للداهومي أن تبيع من تقنيصها للأوروبيين مباشرة وأصروا أن يكون البيع من خلالهم وهذا هو السبب المباشر لدى جعل الملك الرابع لداهومي «أجاجا Agaga» أن يخوض حربًا ناجحة ضدهم سنة ١٧٢٧م وسيطر على مدنهم. وهناك على الشاطئ أقامت داهومي صلات مع تجار العبيد من الدول الأوروبية المختلفة ومع البرازيل وبادلت بالعبيد البنادق والمدافع التي صارت بها داهومي قوة لا تقاوم بالنسبة لجيرانها من الدول الإفريقية.

صارت داهومي مع الوقت أوتوقراطية عسكرية واستفادت من هذا الوضع في ذروة تجارة القرن الثامن عشر، وصدرت مصانع برمنجهام (بإنجلترا) إلى إفريقيا ما يتراوح بين مائة ألف ومائة وخمسين ألف بندقية في السنة، وكانت المأثورات التي تتردد على الأقل على الألسنة تؤكد أن بندقية من برمنجهام تساوي عبدًا من الزنوج. ولكن هذا القول يمثل مأثورات أكثر منه مقولة حقيقية لأن التجار الأفارقة نادرًا ما كانوا يبادلون زنجيًا ببندقية فقط كانوا يطلبون بضائع أكثر، ولكن هذه العبارة تبقى صحيحة بشكل ما لأن السلاح الناري صار غير ممكن أن يستغني حكام إفريقيا عنه في تجارة ساحل غينيا.

إن كميات ضخمة من الأسلحة النارية تدفقت على إفريقيا الغربية خلال فترة تجارة العبيد، وقد أسف التجار الأوروبيون في الساحل من هذا الفيض من الأسلحة؛ لأن شركاءهم الأفارقة استقووا بها في عمليات المساومة مع هؤلاء التجار ولم يكن لدى التجار ما يصنعونه. وبالنسبة للإفريقيين فقد انجذبوا إلى هذه السلسلة من الأفعال والنتائج. فقد كان يجب أن يكون لديهم عبيد ليشتروا بهم السلاح ولكي يكون لديهم عبيد كان عليهم أن يمسكوا بالسلاح ويتبادلوا بالعبيد البنادق.

كذلك لم يكن التجار الأوروبيون على ثقة ببعضهم لكي يتعاملوا وفق سياسة عامة مشتركة، وكما لوحظ في حصون المنا في ساحل الذهب أن الأوروبيين لا يمكن أن يتحدوا وأن كل أوروبي كان يشعر بالالتزام بأن يبيع الإفريقي ما يريد حتى لا يخطفه غيره من منافسيه إذا رفض هو. وكان الإفريقيون على الحالة نفسها وخاصة في ذلك

ولكن معظمهم كانوا يجدون القدرة على أن يتوحدوا لتطبيق المقاطعة بالنسبة لشركائهم الأوروبيين. وقد صارت داهومي مشهورة في أعين الأوروبيين بالسلطة الأوتوقراطية التي كانت لحكامها وقد جاوزت الطابع العام لتنظيم الدولة الإفريقية فصارت أكثر قدرة على الحرب وصارت قوة مسلحة، وكان من النادر أن تكون في سلام مع جيرانها الذين كانوا يغزون داهومي بشكل منتظم وتغزوهم داهومي بشكل منتظم أيضاً، وقد حاربت معركة طويلة لاستعادة قاعدتها الساحلية؛ حيث كانت المدن البحرية تؤمن نفسها بمساعدة الأوروبيين.

إن التجار الأوروبيين كانوا يحترمون قوة داهومي، وكانوا يأسفون على أن المدن الساحلية فقدت استقلالها ولكنهم كان لديهم احترام لمنجزات داهومي. وبصرف النظر عن موقفهم القاسي من الحياة الإنسانية الذي لم يكن نادراً في القرن الثامن عشر فإن ملوك داهومي قد فعلوا أحسن ما عندهم في إطار خيارات أكثر قسوة. إن الأوروبيين كانوا يقذفون بالعبيد أحياء في الأطلنطي بواسطة قباطنة سفن العبيد للتضحية بهم قرباناً لإله الربح، وكان تعداد هؤلاء أكثر من كل ما قطع ملوك داهومي رءوسهم. إن أحد تجار العبيد من ليفربول في سنة ١٧٨٣م ألقى بـ ١٣٣ من على ظهر السفينة وهم أحياء لأنهم كانوا ضعافاً أو غير قادرين على البقاء والعمل، وقال إن هؤلاء العبيد يجب أن يموتوا مبرراً ذلك بأنه إذا مات العبيد موتاً طبيعياً على ظهر السفينة سيكون فقدهم على حساب الطرف الآخر شركات التأمين لذلك فقد قذف بهم قبل أن يموتوا لديه، وأنه في حالة ما إذا طلب الملاك ما يقابل هؤلاء العبيد ورفض المؤمن فعلى الملاك الذهاب إلى المحكمة للحصول على التعويض. إن حكام داهومي إذا كانوا يدانون في الإسراف في قتل الناس إلا أنهم كانوا يواجهون بشجاعة كل ما يترتب على حروب البنادق مع العون جيرانهم الأعداء وحماية أهاليهم من الاسترقاق، كانت دولة لها قانون ونظام لم يكن عظيمه ولكن كل العالم وقتها لم يكن كذلك. وإذا كانت مملكة داهومي العسكرية كانت نتاج العلاقات الإفريقية الأوروبية التي كانت تقوم على أساس علاقة التبادل بين العبيد والبنادق فإن مصيرها النهائي كان متوقفاً على تطور الضغوط الأوروبية وما حتمتها السياسة الأوروبية في القرن التاسع عشر وتحولت من التجارة في العبيد

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade,

وتصدرهم إلى الرغبة في فتح القارة الإفريقية وحكمها واستثمارها، وجدت داهومي نفسها تواجه معركة جديدة للسيطرة الاحتكارية لم تحدث مع الأفارقة ولا مع مراكز التجارة ولكنها صارت تواجه القوة القاهرة لأوروبا، وشيئاً فشيئاً وجدت الدول الأوروبية نفسها في دولة داهومي شريكاً تجارياً أقل فائدة كما وجدتها عقبة في عرقلة الطموحات الأوروبية للاستيلاء على الأراضي. وبالنظر إلى تطور الإمبريالية الأوروبية والفرنسية خاصة في هذه الحالة فإن المواجهة صارت لا يمكن تفاديها خاصة بعد أن كان ملك داهومي الرابع قد سيطر على مدن الساحل منذ سنة ١٧٢٧م وبدا أنه قادر على السيطرة عليهم.

إن التهديد الجديد لاستعمار الأرض كان بطيئاً في بداية تصاعده، ولم تستطع فرنسا أن تحصل على موطئ قدم على الساحل قبل سنة ١٨٥١م عندما أقامت محمية لها في مدينة تجارية في «بورت نوفو ـ Borto Novo» ولم يحدث قبل عام ١٨٨٨م أن تبادلت داهومي وفرنسا الكلمات ولكن بعد هذا التاريخ قامت المواجهة بينهما وجلب ملك داهومي الأسلحة من ألمانيا في حين أنزلت فرنسا ألفين من الرجال في بورت نوفو لغزو البلاد وهزمت جيش داهومي في سنة ١٨٩٢م. وأعلنت داهومي مستعمرة فرنسية بعد سنتين فقط.

إن هذا الانتقال من المشاركة التجارية إلى الغزو الأوروبي حدث في مناطق أخرى، وهو مرحلة جديدة في العلاقات الإفريقية الأوروبية، ويمكن متابعتها مع البريطانيين في شاطئ ساحل الذهب وفي غابات الأشانتي، وهناك أيضاً دول إفريقية حاولت أن تستمر علاقات العبيد بالبندقية لبناء مناطق آمنة حولها، ولكنها وجدت نفسها مواجهة بالسياسة الأوروبية الجديدة لاحتواء الأرض فلم تستطع أن تقاوم هذا الأمر.

* * *

ثالثاً: مقارنة بين الرق الأوروبى والرق العربى

فى فبراير ٢٠٠٣م عقد فى جوهانزبرج بجنوب إفريقيا مؤتمر بعنوان «مباشرة العرب لتجارة العبيد فى إفريقيا» نظمه مركز الدراسات المتقدمة للمجتمع الإفريقى «كاساس Casac» بالتعاون مع موسسة «دراما ـ Drammeh» كان الباعث لعقد المؤتمر كما جاء فى ديباجة برنامجه أن الدور الأوروبى لمباشرة الرقيق عبر الأطلنطى معروف أما الحقيقة الخاصة بمباشرة العرب لعبودية الإفريقيين بقيت منطقة مشمولة بالصمت والظلام فى الوعى الإفريقى وغير الإفريقى المتعلق بالمجتمع الإفريقى والتاريخ الإفريقى. وقد زاد من الحقيقة المؤلمة لهذا التاريخ أن العبودية بقيت للوقت الحاضر فى مناطق الحدود العربية الإفريقية وهذه المناطق تشمل الطريق الطويل فى إفريقيا الممتد تقريباً من خط عرض ٣٠ شمالاً إلى خط عرض ١٠ شمالاً عبر القارة الإفريقية وخاصة موريتانيا والسودان.

واستهدف المؤتمر التركيز على أن تجارة الرقيق والاسترقاق كانت جريمة العرب دون سواهم متغاضين عن حقيقة أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق أكثر من أربعة قرون تعرضت القارة خلالها لعملية استنزاف بشرى أدى إلى إضعاف تماسكها مما سهل مهمة الحركة الاستعمارية فى السيطرة عليها. وإذا كان كل من العرب والأوروبيين عملوا فى تجارة الرقيق فإن التساؤل هنا يكون فى كيفية معاملة واستغلال الرقيق وفى مسئولية نزوح تلك الأعداد الضخمة من مواطنها الأصلية.

إن الفرق بين الرق فى العالم العربى والرق فى العالم الغربى أن العرب لم يمارسوا تجارة الرقيق بشكل جماعى ومنظم ومؤسس كما مارسه الأوروبيون، وأن الرقيق الذى جىء به إلى المنطقة العربية عاش فى الأسر العربية وعومل حسب تعاليم الشريعة الإسلامية ولم يستغل فى عمل شاق أو مشروع اقتصادى لا يقوم به سيده؛ فالعبيد وأسيادهم يشتركون فى الأعمال، ولم يسجل التاريخ أى عملية إبادة جماعية للرقيق أو تعذيبهم أو إذلالهم بطريقة بشعة أو نقلهم بصورة جماعية فى ظروف قاسية، وكان فى الغالب يتم استخدامهم بشكل فردى كخدم فى المنازل أو مساعدين لأسيادهم فى مزارعهم أو فى غير ذلك من الأعمال التى يقومون بها.

وإن حسن المعاملة للعبيد في المنطقة العربية جعل عدداً كبيراً من العبيد يتميزون بالنبوغ في العلوم والفنون، ووجد بعضهم طريقاً إلى القيادة والنفوذ والسلطان والتاريخ الإسلامي يسطر لنا أخبار كثير منهم، وعلى سبيل المثال.

- أسامة بن زيد الذي قاد جيوش المسلمين بجدارة، وكان من عينه هو الرسول ﷺ قبل وفاته.
- الإمام نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان من الثقات في رواية الحديث الشريف وأهم مرجع في قراءات القرآن.
- رابعة العدوية التي كانت آية في النسك والزهد[1]
- قطب الدين أيبك مؤسس سلالة المماليك أولى سلالات سلطنة دلهي
- الأديب المشهور «الجاحظ» عالم الأدب والبيان.

ذلك فضلاً عن المماليك البحرية الذين صدوا المغول في عين جالوت

كان الرق يشكل عند العرب نظامًا اجتماعيًا في الأساس، وكان سوق الرقيق في العالم العربي محدوداً وسهل التشبع إذا ما قورن بسوق الرقيق الغربي، كما أن التبادل التجاري بين العرب والإفريقيين في سواحل شرق إفريقيا، لم يكن يجلب العبيد والمحسنين وإنما كان يجلب أيضًا الرخاء الاقتصادي والازدهار الحضاري الذي ظهر في العديد من المدن والممالك والسلطنات العربية والإفريقية على طول سواحل شرق إفريقيا، كذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء نشوء العديد من الممالك والحواضر الإسلامية مثل تمبكتو ومالي وصنغي وكانم وبرنو وغيرها. وبينما تجارة الرق العربية كانت تقوم على جهود فردية فإن تجارة الرقيق الأوروبية اعتمدت على تأسيس الشركات والمراكز التجارية وبناء القواعد العسكرية التي ضيقت الخناق على القارة، وأصبحت تلك التجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود الذي اجتاح أوروبا في القرن

(١) المرجع السابق. المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» الكتاب الثامن بحث د. محمد أبو كعو ص ٣٥١-٣٥٢

الرابع عشر فقضى على ما يقارب من ثلث سكانها وكانت نتيجته الاجتماعية وراء سبب النقص في من ذلك الوباء الأسود الذي قضى وقضت معه ثروة[1].

تحددت تجارة الرقيق الأوروبية مسارا عرف بالمثلث التجاري حيث تبحر السفن من أوروبا إلى أفريقيا عبر المعبر الأوسط في المحيط الأطلسي ثم تعود محملة بالرقيق من أفريقيا معروضة للبيع في أمريكا وجزر الهند الغربية وتعود إلى أوروبا محملة بالسلع مثل السكر والقطن والتبغ. وقد شكل سكان غرب أفريقيا ثلثي ضحايا تجارة الرقيق، وقدمت منطقة غرب أفريقيا ثلاثة أخماس الرقيق المصدرين سنة ١٧٠١ ـ ١٨١٠م إلى أمريكا الجنوبية وجزر الكاريبي والمستعمرات البريطانية في شمال أمريكا ووسطها. ومع نهاية القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر أصبح خليج بيافرا هو أهم مصدر للرقيق المصدر إلى أمريكا.

استخدم التجار الأوروبيون أساليب مختلفة للإيقاع بضحاياهم من بينها الخداع والاستدراج بالإغراء ثم الاختطاف، وأحيانا كانوا يختطفون مباشرة من الشوارع أو الحقول من قراهم حتى يركبوهم السفن. ثم اهتدى التجار إلى طريقة تؤمن لهم عددا كبيرا من الرقيق وذلك عن طريق تشجيع الممالك الإفريقية في الدخول في حروب ضد بعضها البعض وبيع الأسرى لهم، وقد عمدت بعض الممالك إلى خوض الحروب وكانت تبيع من تأسرهم من المهزومين، وقدموا لهم السلاح مقابل أن يبيعوا أسراهم لهم، وأصبح ثمن الرقيق من السلاح، ومن لا يمتلك السلاح من الحكام كان يتعرض هو وقبيلته للاسترقاق من الممالك المنافسة له بمعاونة التجار. ويعتقد أن ثلاثة أرباع الرقيق الذين سرقوا من أوطانهم هم نتاج حروب محلية أثارت لهيبها الدول الأوروبية وعملت على مخططاتها[2].

وكان من نتائج تجارة الرقيق الأوروبية أن تعرضت مناطق شاسعة في غرب أفريقيا ووسطها لعملية تهجير قسرية كبرى أدت إلى إفراغ قرى كاملة من سكانها ...

(١) [illegible] ص ٢٣ [illegible]

(٢) [illegible] ص ١٦٢ ـ ١٦٥

صحراء منذ التجارة، كما حدث اختلال كبير في الخريطة السكنية؛ إذ هربت القبائل الساحلية هجرات جماعية للداخل فراراً من حملات التحرر فكثفت المناطق الداخلية بالسكان بينما ضعفت البنية البشرية للسواحل فحسرت مقومات التصدي لأي خطر يمكن أن تتعرض له القارة. وقد اتضحت هذه الحالة عندما حدث تحول في استراتيجيات الغرب الاقتصادية إلى إحلال نشاط استعماري جديد محل تجارة الرقيق فجاءت الأساطيل لترسو في الموانئ دون مقاومة تذكر لتبدأ مرحلة جديدة من مواجهة بين إفريقيا والغرب.

إن تجارة الرقيق الأوروبية لم تسع فقط إلى استغلال اليد العاملة الإفريقية بدون مقابل بل سعت إلى استرقاق العقل الإفريقي ووجدانه من أجل تمهيد سبل السيطرة والاستعمار وخلق حالة من التبعية الدائمة فكرياً وثقافياً واقتصادياً.

لقد استرقت تجارة الرقيق عقول الأفارقة، كانت بركاناً معنوياً هز وشق الوجدان الإفريقي وحطم المعنويات وسلب العقول وجرد الإفريقي من قدراته التفكيرية وثقته في عقله وذاته، ومهد الطريق للاستعمار العسكري فيما بعد، وخلق حالة من التبعية الدائمة للغرب فكرياً وثقافياً واقتصادياً، وحرص الاستعمار أن يحجب الإفريقي من ماضيه فكان لا يجمع في مكان واحد رقيقان يتكلمان لغة واحدة أو يربطهما عقيدة واحدة؛ لأن عزل الإفريقي عن ماضيه كان أساس حياة الرق. وقد أدت هذه السياسة إلى استرقاق العقل الإفريقي وتسخيره وتمهيده للاستعمار الدائم والمستمر وخلق حالة من التبعية الفكرية جعلت القابلية للاستعمار أمر محتم.

وقد حرص الاستعمار الأوروبي والهيئات التبشيرية منذ أن وضع أقدامه في القارة الإفريقية على إزاحة العناصر العربية ومحاربتها لأنه اعتبرها عائقاً أو حائلاً دون الانفراد بإفريقيا خاصة بعد أن توطدت الصلات الاجتماعية عبر التجارة بين العرب والأفارقة، وعمل على إضعاف الصلات القوية بينهما عن طريق الإيحاء الدائم للأفارقة بأن العرب هم أرباب النخاسة وهم تجار الرقيق الذين ساقوا أجدادهم بالسياط، وسخروا المناهج المدرسية لترديد هذه التهم وترسيخها في ذاكرة الأفارقة

من أجل إبراز دور المسلمين فى تجارة الرقيق، ولا يزال بعض الأفارقة يعتقد ذلك ويحمل العرب المسئولية تجارة الرق[1].

ولعل ما تجدر الإشارة إليه فى هذا المجال أن الدول الاستعمارية وعلى الأخص بريطانيا استغلت تجارة العرب فى الرقيق فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لكى تتغلغل استعماريًا فى القارة بدعوى القضاء على تلك التجارة فى مصادرها الداخلية، ومن ثم أخذ الرحالة الأوروبيون يحولون من تجارة العرب فى الرقيق ويثنون على الجهود الأوروبية التى حولت الرق الفردى إلى رق جماعى متمثل فى استغلال الإفريقيين فى المزارع والمناجم والغابات تحت وطأة العمل الإجبارى بالسخرة الذى هو الاسترقاق بعينه.

لا جدال أن الرق فى الدول الإسلامية كان مختلفًا، كان ابن الجارية من رجل حر يصبح حرًا ومن ثم فإن الجوارى اللاتى كن يشكلن العنصر الرئيسى فى تجارة الرق إلى الشرق الأدنى كن يتم امتصاصهن بسهولة فى النسيج الاجتماعى. لذلك لم يصبح الرقيق مشكلة اجتماعية فى الشرق الأدنى أو فى شمال إفريقيا؛ لأنهم كانوا يستخدمون أساسًا إما خدمًا فى المنازل أو جنودًا فى الجيش أو موظفين مدنيين. وقد اختلط هؤلاء الرقيق بالرقيق الأبيض القادمين من البلقان والقوقاز، كذلك لم يظهر قط فى أى من هذه البلدان شعور بأن الإسلام يستحل استرقاق الزنوج بوصفهم العرقى[2].

ومن السمات المميزة الأخرى للرق فى الشرق الأدنى هو أنه كان أساسًا أحد مظاهر البذخ، بيد أنه فى الأمريكتين كان له أساس اقتصادى مختلف تمامًا؛ فالرقيق كانوا يجلبون أساسًا للعمل فى المزارع التجارية، لذلك فالزنوج فى الشرق امتصوا فى السكان المحليين إذ لم يكونوا يشكلون مجموعة عرقية، كما أن اعتناقهم للإسلام كان يساعد على حل مشكلتهم الاجتماعية.

---

(١) المرجع السابق - المؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» الكتاب الثامن بحث د. محمد ادم كلو ص ٣٦١ - ٣٦٧.

(٢) الوثنية والإسلام مزيج الإمبراطوريات الزنجية فى غرب إفريقيا، مادهو بانيكار ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بلبع - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٥م، ص ٣٣.

شهد رونالد سيجال في كتابه «تاريخ الرق في إفريقيا» شهادة صدق في حق العرب والإسلام بالنسبة للرق، وعقد مقارنة بين الرق في المسيحية والرق في الإسلام قائلاً «إن كلاً من المسيحية والإسلام يؤكد قيمة الإنسان الفرد كما خلقه الله سبحانه لحكمة يدركها، ومع ذلك فإن المجتمعات المسلمة والمسيحية ولأغراضهم الخاصة قوية بالأسر الإفريقي الأسود وبيعه وامتلاكه واستخدامه سواء كان هذا الإفريقي رجالاً أو نساء أو أطفالاً. إن الخسائر البشرية في هذا العمل لا يمكن أن تقدر، ومن المؤكد أن ملايين الأرواح فقدت في الحروب والغزوات التي أسفرت عن اقتناص العبيد وأن ملايين ماتوا في عملية تجميعهم ونقلهم وغير ذلك.

لقد وجدت الإحصاءات العربية الخاصة بتجارة الرقيق عبر الأطلنطي الذين شحنوا في القوارب والسفن ومن بقوا على قيد الحياة ووصلوا إلى شواطئ الأمريكتين وبُحثت، والكثير من الحقائق عن نسبة القتلى منهم صارت معروفة سواء بسبب تحمُّلهم جهداً فوق الطاقة أو من قلة الطعام أو من التقييد بالسلاسل، فتجارة الأطلنطي واقتصادياتها سجلت وثبتت في السجلات بكل تفاصيلها.

وعلى خلاف تجارة الأطلنطي كانت التجارة الإسلامية تقوم في نطاق مختلف وفي سياق مختلف، بدأت قبل ذلك بنحو ثمانية قرون وجدت في نطاق ومعدل وحجم أقل، وكانت الأهلية الاجتماعية والثقافية للعبودية نفسها في الإطار الإسلامي أوضح من أهميتها الاقتصادية. ومن المؤكد أن التجار ورجال المال في الإسلام باعتبارهم مستثمرين أفراداً أو اعتبارهم شركاء في مشروعات استثمارية كانوا منشغلين بهذه التجارة ولكن ما سجل عن ذلك كان متناثراً وقليلاً، وهناك أيضاً العديد من المتعاملين الصغار في هذا المجال مع مجموعات قليلة من العبيد ولكن ما بقي من معلومات عنهم قليل جداً.

ولكن يمكن إدراك الخلاف بين هذين النوعين من تجارة الرقيق الأوروبية والتجارة الإسلامية من خلال النظام الاقتصادي الذي جرت في سياقه. اختلف المؤرخون حول الدرجة التي أسهمت فيها تجارة الأطلنطي في تنمية الرأسمالية الغربية وثورتها الصناعية بدءاً من القرن الثامن عشر، ولكنهم لم يختلفوا حول أن الأرباح الطائلة التي ولدتها

تجارة الرق قد استثمرت فى تطوير الصناعة، وأن عدداً كبيراً من الصناعات تطور ليمد هذه التجارة بالسلع المطلوبة، وأن العبيد كانوا يشكلون وحدات أساسية فى العملية الإنتاجية بصرف النظر عن مدى الاعتراف أو الإنكار لإنسانيتهم.

إن النظام العبودى فى المزارع الذى ظهر فى الأمريكات الثلاث الشمالية والوسطى والجنوبية كانت له نتائجه الرهيبة؛ فالذى حدث أن الاستعمار الأوروبى لمستعمرات كثيرة هناك أدى إلى إبادة جماعية للأهالى، ونتيجة الأمراض الجديدة الوافدة وبسبب العمل الشاق الذى أجبروا عليه ظهر احتياج شديد لعمالة أخرى ترد من الخارج للقيام بالأعمال الزراعية.

أما نظام الرق فى الإسلام فكان مختلفا تمامًا، استخدم الرقيق فى قطاع الخدمات مثل المحظيات وأعمال المنازل والجنود. ذلك أنه فى المجتمعات الإسلامية كانت الزراعة وشئون الإنتاج تجرى فى المجتمعات بواسطة ما بها من سكان تابعين فى أوطانهم ومجالات إنتاجهم، فلم يكن الإنتاج وشئونه يحتاج إلى رقيق يشترون للقيام بهذه الأعمال، لذلك كانت العبودية ذاتها وفى الأساس شكلاً من أشكال الاستهلاك أكثر من كونها شكلاً من أشكال الإنتاج أو هى تنتمى إلى قطاع الخدمات أكثر من دخولها قطاع الإنتاج. وإن أكثر ما يعبر عن ذلك هو نسبة الذكورة والأنوثة بالنسبة للعبيد، فى تجارة الأطلنطى كان الشحن فيها يمثل بشكل تقريبى رجلين مقابل كل امرأة واحدة، وفى التجارة الإسلامية عبر القرون كانت النسبة تقريبًا امرأتين فى مقابل كل رجل للاحتياج إلى النساء لخدمة المنازل.

إن الاختلاف بين نوعى التجارتين يتعلق بطبيعة الدولة فى الإسلام كشىء متميز عن المسيحية الغربية، وفى الحقيقة فإن لفظ المسيحية (رغم أنه يبقى مفيداً فى إدراك الفروق) صار فى الواقع لفظًا لا يعكس الدلالة الحقيقية بالنسبة للدول التى يقال إنها مسيحية؛ لأنها صارت مع الوقت دولاً قومية وصارت صبغتها صبغة علمانية. أما فى الإسلام فإن الدولة فى جوهرها امتداد للعقيدة ولا توجد شرعية تجاوز ذلك، وطبيعة المجتمع فى الإسلام تتشكل بوجود الإرادة الإلهية كما عبر القرآن. وقد عالج القرآن

بشيء من التفصيل موضوع العبيد و حث على مشاعر الرحمة تجاههم وإن العبيد يجب أن ينظر إليهم ويعاملوا بوصفهم أناسًا وليسوا مجرد ممتلكات

ليس المقصود رسم صورة ورديه لظروف العبيد، فالعبد هو العبد فى كل الأحوال، وللملاك سلطة على عبيدهم تجعل القليلين منهم فقط هم من لا يسيئون استخدامها حتى فى المسائل البسيطة التى وإن قل ضررها فهى تفيد الازدراء بالنسبة لوسائل المعاملة، وحتى السادة الذين يتميزون بالشفقة وحسن المعاملة يستغلون المحظيات من الجوارى جنسيًا بما يشكل انتهاكًا لآدميتهن. وفى حالة الخصيان يقدر أن تكون العبودية فى الإسلام أكثر رحمة منها فى الغرب فالذين يشترون العبيد الخصيان يعتبرون مشاركين لمن يرتكبون هذه الفعلة، ومع ذلك فإن معاملة العبيد فى الإسلام فى الجملة كانت أكثر رحمة ويرجع ذلك فى شطر منه إلى أن القيم والتوجهات التى تركبها العقيدة تولد نموذجًا من شأنه أن يكبح التطورات التى يركبها الطراز الغربى الرأسمالى بما يتضمنه من إخضاع الناس إخضاعًا شديدًا لقانون الربح وما يفرضه من أولويات. وقد كان الحسم فى المجتمع الإسلامى أن هؤلاء الذين يخدمون الإيمان سواء بالعلم أو بالسلاح يتمتعون بمركز اجتماعى يفوق من تنمو ثرواتهم من خلال الاستثمار الاقتصادى. وفى حين أن التجارة مقبولة بوصفها ضرورة اجتماعية ونافعة اجتماعيًا فإن الحصول على الثروات بالمضاربة أو بغيرها ولو على حساب رفاهية الجماعة لا ينظر إليه بريبة فقط ولكن يمكن أن يواجه بعقاب صارم. إن الإسلام يحظر الفائدة والربا ورغم أنه ممنوع أيضًا فى العهد القديم (التوراة) إلا أنه فى الغرب استخدم اليهود الربا وزاد استخدام المسيحيين له فى المشروعات الاقتصادية. إن أثر الإسلام لناجح فى مواجهة العنصرية كشكل من أشكال التمييز المؤسسى بين الشعوب كان فعالًا وكان القرآن يدين العنصرية ويؤكد فى الأساس المساواة بين البشر بصرف النظر عن الانتماء القبلى والقومى. وفى الغرب فإن المشروع الاقتصادى ونمو الدولة العلمانية دعم كل منهما الآخر وبلغ ذلك حد تنحية أى رسائل وتعاليم روحية تتعلق بالرحمة بين الناس. إن النظام العبودى كان غير ملائم قطعًا للتعاليم المسيحية وقد حل محله نظريات علمية تؤيد الموقف من السود.

إن المسيحية قامت بدور مهم في المعارضة التي قادتها بريطانيا ضد تجارة الرقيق وضد العبودية ذاتها . وكثير من دعاة إلغاء تجارة الرقيق كانوا يأخذون التعاليم الدينية بجدية ، ومع ذلك فإنه من المشكوك فيه أنهم كانوا ينجحون بغير تأييد الرأسماليين الصناعيين . إن العمالة تخطت الأوضاع التي كان العمل العبودي فيها يفيد زراعة الأرض إلى أوضاع صار الإنتاج الآلي فيها أكثر جدوى . إن صرخة حرية التجارة كانت تقود صرخة حركة أخرى هي حرية العمل التي يمكن بريطانيا من أن تتبوأ مكانة القيادة الصناعية وأن توسع أمامها مجالات الأسواق الجديدة ومن بينها السوق الإفريقي الذي يمكن أن يجذب السلع البريطانية . ومع الوقت فإن هذا المزج بين الدعاوى الروحية والحملات الاقتصادية سيطر على الدولة ، ومن ثم صارت الطاقة المالية البريطانية مع النشاط الدبلوماسي مع قوة الأسطول البحري مما جعل أيام العبودية أيامًا محدودة . إن العنصرية بقيت بعد انتهاء العبودية وإذا كانت العادات القديمة تنقضي فإن ثمة أسباب تجعل هذا الوعي يستمر ويقوى بدلاً من أن يضعف . إن القوة الاستعمارية قد وسعت من نشاطها في جميع أنحاء العالم ووجدت مبررًا معنويًا لذلك في مفهوم يتعلق بمسئولية الرجل الأبيض مع ما يفترضه هذا المفهوم من اعتبار الأجناس والأعراق السوداء والملونة هي أجناس وأعراق بدائية[1] .

وهناك وجه آخر للمقارنة بين أوروبا وإفريقيا بالنسبة للعبيد والعبودية ، يكمن في معاملة من يقتنص . ففي إفريقيا كان العبيد في الغالب يبدءون صعودهم على سلم التحرير من أدنى وضع ، ولم يكن هذا مختلفًا كثيرًا بالنسبة لمن كان يقتنص ويجلب من إفريقيا إلى إسبانيا والبرتغال قبل القرن الخامس عشر قبل أن يزول الحكم الإسلامي عن الأندلس (كان الإفريقيون والعرب البربر «المركشيون» يسيطرون على شبه جزيرة أيبيريا «إسبانيا والبرتغال» منذ سنة ٧١١ حتى عام ١٤٠٠م) . فالكثير من العبيد الإفريقيين في الأندلس كانوا يتمتعون بمعاملة خاصة ممنوحة لهم من السلطات ، وكان القاضي الرئيسي لهم واحدًا منهم وممثلاً لهم وكان يعرف باسم قاضي الزنوج . ومع مرور السنين اندمجوا في جيرانهم الأحرار وفقدوا ذاتيتهم العرقية .

---

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 3: 12

كان الحال فى أوروبا كما هو فى إفريقيا أن عند العصور الوسطى فى كلا الجانبين كان من انتقص يخضع لنظام تبادلى بالنسبة للحقوق والواجبات يربطه بالنبيل وأن ما جرى بالنسبة للسلوك الاجتماعى جرى بالنسبة لأخلاقيات التجار أيضاً سواء فى أوروبا أو فى إفريقيا. إن التجار الأوروبيين باعوا الأتباع من مواطنيهم لدول على الشاطئ الآخر من البحر فى مصر وشمال إفريقيا، وكذلك فإن أمراء إفريقيا المدفوعين بالحاجة إلى شراء البضائع الأوروبية باعوا رجالهم إلى البحارة الذين أتوا من أوروبا.

ن من المهم التركيز على هذه النقطة؛ لأنها الأساس الذى انطلقت منه وتأكدت كل الروابط بين أوروبا وإفريقيا.

يقول بازيل ديفيد سون: وبعيداً عن القبول العام لنظام الرق فى أزمنة ما بعد العصور الوسطى فقد كان ثمة قبول مشترك لتجارة الرقيق بين القارتين، فإن إفريقيا وأوروبا ارتبطت معاً فى علاقات هذه التجارة. حقيقة إن أوروبا سادت هذه العلاقة وحولتها إلى ما ينفع الأوروبيين وما يضر بالإفريقيين، ولكن الفكرة الإفريقية بأن أوروبا فرضت تجارة الرقيق على إفريقيا ليس لها أساس فى التاريخ، فقد كان الإفريقيون يبيعون العبيد وأيضاً كان الأوروبيون يبيعون أبناءهم لذلك من الخطأ القول إن الأوروبيين فرضوا هذا الأمر على الإفريقيين، ومن الخطأ أيضاً القول إن الأفارقة وحدهم من كانوا يبيعون وليس الأوروبيين، إنما الفارق أتى من أمر آخر وهو أن هذه التجارة المتبادلة بين الهياكل والمؤسسات لنظرين حدث فيها مثلما يحدث فى أى تجارة أخرى من أنها صارت تحقق مصالح الأوروبيين وحدهم وتؤدى إلى خسائر لدى الإفريقيين وحدهم[1].

(١) المرجع السابق The African Slave Trade, P. 41-44

رابعاً: التعويضات عن العبودية

هل من العدل أن يعوض قلة من البشر اضطهدوا عقداً من الزمان ولا يعوض ملايين اضطهدوا عبر أربعة قرون ؟ وهل اليهود الذين عملوا في معسكرات الاعتقال أيام النازية فترة لا تتعدى عشر سنوات نالوا من التعذيب والإبادة ما لاقاه عبيد إفريقيا في أوروبا والأمريكتين على مدى أربعمائة سنة أو أكثر؟ هذا هو السؤال الكبير الموجه إلى ضمير العالم، وهو سؤال بدأ يثور بشكل جدي لدى العديد من موجهي الرأي العام في البلاد الإفريقية ويجدون من يجادلهم فيه وينكر عليهم حقهم من الدارسين والباحثين الغربيين، كما يجدون قلة تقف بجانبهم من أصحاب المواقف النبيلة.

إن الغربيين لا يرفضون فكرة تعويض الأفارقة عن حقبة العبودية فحسب بل يسخرون منها، ويقولون حتى لو شاءوا فأين هم أحفاد هؤلاء العبيد، ولمن تؤدي التعويضات؟ وكم تساوي حياة الإفريقي؟ الإجابة ببساطة مثلما يدفع لليهودي يدفع للإفريقي.. وبهذا القياس تقدر التعويضات بتريليون إسترليني، أما من يأخذ التعويض فلتكن للمناطق التي سرق منها العبيد، وتدفع لهذه الدول الفقيرة كحقوق يستردونها لا ديون يذلون من أجلها. إن هذا ما يجب أن يفعله الغرب المتحضر مع تلك الأمم التي سرقوها لا أن يكون الرد مثلما قال «جون ميجور» رئيس الحكومة البريطانية الأسبق إنه مستعد أن يدفع التعويضات بشرط أن يثبت أحفاد الرقيق الأفارقة أنهم لا يزالون يعانون من الرق!!

في يونيو عام ١٩٩٩م وجه المؤتمر اليهودي الدولي نداء، لمن لا يزالون أحياء من اليهود وأقربائهم ممن نجوا من مذابح النازية، ليقيموا دعاوى ضد الحكومة السويدية وبنوك سويسرا لمن كانت لديهم أرصدة نهبها النازي أو ممن أجبروا على أعمال السخرة في الشركات السويسرية أو لدى أي مالك سويسري، وقدرت هذه التعويضات بمبلغ ١,٢٥ مليار دولار.

وجاء هذا النداء إثر إدعاء تقدمت به عجوز يهودية تبلغ من العمر ٨٥ عامًا هي مسز «جرتا سلبربرج» تعيش في بريطانيا. وادعت هذه السيدة أن لوحة للرسام «فان جوخ»

ومنها ٣,٣ ملايين إسترليني كان يمتلكها حماها «ماكس سلبربرج» وهو من أثرياء رجال الصناعة اضطر لبيع اللوحة مع ١٤٣ قطعة فنية من مجموعة كان يقتنيها، مع ذلك ليدعم أسرته بعد أن طرده النازي من عمله (يلاحظ أنه باع اللوحة والمقتنيات بمحض إرادته ولم تغتصب منه ولا صودرت، كما أن الأمر هنا يتعلق بأشياء وليس بأرواح بشرية وتدمير حضاري).

وشنت صحيفة التايمز البريطانية حملة صحفية تؤيد الأرملة العجوز، فكتبت عدة افتتاحيات تقول: نعم لقضية سلبربرج، وإن القرار يجب أن يكون نعم وإن البحث عن تلك الثروات وتعويض الضحايا عن الجرائم التي ارتكبت في حقهم يجب أن يشكل ضغطًا أدبيًا على أوروبا والولايات المتحدة.

وكأثر مباشر لهذه الحملة الصحفية فبعد ثمانية عشر يومًا من توجيه النداء أعلنت ست عشرة من كبريات الشركات الألمانية (منها سيمنس وكرولاو والبنك الألماني) أنها غطت المطالبات الإسرائيلية، ووعدت هذه الشركات بتكوين رصيد آخر يقدر بـ ١,٧ مليار دولار لأداء التعويضات عن ألف شخص عملوا في معسكرات الاعتقال ولدى مؤسسات لم يعد لها وجود الآن.

والسؤال: إذا كان ضمير العالم الغربي يعترف بحقوق بقايا يهود النازية ويعاملهم بهذه الإنسانية، فلماذا يتجاهل حقوق مئات الملايين من الأفارقة اختطفوا على مدى أربعة قرون وقذف بهم من بلدان أوروبا والأمريكتين ليعمروها؟ ولماذا تطالب إسرائيل بالتعويض ولا تستطيع إفريقيا أن تفعل ذلك؟

إن هذا السؤال يكتسب مغزى أكبر عندما يكتشف حقيقة أن بعضًا من تجار الرقيق والممولين لتجارة الرقيق في إفريقيا كانوا يهودًا. وهذا ما كشف عنه المؤرخ هيو توماس في مؤلفه الضخم «تاريخ تجارة الرقيق عبر الأطلنطي» ونشر في نوفمبر عام ١٩٩٧م في ٩٢٥ صفحة، وفيه أبرز ارتباط الصلة اليهودية بهذه التجارة قائلاً: «إن الحقيقة المجهولة التي يراد لها أن تتجاهل هي أن كثيرًا من تجار الرقيق في القرنين السادس عشر والسابع

عشر فى لشبونة (البرتغال) كان يموِّلهم يهود واليهود المتحولون عن يسمون «المسيحيين الجدد» الذين تحولوا بسبب ضغوط محاكم التفتيش[1].

ولكن هذا الكلام الذى يدين ويشين الأوروبيين والصهيونية العالمية المسيطرة على زمام عالم اليوم لا يمكن بالطبع أن يقبلوه بسهولة، وأفضل وسيلة لإبعاد هذه التهم هو قلب الأمور وإلقاء المسئولية على الأفارقة أنفسهم فهيوتوماس عندما كشف عن دور اليهود واعترف بأن بعض العبيد سرقهم الأوروبيون وبعضهم كانوا ضحايا غارات عسكرية قام بها البرتغاليون لخطف العبيد كما حدث فى أنجولا؛ فإنه يوقع المسئولية على الإفريقيين فيقول إن أغلب العبيد الذين حملوا من إفريقيا بين عامى ١٤٤٠ و١٨٧٠م إنما جلبوا بأيد إفريقية، وإن الإفريقيين هم من باعوا ذويهم وجيرانهم الأقارب أو الأباعد، وإنه لو لم يبع الإفريقيون أبناءهم لما استطاع الأوروبيون ممارسة هذه التجارة. إن البيع الذاتى كان موجودًا بين الأجناس الإفريقية والبيضاء أيضًا، وبقى ذلك على مدى التاريخ، متمثلاً فى الممالك القديمة وجند جيوشها وفى المحظيات وغيرهم. وفى إفريقيا كانت صراعات القبائل والانتماء القبلى تدخل فى حروب بعضها مع بعض حول المراعى أو منابع المياه ومن يؤسر يسترق ويباع، وكان إعلان فتح المدن للنهب والسلب بعد الغزو وانتصار الغزاة كان عقيدة عسكرية موجودة فى أعراف الحرب والقتال فى العالم القديم كله، واستمر قرونًا طويلة، ويضاف إلى ذلك أيضًا أن الفقر كان يدفع الناس أحيانًا إلى بيع أولادهم لا للحصول على المال من ثمن هذا البيع، ولكن لأنهم متيقنون أن الأبناء المباعين سيجدون حياة أرغد وأمنًا من قسوة العيش التى سيجدونها فى حياتهم مع أسرهم، وكان ذلك موجودًا بين شعوب الجراكسة والتركمان التى عرفناها فى تاريخنا الوسيط فى مرحلة تشكل الجيوش من المماليك وحكمهم للبلاد فى تلك الفترات.

والحقيقة أن الأفارقة لم يكونوا غافلين عما يحدثه الأوروبيون بشعوبهم، ولكنهم كانوا مجبرين وقصة ملك الكونغو «ألفونسو الأول» خير شاهد، هذا الملك الإفريقى تحول إلى المسيحية وتعلم اللغة البرتغالية قراءة وكتابة، بعث إلى صديقه ملك البرتغال

(١) العبودية فى إفريقيا. المرجع السابق ص ١٢٤.

الحرب الثالثة يشكو إليه تجريد الكونغو من السكان بواسطة تجارة العبيد البرتغالية، كتب يقول له:

إن التجار يخطفون كل يوم شعبنا من الأطفال وأبناء النبلاء وحتى أناساً من عائلتنا، إن الفساد والرذيلة والخسة تنتشر، نحن نحتاج في هذه المملكة فقط إلى القساوسة ومدرسي المدارس ولا نحتاج لتجارة العبيد أو نقلهم، فرد عليه ملك البرتغال الأوروبي المتحضر يقول له: «إنك تقول إنك لا تريد تجارة العبيد في مملكتك؛ لأن هذه التجارة تجرد بلدك من سكانه، على العكس من ذلك فإن البرتغاليين قالوا لي إلى أي مدى الكونغو واسعة ومكتظة بالسكان»[1].

كان الغزاة البرتغاليون ينزلون إلى الساحل في الليل ويهاجمون قرى الصيادين، ومع الوقت قرر الإفريقيون أن يحاربوا دفاعاً عن أنفسهم وكانوا يكبدون البرتغاليين خسائر جمة، ومع زيادة خسائر البرتغاليين فإن «هنري الملاح» وهو الأول من ملوك أوروبا الذين استفادوا من العبودية أمر رجاله أن يغيروا من تكتيكاتهم وبدلاً من السيطرة على الإفريقيين بالقوة لجؤوا إلى أسلوب الشراء واستخدموا الغش والرشوة لكسب ثقة بعض الأهالي لإقناعهم بخيانة ذويهم وبيعهم.

وعلى كل تظل تجارة الرق عبر الأطلنطي إحدى أضخم الهجرات البشرية في التاريخ واقتناص العبيد يعد من كبرى المغامرات التجارية التي شنت خلال حقبة ما قبل الاستعمار، وأن البرتغال كانت الدولة الأجنبية الرئيسية المنغمسة في هذه التجارة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم نافسها الوجود الهولندي في القرن السابع عشر، وفي القرن الثامن عشر أصبح لإنجلترا وفرنسا الهيمنة

إن ٥٥٪ من مجموع الرقيق الذين شحنوا من إفريقيا عبر المحيط الأطلنطي جاءوا من إفريقيا الغربية من الأماكن الواقعة جنوب الكاميرون وعلى وجه الخصوص من الكونغو وأنغولا. وكانت المنطقة الواقعة بين السنغال وساحل العاج غير مهمة نسبياً في تجارة الرقيق، أما المنطقة الأساسية للتصدير فكانت شريطاً قصيراً من الساحل يمتد من

(١) محمود نيه في إفريقيا ـ المرجع السابق ص ١٢٥

ساحل الذهب (غانا) إلى الكاميرون، حيث صدر منها ٨٢٪ من مجموع الرقيق الذين تم شحنهم من إفريقيا الغربية

***

من المؤسف أن قصة العبودية في إفريقيا لم تسجل إلا من جانب العاري وحده ومن خلال عيون وكتابات الرجل الأبيض، أما الجانب الإفريقي فهي تتداول شفاهة ولا يوجد بها سجل مكتوب. يقول «آدم هو تشيلد» في كتابه« شبح الملك ليوبولد»: إن كل هذا النهر العريض من الكلمات كتبه أوروبيون وأمريكيون وهذا يوضح من أي جهة سجل التاريخ، أما الأصوات الإفريقية فهناك صمت مطبق، لقد تعاون الأمريكيون مع الأوروبيين على إخفاء الحقائق، ولكن سجل الغزاة الأوروبيين للعالم كله موجود بشكل كاف، فهناك إجماع بين المؤرخين أن البرتغاليين بدءوا تجارة الرق عبر الأطلنطي مستخدمين الخطف كوسيلة للحصول على العبيد الأوائل.

ويذكر هوتشيلد نقلاً عما كتبه «جومز دي زورارا» كاتب الحوليات البرتغالي الذي كان ملحقاً ببلاط ملك البرتغال هنري الملاح: إن البرتغاليين استخدموا أولاً الحرب على السود عام ١٤٤٤م لاقتناص العبيد الأول، كان البرتغاليون يصيحون سان جيمس سان جورج ويهجمون على الأفارقة يقتلونهم ويخطفون ما يستطيعون منهم، وكنت تشاهد الأمهات يبحثن عن أطفالهن والأزواج عن زوجاتهن، والكل يفر بقدر ما يستطيع من جهد، وبعضهم كان يلقي بنفسه في الماء والبعض يهرب ويختفي في الأكواخ والبعض في الأدغال[١].

وعلى كل الأحوال إذا كان قلة من الإفريقيين تعاونوا مع تجار الرقيق البيض، فتظل المسئولية معلقة بالتجار المشترين الذين كانوا يجمعون الشباب الإفريقيين ويسوقونهم إلى أمريكا. ويسجل للمؤرخ الفرنسي «هنري والون» القول: إن عبودية الأوروبيين للأوروبيين التي استمرت حتى العصور الوسطى في أوروبا قد توقفت وأدينت في القرن الثاني عشر، وبعد ذلك في سنة ١٤٤٤م نرى الأوروبيين أنفسهم يذهبون إلى

---

(١) العبودية في إفريقيا: المرجع السابق ص ١٢٧.

إفريقيا ليشتروا العبيد، ثم تمضي الأيام ويقولون نحن لسنا مسئولين شأنهم في ذلك شأن من يشترى بضاعة مسروقة ثم يقول للمحكمة أنا لست مذنبًا لأنى دفعت الثمن، رغم أنه يعرف أنها مسروقة وأن البائع له لم يكن من حقه أن يمتلكها.

إن الحقيقة التى يجب إلا تغيب هي أن كل ما كان يطلبه الأوروبيون في أى مكان في العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو الغش فإن لم ينجحوا بأى من هاتين الوسيلتين فالقوة. فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة وكندا والبرازيل فضلاً عن الكاريبي وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا وزيمبابوى فإن الأوروبيين سيطروا على الأرض وأزاحوا الأهالى، وأحيانًا كانوا يسممون منابع المياه أو يعطونهم هدايا مسمومة كما فعلوا في أمريكا، وكان الأهالى المحظوظون الذين لم يقتلوا يجمعون في معسكرات معزولة.

لذلك يمكن القول إنه عندما لم يكن يجد الأوروبيون من ينتفعون منهم في استجلاب العبيد كانوا يلجئون إلى إبادة الأهالى والامتلاك الكامل لأراضيهم كما حدث في الأمريكتين وأستراليا ونيوزيلندا، وكما حاول الألمان أن يفعلوا في ناميبيا؛ حيث أزاحوا تقريبًا ٧٠٪ من الشعب بين أعوام ١٨٨٧ و١٩٠٧م، أو كما فعل الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا في الكونغو حيث قتل وأباد واستعبد في رهاب المطاط عددًا يتراوح بين ثلاثة وخمسة ملايين في الكونغو بين أعوام ١٨٩٠ و١٩١٠م

واليوم لا الألمان ولا البلجيك يفكرون أن يقدموا أية تعويضات عن قتلهم هؤلاء الأفارقة في ناميبيا أو الكونغو في حين نجد ألمانيا سعيدة جدًا وفخورة بأنها تعوض اليهود.

الحق في التعويض

مما تقدم نجد أن حق الأفارقة للمطالبة بالتعويضات عن حقبة العبودية مطلب عادل ومشروع ومعترف به في القانون الدولى. وقد عرفته المحكمة الدائمة للعدالة الدولية (تكوين السابق لمحكمة العدل الدولية) «إن التعويض يجب أن يقدر بما يمكن أن يزيل تمامًا جميع النتائج التى ترتبت على العمل غير المشروع، ويعيد إلى الوجود الحادثة أو الوضع الذى كان موجودًا قبل أن يرتكب الفعل غير المشروع وذلك بقدر الإمكان»

وأن الوفاء أو الرد يجب أن يكون عينيًا فإذا لم يكن جاز دفع مبالغ تتناسب مع قيمة الوفاء العيني ، وهو تعويض عن الهلاك الحاصل والخسائر التي تحققت والتي لا يمكن إعادتها من جديد عينًا فيؤدي التعويض بدلاً منها. وقد حدث في عام ١٩٥٢م أن توصلت ألمانيا لاتفاقية مع إسرائيل تدفع ألمانيا بموجبها ٢٢٢ مليون دولار ، وذلك نتيجة لدعوى رفعتها إسرائيل عن نفقات إعادة توطين ٥٠٠ ألف يهودي هربوا من البلاد التي سيطرت عليها النازية ، وهكذا نجحت إسرائيل في دعواها عن التعويضات من ألمانيا وعن نفقات توطين اللاجئين اليهود ، رغم أن إسرائيل لم تكن قد وجدت كدولة بعد في الوقت الذي ارتكب فيه النظام النازي جرائمه. وبعد ذلك في عام ١٩٩٠م. دفعت النمسا ٢٥ مليون دولار لمن بقوا أحياء من المحرقة اليهودية ، وأدت اليابان تعويضات نقدية لكوريا الجنوبية لما ارتكبته من أفعال خلال الغزو والاحتلال الياباني لكوريا. وفي سنة ١٩٨٨م أصدر الكونجرس في الولايات المتحدة قانونًا خاصًا بالحريات المدنية لأداء تعويض لليابانيين الأمريكيين بالنسبة لما فقدوه عندما اعتقلتهم الحكومة الأمريكية بأعداد كبيرة في فترة الحرب التي جرت بين أمريكا واليابان وكان المجموع هو ١,٢ مليار دولار بواقع ٢٠ ألف دولار لكل شخص. وأصدر مجلس الأمن قرارًا طالب فيه العراق بأن تؤدي تعويضات لغزو الكويت. ودفعت مصر تعويضات عن الأملاك البريطانية التي صودرت أو استولى عليها أيام حكومة عبد الناصر.

وطبقًا لذلك فإن مطلب التعويضات الإفريقية يرتكز على ثلاثة افتراضات[1].

١ - إن الخطف الجماعي والاسترقاق الجماعي للإفريقيين هو أكبر الجرائم الجماعية في سجل التاريخ البشري.

٢ - لم يدفع تعويض قط من مرتكبي هذا الأمر إلى أي ممن قاسوا منه.

٣ - إن كل نتائج الجريمة بقيت شاملة سواء في ثروات الخلفاء والأحفاد الأوروبيين ، أو في شكل الإفقار لإفريقيا والخلفاء الإفريقيين وحفدتهم ، ومن ثم فإن قضية التعويض تتأكد بغير شك.

---

(١) بحث قدمه المحامي البريطاني اللورد «أنتوني جيفورد» عن الأساس القانوني لطلب تعويض الأفارقة في المؤتمر الأول لبحث موضوع التعويضات الذي انعقد في أبوجا بنيجيريا في إبريل ١٩٩٣م.

إن ميثاق محكمة نورمبرج عرف الجرائم التي ارتكبت ضد السلم : بالتخطيط أو الإعداد أو التهديد أو خوض حروب عدوان، وكذلك جرائم الحرب بانتهاك القوانين والأعراف الخاصة بالحرب بما في ذلك القتل وسوء المعاملة والترحيل لأعمال السخرة وذلك بالنسبة لأهالي الإقليم المحتل أو الشاغلين لهذا الإقليم. وكل هذه الجرائم مارسها الأوروبيون على الإفريقيين زهاء خمسة قرون منذ أن نزلوا إفريقيا في منتصف القرن الخامس عشر حتى الستينيات من القرن العشرين وقت تحرير إفريقيا.

إن غزو الأراضي الإفريقية والاصطياد الجماعي للإفريقيين والفظائع التي ارتكبت والشحن الحيواني للبشر الإفريقيين إلى الأراضي الأمريكية والتمييز ضد الإفريقيين المرحلين في اللغة والثقافة كل ذلك يشكل انتهاكًا لهذه القوانين الدولية.

وإن الوقت الذي مر منذ انتهاء العبودية لا يشكل عائقًا أمام دعوى الشعوب الإفريقية باعتبار أنه يمكن إثبات النتائج والآثار التي ترتبت على جريمة العبودية التي لا تزال مستمرة ولا تزال تعلن عن نفسها وعن الأضرار التي لحقت بالإفريقيين سواء من يعيشون منهم في إفريقيا أو من يعيشون في الشتات. ففي القارة الإفريقية حضارات مزدهرة دمرت، ونظم حكم وحكومات سحقت وملايين من المواطنين أجلوا بالقوة، وترتب على ذلك مباشرة إفقار وتخلف يؤثر إلى الآن على إفريقيا وكل قاطن في إفريقيا السوداء.

ولا توجد حدود زمنية في القانون الدولي تسقط الدعاوى فإن التأخير لا يصلح سببًا لرفض الدعوى. إن الشعب الإفريقي إلى وقت قريب جدًا لم يكن له صوت مستقل ولا كان له أي وضع مشخص له في الجماعة الدولية، وكيف كان يمكن للشعوب أن تطالب بحقها في التعويضات عندما كانت دولهم تعتبر ممتلكات لما وراء البحار ومملوكة لهذا البلد نفسه الذي اختطف أسلافهم واستعبدهم. وحتى بعد استقلال الأمم الإفريقية من الاستعمار فإن الارتباطات ونظام الاستعمار الجديد قد منعا من قوة الحكومات الإفريقية في أن تتحدث بأي نبرة مستقلة ضد عزاتهم السابقين. لقد استغرق هذا الأمر نحو أربعين سنة أو يزيد منذ الحصول على الاستقلال الشكلي لكي يرتفع الصوت المطالب بالتعويضات.

والآن.. من المسئول عن أداء التعويضات؟ هل المشترى المتمثل فى حكومات الدول التى شجعت تجارة الرقيق وأيدتها وشرعت مؤسسة العبودية وتربحت نتيجة لهذا الأمر وحققت أرباحًا طائلة من العبودية، أم البائع المتمثل فى التاجر العربى والقناص الإفريقى؟

بهذا الخصوص عقدت ثلاثة مؤتمرات عالمية لمناهضة العنصرية وبحث التعويضات: الأول عقد فى أبوجا بنيجيريا عام ١٩٩٣م وفيه بحث المحامون ورجال التاريخ الوسائل العملية للحصول على تعويضات عن العبودية والاستعمار. وعقد المؤتمر الثانى عام ١٩٩٩م فى أكرا بغانا، وقد أصدر إعلانًا طالب فيه بدفع مبلغ ضخم للتعويض عن استعباد الأفارقة واستعمار قارتهم، وكانت المطالبة موجهة لكل من الدول والتنظيمات فى أوروبا وأمريكا التى شاركت واستفادت من تجار الرقيق ومن الاستعمار، وطالب إعلان أكرا بأن تؤخذ حصيلة التعويضات المطلوبة من قيمة الديون الخارجية لإفريقيا. وعقد المؤتمر الثالث فى دربان بجنوب إفريقيا عام ٢٠٠١م حضرته ١٦٥ دولة [وكان قد سبقهم مؤتمران لمناهضة العنصرية عقدتهما الأمم المتحدة عامى ١٩٧٨، ١٩٨٣م].

كانت القضية الأساسية فى مؤتمر دربان قضية الرق والاستعباد ومسئولية الدول الغربية الاستعمارية عنها وحتمية الاعتراف بذنبها، ومن ثم دفع تعويضات مادية وتقديم اعتذارات معنوية عما اقترفته. كان مطلب الدول الإفريقية من الدول الغربية الاعتذار عن تجارة الرق وحقبة العبودية التى استمرت قرونًا، وفيه شعر المستعمرون القدامى والجدد بالورطة التاريخية على أرض الجريمة وأمام الضحايا وأحفادهم وفوجئوا بهذه الهبة الإفريقى فآثروا إفشال المؤتمر عن طريق الانسحاب، فانسحب الوفد الأمريكى وهدد الاتحاد الأوروبى بالانسحاب أو الانصياع.

كان المؤتمر مواجهة بين المضطهِد والمضطهَد بين الجانى والضحية، لذلك لم ينجح فى التقدم خطوة فيما يتعلق بقضيته الأساسية وهى الاعتذار والتعويض وسقط فى دبلوماسية التهديد والضغط والانسحاب، فتأججت مشاعر العداء والرفض وقسم المؤتمر إلى شمال وجنوب، ورُفض تقديم التعويضات لضحايا الرق والعبودية ورُفض حتى فكرة الاعتراف بالذنب أو الاعتذار عنها، فلم يتحمس لها سوى ألمانيا وإيطاليا

أقل دول أوروبا تورطًا في جريمة الرق. أما الدول ذات السجل المأساوي والانتهاكات الفادحة وعلى رأسها بريطانيا وأمريكا والبرتغال وإسبانيا وهولندا فقد أعلنت صراحة أنها لن تعتذر ولن تقدم تعويضات واقترحت فقط الإعراب عن الأسف. وهكذا نجح الغرب في أن يحول جريمة العبودية التي تثيرها إفريقيا والمشتتون منها إلى اعتبارها مجرد حدث مأساوي كما لو كان زلزالاً أو إعصاراً طبيعيًا، ولم يصدر المؤتمر إعلانًا أو وثيقة وإنما صدر بيان ختامي أقر أن العبودية جريمة ضد البشرية (دون الاعتراف بها) وبأن العبودية والاستعمار من المظالم التاريخية التي أسهمت بشكل لا يمكن إنكاره في انتشار الفقر والتخلف والتهميش والعزلة الاجتماعية والتفاوت الاقتصادي.

وعندما فشلت إفريقيا في إجبار الدول الغربية على تسديد فاتورة العبودية ووجدوا صدودًا ورفضًا صريحًا في تقديم التعويضات لضحايا الرق والعبودية، بدأت تبحث عن الجانب الأضعف في المشاركة في هذه الجريمة اللاإنسانية، وهم العرب لممارستهم تجارة الرقيق في إفريقيا.

ساعد على ذلك أن حركة قومية نشأت في أوساط السود الأمريكيين وأفارقة المهجر تجد سندًا وتعاونًا مع الجماعات الصهيونية داخل المجتمع الأمريكي، وهذه الحركة برزت بشكل ملحوظ في السبعينيات من القرن العشرين كاتجاه لا يثق بالعرب، وخضعت للتسييس منذ أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١م، وأبرز رؤى هذه الحركة أن العرب في الشمال الإفريقي ليسوا من شعوب إفريقيا بل شعب غريب ساهم في تدمير إفريقيا مثل الغرب وأنهم مذنبون.

وقد عبرت هذه الحركة المناهضة للعرب عن نفسها بالمطالبة بتعويضات من الجامعة العربية نظير ممارسة العرب للعبودية وتجارة الرق في القارة وهذه الاتجاه المتحامل على العرب تغذيه الكتابات والدعاية الغربية ووجد استجابة لدى بعض المفكرين الإفريقيين مثل الكاتب النيجيري الشهير «وول سوينكا - Wole Soyinka» الحائز على جائزة نوبل في الأدب، وهو يعد أكثر المؤمنين بفكرة مسئولية العرب والمسلمين

عن الرق ويرى أنهم مذنبون فيما يتعلق بالعبودية وبتجارة الرق الإفريقى، ويطالب بتعويضات من المسلمين العرب[1].

وقد نجحت هذه الحركة فى فبراير سنة ٢٠٠٣م فى عقد مؤتمر فى جوهانزبرج جنوب إفريقيا بعنوان «مباشرة العرب لتجارة العبيد فى إفريقيا»، وفيه ارتفعت أصوات عدد من المثقفين من جنوب القارة يتهمون الدول العربية جميعًا وخاصة دول الشمال والشرق الإفريقى بأنها استغلت الجنوب قديمًا وباعتهم عبيدًا لأسواق العرب. وفى نهاية المؤتمر أصدروا البيان التالى:

ونحن إذ نؤكد حقيقة أن القارة الإفريقية وشعبها قد عملوا بوصفهم مستودعًا للعمل غير المأجور الذى حصل عليه الآخرون من خلال عمليات بالغة القسوة والبعد عن الإنسانية فى مناطق الأطلنطى والبحر الأبيض والمحيط الهندى وطرق التجارة، ففى هذ الصدد:

* نحن ندين بأقوى الكلمات الممكنة كل أشكال العبودية فى الماضى والحاضر فى كل أجزاء العالم.

* نحن نعترف بأن تجارة العبيد التى باشرها العرب بالنسبة للشعب الإفريقى ومن التجارة العابرة للأطلنطى كانت تمثل القسم الأكبر والمدة الأطول فى إزاحة الأهالى عبر تاريخ البشرية كلها.

* نحن نعترف بالرغبة فى محاربة وإنهاء فقدان الذاكرة الجماعى الخاص بعبودية العرب للإفريقيين. وفى هذا الصدد نحتاج إلى بحث أطول للبحث عن موضوع تجارة الرقيق التى مارسها العرب والعثمانيون. نحتاج إلى مجموعات عمل تُسهم فى إعادة الوعى الشعبى فى إفريقيا وعلى نطاق العالم، وأن الأكاديميين والباحثين من أهل إفريقيا مدعوون ليقوموا بدور فعال فى هذا الشأن.

---

(١) المرجع السابق ـ المؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» الكتاب السابع، بحث الحقل الإفريقى والمسئولية عن تجارة الرقيق والعبودية د. محمد أبو العينين ص ١٦٠.

* نحن نقر بالحاجة إلى تحريك الهياكل على النطاق العالمى لمحو وإلغاء الممارسات العبودية فى العالم.

* نحن نطالب بأن يكون موضوع العبودية المعاصر للإفريقيين عند الحدود العربية الإفريقية، وأن يوضع هذا الموضوع أمام الاتحاد الإفريقى.

* نحن نشجب أثر العبودية الإفريقية على الإفريقيين وما أنتجته فى تصفية الثقافة الوطنية لهم.

* نحن نعرف الحاجة إلى تأسيس علاقات بين الإفريقيين فى القارة والإفريقيين فى الشتات فى العالم العربى.

* نحن ندين عمليات شراء العبيد لتحريرهم، وفى تقدير المؤتمر فإن شراء العبيد لتحريرهم الذى يسمى «فدية العبيد» هو نوع من إسباغ الشرعية على العبودية.

* نحن ندين بأقوى العبارات الممكنة اتخاذ الجوارى والمحظيات بالقوة واستعباد النساء الإفريقيات واستخدام الجوارى الإفريقيات من أجل استيلاد الأولاد الذين يكونون مملوكين للسادة العرب.

* نحن ندين بأقوى العبارات الممكنة الدور التعاونى الذى يقوم به إفريقيون فى هذه التجارة.

* نحن نتهم المجتمعات العربية بالنسبة للجرائم التاريخية المستمرة التى مارسوها ضد الصبية الإفريقيين الذين خضعوا للخصى الإجبارى الذى لم يعش منه نسبة ١ : ١٠، وذلك لخلق طبقة من الأغوات (المخصيين).

* نحن نتهم المجتمعات العربية على ما صنعت تاريخيًا ولا تزال تصنعه بالنسبة للصبايا البنات، يعملن كجوار من أجل الجنس لساداتهن ويعتبر حق أن يتزوجن إلا عشيرة ساداتهن.

* نحن نتهم المجتمعات العربية فى بعض مناطق الحدود العربية الإفريقية بممارسة القتل الجماعى ضد الأفارقة وخاصة فى السودان.

* نحن نتهم المجتمعات العربية بالمسئولية عن الإبادة العرقية للشعب الإفريقى من خلال عمليات التعريب الثقافى المفروضة بالقوة.

* وأخذاً فى الاعتبار أن مباشرة العرب لتجارة العبيد فى إفريقيا على مدى ألف سنة قد أحدث دمارا لا يمكن تقديره للإفريقيين وللمجتمعات الإفريقية، ويحتاج إلى الاعتذارات وإلى التعويضات للإفريقيين، فنحن ندعو إلى حوار حضارى بين العرب والشعوب الإفريقية.

وهكذا قلب المؤتمر الميزان والثوابت واعتبر أن العبودية ليست ما كانت عبر الأطلنطى وإنما هى ما قام بها قلة من التجار العرب. لقد بدأ البيان بداية سليمة عندما أكد حقيقة أن القارة الإفريقية وشعوبها اعتبروا مستودعًا للعمل غير المأجور مورست معهم القسوة البالغة فى ذلك، وذلك فى مناطق المحيط الأطلنطى والبحر الأبيض والمحيط الهندى. كل ذلك مدان طبعًا تاريخيًا وواقعيًا بكل أشكال الإدانة. إنما البيان بعد ذلك يركز على الممارسات العربية وحدها فى هذا الشأن ويعتبرها أنها تشمل المدة الأطول فى إزاحة الأهالى.

وبعد أن يقرر هذه المسألة باعتبارها الحقيقة التى يتعين التركيز عليها الآن، يعترف مباشرة بأن ثمة فقدانًا للذاكرة الجماعية بخصوص عبودية العرب للإفريقيين، وأن الأمر يحتاج لبحث أطول ويدعو الباحثين والأكاديميين إلى التنقيب والعمل فى موضوع تجارة الرقيق التى مارسها العرب والعثمانيون.

فالبيان هنا وضع النتيجة قبل أن يبحث المقدمات والوقائع أى أنه يعترف بأن الأبحاث إلى اليوم والوقائع المتاحة معرفتها إلى اليوم لم تظهر بعد دعواه بالنسبة لعبودية العرب للإفريقيين وأنها تساوى أو تجاوز كثيراً ما مارسه الغربيون مع الإفريقيين. وهذه نظرة تفضح الشعوب الإفريقية بالتحامل فى مواجهة العرب وتنسب إليهم الجرم قبل أن تثبته وتدعى أن فقدان الذاكرة الجماعى هو السبب، دون أن يذكر لنا البيان لماذا فقد الإفريقيون ذاكرتهم بالنسبة للعرب ولم يفقدوها بالنسبة للغرب. والقول إن الغربيين سجلوا وقائع استعبادهم للإفريقيين ولم يسجل العرب ذلك قول غير صحيح لأن المؤرخين العرب أثبتوا فى تواريخهم كل ما وقع عليه بصرهم أو تناولته

الأقلام والألسنة أو نزل إليهم من الأجيال السابقة لهم، أثبتوا كل ذلك حتى لو كان ضد معتقداتهم. ومن جهة أخرى فإن وقائع استرقاق العرب للأفارقة أثبتها العرب أيضًا في نطاقها بمثل ما حدث بالنسبة لوقائعها، والأرشيفات العربية والمذكرات الشخصية والكتب العربية توضح ذلك ولعلها ركزت عليه بأكثر مما ركزت عليه استرقاق الغرب للإفريقيين.

وقد عرضنا بأمانة موضوع تجارة الرقيق كما مارسه العرب والمسلمون بوجه عام، وعرضناه مستندين إلى الكتب الغربية التي عكست وجهات نظر الغربيين والأغلب منها يستند إلى تقرير ومذكرات الرحالة والساسة الغربيين الذين لم يكن هدفهم ذكر الحقائق المجردة إنما كان هدفهم الاستعمار والسيطرة على هذه البلاد حسبما أسفرت الحقيقة التاريخية وكانوا في هذا الشأن يحورون الحقائق بما يتلاءم مع أهدافهم، ومن قال ببدائية الإفريقيين وأنكروا حضارتهم هم أنفسهم الذين نعتوا العرب والرؤساء الأفارقة أيضًا بأقبح النعوت رامين إياهم بأنهم مسئولون عن تجارة العبيد وغير ذلك، واعتمدنا على هؤلاء أيضًا فيما ذكرناه من وقائع فلا يقال إننا دافعنا عن العرب والمسلمين والأفارقة من موقف منحاز إليهم على حساب غيرهم.

إنما يستحق النظر ثلاثة أمور مهمة جدًا، **أولاً**: إن استرقاق العبيد لدى العرب والمسلمين كان يجرى في إطار استخدامهم في أعمال الخدمات في الأساس كما سبق البيان، بينما استرقاقهم لدى الغرب كان الغرض الأساسي منه استخدامهم بوصفهم عمالة في الأمريكات فأضيف إلى سلطة السيد على عبده سلطة رب العمل على العامل. **ثانيًا**: إن الموقف العرقي يعتبر الجنس الأسود في عيون الجنس الأبيض ليس من البشر. **ثالثًا**: بهذا الاضطهاد المثلث الدرجات (العبد والسيد ورب العامل والعمل والأبيض والأسود) استخدم الإفريقيون لا بوصفهم عمالة ولكن بوصفهم قوة محركة كما تستخدم الجمال والخيل وغيرها من وسائل النقل والحرث، وهذا أقسى وأبشع ما يستخدم فيه البشر لا من حيث الجهد العضلي فقط ولكن من حيث النظر إليه باعتباره خارج نطاق البشر، ودليل ذلك أن حركة تحرير العبيد في أمريكا لم تظهر إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر، لم تظهر فقط بسبب احتياج رأسمالية الشمال للعمالة

للعمل المأجور إنما ظهرت عندما كانت الآلة كقوة محركة أصبحت هي السائدة مما أمكن بها الاستغناء عن الجهد العضلي للعبيد بوصفهم قوة محركة.

أما في الشرق فإن الشعوب الإسلامية والعربية استخدموا هؤلاء ليس في الإنتاج ولكن في الخدمات وفي الجيش وغير ذلك. لذلك فالمسألة ليست في التجارة فقط إنما هي في هذا الكائن الذي يتاجر به وكيف يعامل، هذه النقطة لا يمكن أن تنفصل عن موضوع التجارة نفسه وليست كل عمليات البيع والشراء سواء؛ فالعبيد هناك كان فيهم بيض ورجال ونساء أكثر من الرجال، وفيهم احتمالات الاندماج في المجتمعات وإمكانية الزواج والإنجاب، وفيهم من صعد في الجيوش وصار بعضهم من النخب الحاكمة.

إن ما يطالب به البيان عن تحقيق ما لا يزال جارياً من استعباد الإفريقيين عند الحدود العربية الإفريقية سواء في موريتانيا أو في السودان كما يقول فهو أمر لا بد من تحققه فعلاً وكشفه ودمغه.

وبالنسبة لما ذكره البيان من إدانته لتعاون الإفريقيين في تجارة العبيد فإن الثابت أيضاً أن العرب لم يشاركوا في تجارة العبيد بأكثر مما شارك فيه الإفريقيون أنفسهم. وإن استخدام الجواري الإفريقيات من أجل استيلاد الأطفال وغير ذلك يدان طبعاً ولكن يتعين أن نذكر أن هذا الأسلوب من أسلوب استخدام العبيد هو استخدام منزلي وأسرى لا يمكن أن تقارن قسوته بما كان يحدث من استخدام الذكور والإناث في المزارع الأمريكية، وهذا باعتراف المؤرخين المنصفين والشرفاء.

أما عن عملية التعريب الثقافي المفروضة على الإفريقيين من جانب العرب فإننا لا نجد أن سلطة عربية اشتد ساعدها في احتلال البلاد الإفريقية بالشكل الذي يجعلها تفرض ثقافتها عليها. والثابت تاريخياً أن انتشار الإسلام في إفريقيا كان يجري عن طريق الدعاة من التجار والطرق الصوفية بغير غزو ولا سلاح ولا حكومات احتلال.

ومع ذلك وبعيداً عن كل ما سبق، ولا خضوعاً لابتزاز الإفريقيين بإلقاء تهمة الاتجار في العبيد على العرب بأكثر مما فعله الأوروبيون، فإن من واجب الدول العربية ذات

الفوائض من عائدات البترول أن تساعد الشعوب الإفريقية الفقيرة العاجزة بتقديم معونات لا ترد أو قروض ميسرة لإنقاذ الشعب الإفريقى من الموت جوعًا وعوزًا، وليس هذا من باب الكرم وإنما مسئولية إنسانية وتسديد لدين سابق، وحتى لا يتهرب عالم الغرب الغني من تسديده لفاتورة العبودية .

الحمد لله

هذا الكتاب

إن الوهن الإفريقى حيال تحديات التغيير والبناء والتطور التى توصم به إفريقيا .. له جذوره الضاربة عبر التاريخ ؛ قرون خضعت فيها القارة لتجربتين قاسيتين من تجارب العبودية والاغتراب وهما تجارة العبيد عبر الأطلنطى وغربنة الشباب الإفريقى وانسلاخه عن واقعه .

التجربة الأولى وهى مرحلة الرق البشرى والأسر المادى، أفرغت القارة من أبنائها وقذفت بهم فى أوروبا والأمريكات بلا عودة . والتجربة الثانية لا تختلف فى مرارتها وآثارها المدمرة عن سابقتها وهى مرحلة الأسر الثقافى للشباب الإفريقى «أنصار الحداثة» الذين تعلموا فى الخارج وأصبحوا عبيدا للثقافة والفكر الغربيين، وهؤلاء من وصل منهم إلى السلطة اعتبر التقاليد الإفريقية عقبة فى سبيل تحرير إفريقيا وصاروا يقمعون ويضطهدون شعوبهم مثل مستعمريهم السابقين .

الوهن الإفريقى الذى نشاهده الآن هو نتاج هاتين التجربتين القاسيتين من تجارب العبودية وهى التى أعاقت التطور والإصلاح والتنمية .

إن تجارة العبيد واسترقاق ملايين الأفارقة عبر أربعة قرون كان ذا أهمية حاسمة فى بناء إمبراطوريات الدول الاستعمارية الغربية وإنتاج الثروات التى فجرت الثورة الصناعية فيما بعد .

وهذا الكتاب يتعلق بمأساة التجربة الأولى وهى جريمة تجارة الرقيق التى مرت بنظم ثلاث : العبودية بالقرصنة، والعبودية بالتحالفات، والعبودية بالمشاركة، وهى الجريمة التى ضربت القارة الإفريقية وأوقفت نموها الحضارى ولطخت وأفسدت نسيج المجتمعات فيها وحفرت فى النفوس عقدة التدنى .

إن جريمة تجارة الرق وبواعثها وأطرافها وما أحدثته فى القارة من تدمير، لا يزال يحيط بها الغموض والصمت، وعلى الأفارقة أن يذيعوها دون خجل ؛ لأنها تدين وتبرز ضعف القيم الإنسانية والضمير الإنسانى فى عهد المستعمرين وقناصى الرقيق . ومن حق الأفارقة الآن أن يطالبوا المجتمع الدولى بالتعويضات عن فترة العبودية .

